

خواطر سبعيني

ذكريات مقيم في قطر



محمد همام فكري

خواطر سبعيني

ذكريات مقيم في قطر

محمد همام فكري

الدوحة 2026

وزارة الثقافة
Ministry of Culture
State of Qatar • دولة قطر

خواطر سبعيني.. ذكريات مقيم في قطر

المؤلّف: محمد همام فكري

الطبعة الأولى - 2026

الناشر: وزارة الثقافة

إدارة الإصدارات والترجمة

قسم الإصدارات

البريد الإلكتروني: rs@moc.gov.qa

هاتف رقم: 44022222

الدوحة - قطر

التدقيق اللغويّ: منى محمد أبوصيام

الإخراج الفني: أحمد سعيد علي غزالة

رقم الإيداع في دار الكتب القطريّة: 2026/276

الترقيم الدولي (ردمك): 9789927173356

شركة الخليج للنشر والطباعة (مطابع الراية)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

(لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر).

خواطر سبعيني

ذكريات مقيم في قطر

فهرس الموضوعات

تقديم	9
مقدمة	15
القاهرة – الدوحة	19
اللقاء الأول	22
جامعة قطر	24
البحث العلمي وحوليات الجامعة	27
حضارة الغوص على اللؤلؤ	33
في رحاب المجتمع	36
شارع مشيرب وما حوله	39
مبنى دار الكتب القطرية	44
رخصة القيادة (الليسن)	45
السوق القديم وظلاله	48
بريد قطر	51
الرعاية الصحية	54
الصحة المدرسية	57
الصحافة القطرية	64
بائع الجرائد	73
مساء الخميس	76
نادي الجسرة	86
الطباعة في قطر	90
إذاعة قطر من الدوحة	92
دار الكتب القطرية	96
معرض الدوحة الدولي للكتاب	101
متحف قطر الوطني	104
لُول (مال لول)	108
مسرح قطر الوطني	111
شيراتون الدوحة؛ سيد الفنادق	115
النادي العلمي والمنتدى العلمي	120
مجلة أخبار الأسبوع	136
كتارا... الحي الثقافي	139
مجلة أسواق الخليج	144
الأعراس القطرية	146
في مجلس العزاء القطري	149
جهود قطرية في الحفاظ على الحياة الفطرية	151
البيئة تجمعنا	158

الرياضة كخيار وطني	164
الشاعر الدبلوماسي الدكتور حسن النعمة	168
نخلة الفنَّان يوسف أحمد.. تطرح فناً	170
سكيك الجسرة	174
شواطئ قطر	176
حديقة حيوانات الدوحة	179
شارع الكهرباء	182
سوق الحراج	185
برّ قطر	187
نباتات قطرية	189
كشتة قطر	192
رمضان في قطر	195
الدوحة... مدينة المآذن	198
المنطقة الصناعية	201
الحج من قطر	204
السنتر.. الحياة الراقية	215
كافتريات ومطاعم	218
عمارة البيت القطري	221
المرور في قطر... زمن الدوّار	225
تأمُّلات مقيم	229
عتبة التاريخ	231
الشيخ جاسم بن ثاني (حفيد المؤسس)	233
اليوم الوطني	238
بين الرواية، والتاريخ	242
السينما في قطر	244
الشعر النبطي	251
قطريون في مصر.. مصريون في قطر	254
أما بعد	257
مؤسَّسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع	262
الشيخ حسن	265
مجلس الشيخ حسن بن محمد آل ثاني	268
قصاصة ورق من العمر (تعداد السكان 1986م)	274
هدايا السفر	277
حالول... مقهى الصيادين	280

تقديم

يقدم كتاب خواطر سبعيني لمؤلفه محمد همام فكري سيرة حياة الكاتب فيما يتعلّق بإقامته وعمله في دولة قطر، بصفته كاتبًا وباحثًا ومؤرخًا عُني بالكتابة عن تاريخ الخليج بصفة عامة، وتاريخ قطر بصورة خاصة. سيرةٌ تبدأ من عام 1979م، وتؤرخ لإقامة دامت سبعةً وأربعين عامًا، ليسجّل ويشهد خلالها على الطفرات التي مرّت بها الدولة على مختلف الصُعد. إذ قدِم أوّل ما قدِم للعمل بالإعارة في جامعة قطر، في مرحلةٍ كانت فيها الجامعة تمرّ بمرحلة تحوّل، مدفوعةً بتسارع وتيرة التطوّر والحاجة إلى التوسّع، إذ انتقلت من كليةٍ للتربية إلى جامعة تضمّ أربع كليات إضافية. حيث كان حاضرًا في ارتقاء الجامعة في معناها وشاهدًا على توسعها في مبناها. وإضافة لعمله في جامعة قطر، شغل فيما بعد عددًا من المناصب المهمة في مجال التراث والتاريخ، فقد عمل مديراً لمكتبة التراث العربيّ والإسلاميّ- مكتبة قطر الوطنيّة حالياً - وتقلّد بعدها منصب مدير مركز حسن بن محمد بن علي آل ثاني للدراسات التاريخيّة، في الفترة من 2001 إلى 2005، ثمَّ شغل منصب مساعد مدير مكتبة التراث العربيّ والإسلاميّ في مركز التطوير الثقافيّ بمؤسسة قطر، ويعمل حاليًا مستشار التراث والكتب النادرة في مؤسسة قطر للتربيّة والعلوم وتنميّة المجتمع.

استعرض المؤلف من منظور الباحث والمؤرخ التحولات الثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي شهدتها البلاد في العقود الأربعة الماضية. لكنه لا يكتفي في سرده بعين الباحث المؤرّخ في وصفه لأوجه النماء، سواء على مستوى التعليم، أو الثقافة، أو الصحة، أو العمران؛ بل تتسرّب إلى لغة خاصة تشي بإحساسٍ

مرهف بشاعريّة المكان التي استحكمت بطول السنين وامتداد العِشرة؛ جاعلاً من المكان في نصه كائن حي يستنطقه عن تاريخه.

ما يميز العمل هو وقوعه ضمن جنسٍ أدبي خاص، فهو إلى جانب كونه سيرة ذاتية، هو سرد توثيقي، ونوع من الاستذكار الذي يجمع بين رصانة التوثيق وشاعرية التذكّر، فمؤلفه في توثيقه وتأريخه لمادة الكتاب؛ كان كمن يؤمّن الذكريات بالحفظ، فيُدلي بذكرياته شاهدًا وقد عاش التحوّلات من قلب البلاد وبين أهلها. فيستعيد الدوحةَ كما كانت في بساطتها الأولى؛ مطارها الصغير الذي يحمل مهابةً خاصة، شارع الأصمخ بدكاكينه، السوق القديم وظلاله، الفرجان التي صارت بعد عهد مجمعات وأحياء تنبض بحياة مختلفة، كما يستعيد في الوقت ذاته المعالم التي كانت ركائز حياته في أثناء إقامته؛ جامعة قطر بمبانيها وحدائقها وأساتذتها الذين قدِموا من أصقاع العالم العربي، ونادي الجسرة الثقافي والنادي العلمي القطري، مسرح قطر، وإذاعتها ودار كتبها ومتحفها الوطني، علاوة على مشاهد من الحياة الاجتماعية القطرية من أعراس ومجالس وعادات رمضانية راسخة، ورحلات برية عفوية، بالإضافة إلى وقفات عند شخصيات قطرية بارزة. فصول من روح بلدٍ شهِد الكاتب على تشكّلها وتوطّدها. فمن بين ثنايا السرد الشخصي تنبثق صورة تاريخية دقيقة لقطر في حِقبتَين متصلتَين؛ قطر السبعينيات والثمانينيات بمجتمعها الصغير المترابط، بشوارعها البسيطة ومطبوعاتها الأولى وبريدها ومسارحها وملاعبها الناشئة، وقطر اليوم إذ هي أيقونة على مختلف الصُعد.

ولعلّ الكتاب يأتي احتفاءً من وزارة الثقافة وعرفانًا بكل جهود وإسهامات مقيمي دولة قطر، فمقيمو دولة قطر، إلى جانب مواطنيها، شريانٌ نابضٌ نحو ازدهار البلاد، أسهموا في تشييد عمرانها، وإغناء تنوّعها الثقافي، وتعزيز حيويتها الاقتصادية. وكلّ مقيمٍ مُسهِمٍ تُقدّره البلاد وترحّب به، دون أن تُكلّفه الانتماء؛ فلا انتماء يضاهي انتماء الشعوب لأوطانها. وهكذا، يبقى المقيم شاهدًا وشريكًا في آنٍ واحد؛ شاهدًا على تحوّلات المكان، وشريكًا في صوغ ملامحه.

إدارة الإصدارات والترجمة

هـذه الصفحـات شـهادة للتاريـخ، واعتراف للذاكـرة. أسـتعيد فيها مـا علـق بروحـي مـن صـور ومعـالم وأشـخاص منـذ أن وطئـت قدمـاي أرض قطـر عـام 1979. سـتة وأربعـون عامًـا لم تكـن مجـرَّد رحلـة عمـل؛ بل حيـاة كاملة؛ تقاسـمت فيها العطاء والأخـذ، الصحبة والفقـد، الجهـد والراحـة القليلـة، وأسرة كانـت سـندًا لي في ظل أيامٍ وليـالٍ امتلأت بالمسـؤوليات.

هنـا ظلال الذاكـرة... ذاكـرة المـكان والإنسـان. انفتحـت أمامـي فضـاءات جديـدة منـذ اللحظـة الأولى: في رحاب جامعـة قطر التي منحتنـي بدايـة العمـر الجديد، حيث تداخـل العلم بالحياة، وتشـكل وعيـي بملامـح الوطـن المضيـف. ومـن هنـاك امتـدت خطـواتي إلى نـادي الـجسرة الثقـافي الـذي كان سـاحة للحـوار والإبـداع، وإلى النـادي العلمـي القطـري حيـث التقـت المعرفـة بالتجربـة العمليـة، وإلى مسرح قطـر وإذاعـة وتلفزيـون قطـر حيـث وجـدت الثقافـة صوتهـا وصورتهـا وحضورهـا في المجتمـع.

ولم تتوقَّف المسيرة عند ذلك؛ بل كانت لي محطات أخرى مع متحف قطر ودار الكتب القطرية، ثم مكتبة قطر الوطنية، حيث تساكنت المعرفة مع الذاكرة، وتجاورت الحياة مع الكتاب.

هذه المعالم لم تكن مجرَّد مؤسَّسات أو مبانٍ؛ بل كانت عوالم متكاملة صنعت لي فضاءات أرحب، وأشركتني في نسج خيوطها، حتى أصبحت جزءًا منها وصارت جزءًا مني؛ فضاءات للروح والذاكرة، جسورًا ربطت الماضي بالحاضر، ونسجت من العلم والفن خيوطًا ممتدة إلى المستقبل في كل تجربة وجدت نفسي جزءًا من مشهد أكبر: أشارك الآخرين بناء المعرفة، أو أستمع لصوت المكان في صمته، أو أترجل في طرقات الماضي لألتقي وجوهًا غابت وبقي أثرها.

وأستعيد اليوم تلك المحطات التي مررت بها في قطر، فأرى كيف تشابكت المعالم لتصنع عالمي الخاص: جامعة قطر التي فتحت أمامي أبواب العلم والبحث، النادي العلمي الذي منحني فرصة أن أزرع بذور الفضول في عقول الشباب، كتارا التي جمعت بين التاريخ والحداثة في حوار أبدي، ثم الرياضة التي كانت حلمًا وطنيًا يتشكل فقد كانت الملامح قد ارتسمت، والروح الرياضية بدأت تكبر في صدور الشباب. في شوارع المدينة البسيطة آنذاك، وفي ملاعبها الناشئة، كنت ألمح بذور شغف تحلم بما هو أبعد من حدودها.

إنها قطر التي عشت فيها ستة وأربعين عامًا لم تكن مجرَّد إقامة؛ بل حياة بكاملها. حياة امتلأت بعطاءات متبادلة: أخذتُ منها العلم والمعرفة، وأعطيتها جهدي ومحبتي. واليوم، وأنا أكتب هذه الخواطر، أدرك أن كل معلم مررت به لم يعش في ذاكرتي وحدي؛ بل أسكنني كما أسكنته، وصار جزءًا من تكويني. تلك هي المعالم القطرية التي عشتها... وعاشتني أُقدمها لكم بعيني ووجداني أنا، إنها تأمُّلات مقيم.

محمد همام فكري

الدوحة 2025

القاهرة - الدوحة:

كان ذلك اليوم الأول في الدوحة، يوم 30 سبتمبر 1979م، يوم لا أنساه لأنه كان بداية حكاية طويلة لم أكن أتخيَّل أنها ستستمر كل هذا الوقت. بدت المدينة كأنها تنتظرنا على بساطتها بأذرع مفتوحة. كان المطار صغيرًا؛ لكنه يحمل مهابة خاصة، كأنه بوابة بين عالمين. ما إن وطأت أقدامنا أرضه حتى استقبلتنا وجوه رجال الأمن العام يفتّشون الجوازات بوقار، وابتسامة أحدهم تقول بلا كلمات: «أهلاً بك... أنت الآن في رحاب دولة رجال». كانت الحركة في المطار كلها رجالاً برجال؛ رجال ينتظرون القادمين بشوق، وآخرون يودّعون المغادرين بقلوب مثقلة.

في كل زاوية مشهد لقاء أو وداع: عناق، دموع، وضحكات. ومن بين كل هذا الضجيج، لمحت بعض الوجوه المصرية التي جاءت خصيصًا لاستقبالي، فقد كان ذلك دأبنا يومها؛ لا أحد يأتي دون أن يجد من يستقبله، ولا أحد يسافر دون أن يُشيَّع حتى آخر لحظة. وفي خضم ذلك الازدحام وجدت في المطار مندوبًا من إدارة العلاقات العامة في جامعة قطر أذكر اسمه حتى اليوم: الأستاذ محمد حسين، وكان رجلاً هادئًا وقورًا لطيفًا. تقدم نحوي بابتسامة وسألني بصوت خافت: «الجامعة؟» فأجبت: «نعم». أخذ مني جواز السفر، وتولّى بنفسه إنهاء إجراءات الدخول في مكتب الجوازات، شعرت وقتها أنني أتلقى معاملة خاصة لم أختبرها من قبل في أي سفر، وكانت تلك أول مرة أحسُّ فيها أن ثَمَّة من يرعى أمري، ويهتم بتفاصيلي الصغيرة، وكأن الجامعة تقول لي منذ اللحظة الأولى: «اطمئن، نحن هنا».



◉ مطار الدوحة الدولي في السبعينيات

أكثر مـا رسـخ في ذاكـرتي من ذلك اليـوم لم يكن المطار فقط؛ بـل الهواء الذي اسـتقبلني، كان ذلـك في أوج الرطوبـة، والحـرارة بلغـت ذروتهـا. شـعرت بصدمـة مناخيـة حقيقيـة، ووقفـت أترقّـب نسـمة هـواء واحدة، كأنها سـتأتي لتطـمئن قلبي؛ لكـن بلا جـدوى، الجـو بـاقٍ كما هو كأنـه يخـتبر صبري. وكان أقسى ما عانيت في ذلـك الجـو أن نظـراتي خيّمـت عليهـا شـبورة رقيقـة مـن بخـار الماء، كأن الرطوبـة علّقـت غلالـة من السـحب أمـام عيني حتى خُيّـل إليّ أننـي أسير في فضاء ضبابي أثقـل خطـواتي وأربكنـي. حتـى دخلـت استراحـة القـادمين، وهـي سـكن مـؤسَّسي تابـع لجامعـة قطـر مخصّـص لاسـتقبال العامـلين الجدد، وهنـاك وجـدت المفاجأة الأولى: المكيّفات تبرد المكان بشـكل لم أعهده من قبل وصوتها يشـغل سـمعي طوال الوقـت. كان ذلـك غريبًا عليّ، فقد عشـت في مصر ولم أكن أعـرف التكييف، وكان الهـواء البـارد أشـبه بترف لم أتخيَّلـه، وكأن المـكان يمنـح القـادم استراحة جسـدية قبـل أن يبـدأ مواجهـة حـرارة الخارج مـن جديد.

منذ أن كنت في القاهرة بدأتُ رحلة الأوراق والإجراءات، أتنقل من مصلحة إلى أخرى، وكأنني في سباق مع الزمن. كان قبولي للعمل معارًا في جامعة قطر يستدعي أن أجري فحصًا طبيًا شاملاً في العيادات التابعة للسفارة القطرية هناك، ليتأكَّدوا من خلوّي من الأمراض المعدية. جلست أمام الطبيب مطمئنًا، فإذا به يرمقني بنظرة متفحصة ويقول: «نظرك ضعيف يا أستاذ، عليك أن تراجع السفارة فتعيد عمل نظارتك حتى تكون لائقًا». شعرت للحظة أن حلم السفر كله قد يتوقف على عدستَين صغيرتَين! خرجت من العيادة متوجهًا مباشرة إلى شركة النظارات، وكأنني أهرول لألحق بقطار المستقبل قبل أن يفوتني، وأعدت عمل نظارتي الجديدة. حين ارتديتها شعرت أن العالم صار أوضح وأن الطريق إلى الدوحة صار أقرب.



◉ منظر من أرض المطار

اللقاء الأول

بـدأت رحلتي في اكتشـاف الدوحة من شـارع الأصمـخ؛ أسير على قدمي، أفتّش الوجـوه وأصغـي إلى الأصـوات. كان ذلـك في أول يـوم لي هنـا؛ وصلـتُ عصرًا إلى مسـكن مؤقـت خُصِّـص للموظـفين الجـدد بجامعـة قطر. ومـا إن وضعـت حقائبي حتـى دفعتنـي رغبـة الاكتشـاف إلى الخـروج. كنـت غريبًـا عـن كل شيء، لا أعـرف الجهـات ولا أسماء الطـرق؛ لكـن شـيئًا خفيًّـا كان يهمـس لي: إن أردت أن تنـتصر على الغربـة، امـشِ نحوهـا، ولا تهـرب منها.

لفحتنـي رطوبـة غريبـة، وحـرارة أثقلـت الهـواء. كانـت المدينـة تتنفـس برائحـة حـرارة الأسـفلت المزوجـة بأبخـرة السـيارات، ومـع ذلـك كان فيهـا شيء يدعـوني لأقترب أكثر. مشـيت بخطـوات حـذرة، أتعـرف على الأرض بعينـيّ كمـن يمشي في حلـم بطـيء. كنـت كمن يتعلَّم لغة المكان عبر حـروف الأسماء: الريس للإلكترونيات والأجهـزة المنزلية، سـوبر ماركت بسـم الله، مسـجد الأصمخ بمهابتـه البيضاء، فندق القايـد أعلى بنايـة في الشـارع، خيـاط كشـمير، راديـو بـشير، فـرن الدوحـة حيـث تنبعـث رائحـة الخبـز السـاخن وتختلط بحـرارة الطريـق، معرض الأندلس للسـجاد.

أسماء خالـدة حُفـرت في ذاكـرتي، لأنهـا كانـت جسري الأول إلى هـذه الأرض الجديدة.

النـاس في الشـارع يمـرّون ببطء، وجوه تتدفّق بلا توقـف وهي واجمة، خطوات تعـرف وجهتهـا منـذ زمـن. وبطـول الشـارع على الجانـبين دكاكين صـغيرة تعـرض حلـوى ملوّنـة، وأجهـزة لامعـة، وأقمشـة وملابـس. وعلى الرصيـف يجلـس عـدد من النـاس يفترشـون الأرض، (خـرازون) يصلحـون الأحذيـة وهـم ينـادون على المارة يعرضـون خدماتهـم أصغـي إلى أحاديثهـم؛ اسـتمعت إلى أصـوات بلغـات شـتى، وأحيانـاً عربيـة مـكسّرة نصـف مفهومـة؛ لكنهـا دافئة على نحـو ما، كأنها موسـيقى مدينـة تحتضـن غرباءهـا. وفي كل هـذا الضجيـج، كنـت أنـا أبـدو سـاكناً واجمًا مأخـوذاً، كمـن ينظـر إلى الحيـاة مـن خلـف زجـاج غير مـرئي.

كانـت الصـور تتـوالى عليَّ طـوال الطريـق؛ تختلـط وجـوه الأحبـة باللافتـات، تخـرج مـن قلـب الذاكـرة التي تجمـدت على نظـرات الـوداع المؤلمة: نظـرات ابنتي

الصغيرة ودموعها، زوجتي بملامح الأمان الزائفة، أبي وأمي وإخوتي وحالة الذهول المريبة وأنا أودعهم.

في شارع الأصمخ يخرجون من رأسي، يرافقون خطواتي في هذا الممر الغريب. أحسست أنّني لم أتركهم وراء ظهري حقًا؛ بل أحضرتهم في قلبي، وسبقوا خطواتي إلى الدوحة.

لم أكن أدرك بعد كم أنا بعيد، كم أن البحر والصحراء والسماء التي تفصلنا أوسع من أن تُقطع بخطوة أو رحلة طائرة. كنت هائمًا، أظن أن الغياب مجرَّد مسافة تقطعها الأرجل أو تبتلعها ساعات الطيران، ولم أكن أعلم أنه شعور زاحف يجيء في الليل حين يهدأ كل شيء، وتبقى وحدك مع صدى الحنين.

كنت أتمهّل في مشيي، أتحسّس جيبي مطمئنًا لوجود مفتاح الغرفة التي سأعود إليها، ولكن لا يهم، فالباب يتركونه مفتوحًا هنا، الأمن والأمان عنوان الحياة.

وعندما وصلت الى رأس الشارع، نظرت إلى ساعتي فرأيت عقاربها تشير إلى الثامنة؛ لكن الدوحة كانت قد بلغت التاسعة؛ ساعتي ما تزال على توقيت القاهرة التي تركتها خلفي. ضحكت في سّري: حتى الوقت يحتاج أن أضبطه على إيقاع المدينة الجديدة؛ لكن خلف الضحكة غصّة خافتة: هل يمكن أن يُضبَط القلب كما تُضبط الساعة؟ هل يمكن أن يتكيف الشوق مع فارق التوقيت؟.

حين شعرت بأن الغربة بدأت تخفّ قليلاً، استدرت عائدًا. عدت أقرأ اللوحات نفسها، كمن يراجع درسًا جديدًا في الجغرافيا العاطفية. حتى وصلت إلى دكان عبد الرزاق للإلكترونيات، وهناك رفعت بصري إلى الطابق العلوي حيث غرفتي المؤقتة. كانت الأضواء قد خبت، والبيت يتهيأ للنوم، والشارع، أيضًا، بدأ يسكن ويصفو. وقفت في العتمة قليلاً، أحدّث نفسي: لقد مشيت أولى خطواتي في اقتحام المجهول. أنا أتعلَّم أن أعيش بعيدًا، ولو على مهل.

رفعت رأسي إلى السماء الداكنة وتنفسّت بعمق، ثم همست:

مرحبًا يا دوحة... ربما كنتُ غريبًا هذا المساء؛ لكني الليلة بدأتُ أكتشف طريقي إليك. الغربة ما عادت وحشًا يخيفني؛ بل طريقًا يعبره قلبي حتى يصل إلى حيث ينتظر الأحبة، ويظل ممتدًا نحوهم مهما ابتعدت المسافات.

جامعة قطر

في رحاب الجامعة بدأت فصول حكاية جديدة من حياتي، وكأنني أفتح بابًا آخر في دفتر العمر. ما زلت أذكر أول أيام الإقامة حين أكملت الإجراءات في الجوازات، شعرت كأنني أعبر بوابة إلى عالم آخر. كان عليَّ أن أجري الكشف الطبي في عيادات الصحة المدرسية، وهناك سلّمتني يدٌ ما شهادة بفصيلة دمي، ثم ذهبت إلى ما كانوا يسمونه «البصمة»، حيث تُؤخذ بصمة الأصابع، وتُحدّق فيك العيون، كأنك تقف أمام قاضٍ في محكمة. يومها هنّأني الزملاء قائلين: «مبروك، صرت مقيمًا، ويحق لك أن تستخرج رخصة قيادة». ثم يضحك أحدهم ويزيد: «لكن ستحتاج ستة أشهر على الأقل حتى تحصل عليها!». كان ذلك بمثابة عبوري الرمزي من ضفة الغريب إلى ضفة المقيم، ومن هناك بدأت الحياة اليومية في الدوحة.



◉ المبنى القديم لجامعة قطر، عام 1979



◉ الأستاذ الدكتور كمال الدين حسن البتانوني

بـدأت عـملي في مبنـى الجامعـة بـنين، وكان الدكتـور البتانـوني يجـيء صباحًا حـاملاً أوراق القسـم في حقيبتـه الجلدية. سـلّمني الأوراق وقال بابتسـامته الواثقة: «خـذ هـذه الأوراق وابـدأ في عمـل الملفـات». لم أكـن أعلـم يومهـا أننـي سـأكون حجر الأسـاس في تأسـيس أرشـيف القسـم، وتنظيم معامل ومخازن ومعشـبة كانت بمثابـة قلـب العمـل العلمـي. كانت الأيام طويلة تبـدأ من السـابعة صباحًا ولا تنتهي إلاَّ بعد الخامسـة، وأحيانًا السـابعة مسـاءً؛ لكن شـعور المشـاركة في بناء شيء جديد كان يجعـل التعـب أخـف وطأة.

كان دور الجامعـة التنويـري، يأخـذ مسـارات مختلفـة منهـا مجـال البحـث العلمـي، باعتبارهـا هيئـة عامـة ذات طابـع علمـي وثقـافي، ولها شـخصية اعتبارية وميزانيـة مسـتقلة، وهـي جامعـة عربيـة إسلامية، ومنـارة للفكر الإنسـاني، وتختص بـكل مـا يتعلـق بالتعليم الجامعـي والبحث العلمـي، والعمل على إعـداد المتخصصين والفنـيين والـخبراء، وتشـجيع رقي الآداب وتقـدم العلوم والفنـون، وتطوير المجتمع مـع الحفـاظ على عنـاصره العربيـة الأصيلـة وتراثـه الحضـاري الإسلامـي العريق،

وتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات الأخرى والهيئات العربية والأجنبية والدولية، من هذا المنطلق بدأت الجامعة بخمس كليات هي: «التربية، والإنسانيات والعلوم الاجتماعية، والعلوم، والشريعة والدراسات الإسلامية، وكلية الهندسة»، بالإضافة إلى مراكز البحوث التالية: «مركز البحوث التربوية، ومركز البحوث العلمية والتطبيقية، ومركز الوثائق والدراسات الإنسانية، ثم مركز بحوث السيرة والسنة النبوية».

وكان على هذه المراكز أن تشجع أعضاء هيئة التدريس على إجراء البحوث العلمية سواء أكانت بقصد تنمية المعرفة وإضافة الجديد إليها، أو بحوث تطبيقية تتناول مسائل وقضايا تربوية وإسلامية واجتماعية وعلمية ذات أهمية علمية في حياة الأفراد والمجتمع، وتميزت بعض البحوث بأسلوب الفريق.

وتحولت مراكز البحوث تلك إلى بيت خبرة علمي قدَّم العون لمؤسَّسات المجتمع كافة، كما تفاعل مع مشكلات وتحديات عمليات التنمية، بما يلبي حاجة المجتمع، وذلك في عقدَي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي بدولة قطر، كما ساهم في إمداد المجتمع بالكفاءات والقيادات التي قادت عمليات التنمية الشاملة التي شهدتها دولة قطر في المجالات كافة، والذين نراهم، الآن، باحثين وعلماء يشاركون في صنع التقدم والنهضة الحضارية لوطنهم.



◉ المبنى الحديث لجامعة قطر

البحث العلمي وحوليات الجامعة

في ذلك الوقت، تسابقت الكليات والمراكز العلمية، في إهداء المجتمع بالعديد من الدراسات الميدانية المسحية القيّمة المتعلقة بأنواع النبات والحشرات والعناكب والزواحف والطيور والثدييات وغيرها، والعمل على نشر هذه البحوث بعد تحكيمها وإجازتها للنشر في مجلات الكليات المتخصصة، مما أتاح نتائج مهمة لمتخذي القرار والهيئات التنموية المختلفة في المجتمع والتي كانت، في ذلك الوقت، في حاجة إلى مثل هذه البحوث الوصفية، كما كان ذلك منطلقًا لإبداعات الباحثين وإطلاق قدراتهم العلمية وترقيتهم علميًا وأكاديميًا، وتولّت كليات الجامعة إصدار تلك الحوليات من خلال هيئة تحرير أكاديمية يتم تسميتها بقرار من مجلس الكلية، حيث أخذت على عاتقها هذه المسؤولية، وفقًا لأصول التحكيم العلمي.

أما ما يهمني في هذا المجال فهي مجلة (جامعة قطر للعلوم)، فقد كان لي معها تاريخ منذ بداية صدورها عام 1980م، إلى عام 2005، وكان يرأس تحريرها أستاذي الدكتور البتانوني لدورة تحرير، ثم أستاذي الدكتور البيومي في دوراتها التالية، ولمدة دورتَين، وبالطبع كان ذلك كفيلاً بأن أكون مشاركًا لهما في جميع مراحلها، منذ ورود البحوث، وتسجيلها، وعرضها على المحكمين ومتابعة إجراء التصويبات، إلى مرحلة الطباعة، ومراجعة البروفات، ومتابعة مراحل الطباعة في المطبعة، وأخيرًا توزيعها، ولقد كونت خبرة عميقة في هذا المجال، على الرغم من تغير تكنولوجيا الطباعة، فأكسبتني خبرة عملية في هذا المجال، وكنت حريصًا على إنجاز جميع مراحل الإنتاج بمسؤولية كبيرة.

وكذلك خلال الخمس سنوات الأولى من التحاقي بالعمل في الجامعة والتي قضيتها في المبنى المؤقت الكائن في مدينة خليفة الشمالية، كنت مساعدًا للدكتور البيومي باعتباره عضوًا في (مركز التطوير الفني) المعني بالإشراف على تنفيذ مشروع المبنى الجديد، وهو مشروع ضخم جدًا، قيل أنه سيكلف حوالي مليار ريال؛ للمنشآت والمختبرات والتجهيزات المطلوبة والمراجعات المستمرة، وكنت أذهب إلى الموقع بين حين وآخر والأمل يحدوني إلى أن أستمر في قطر إلى أن أرى المبنى وقد اكتمل، فقد كان التصميم ينبيء بعمارة ليس لها مثيل، تستلهم

ملامحها من العمارة الخليجية، كان المبنى يشبه قلعة ضخمة مترامية الأطراف، تعلو هضبة تشرف على مياه الخليج من الشرق، وتمتدُّ إلى الداخل الصحراوي غربًا يفصلها عن الكتلة السكنية.

في الدوحة فضاء منبسط يخترقه طريق ممتد من الدوحة إلى المبنى الجديد...

وستكون جامعة قطر في هندستها ومعمارها وتكوينها تعبيرًا عن روح التراث القطري، تجمع بين الملامح العمرانية المحلية عبر العصور وبين أحدث النُظم العمرانية. فهي تعتمد إلى حدٍّ كبير في التهوية على الوسائل الطبيعية التي كانت تستخدم قبل عصر النفط، من أبراج تستقبل الهواء وتدفعه الى الداخل (البادجير) ملقف هواء، وتحمل وظيفة جمالية في الهندسة بالإضافة إلى وظيفتها العملية، بالإضافة إلى النوافذ الأرابيسك والجدران السميكة العازلة، هكذا عبرّ المهندس كمال الكفراوي الذي وضع تصميمها، حيث تعطي هذه الأبراج شخصية مميَّزة للمبنى، مما جعل المبنى يحصل على جائزة عالمية في حينه. ولقد أخبرني فيما بعد المهندس هشام قدومي، وكان يشرف على التنفيذ من قبل الديوان الأميري، أن سمو الأمير الشيخ خليفة كان حريصًا على أن يكون مبنى البنين منفصلاً، تمامًا، عن مبنى البنات، على الرغم من اتصالهما في كيان واحد، فتم معالجة ذلك من خلال الأبواب الحاجزة، فأنشئت الأسوار الفاصلة، وأُبقِي على باب صغير يسمح بمرور الأساتذة، من خلال غرفة تحكم بما يوفر الأمن والخصوصية.

لقد كان المجتمع قلقًا من أي شكل من أشكال الاختلاط، وكان الشيخ خليفة يعي أبعاد ذلك، ويحرص عليه، فقد عاش معضلة جواز تعليم البنات في نهاية خمسينيات القرن العشرين، وكنّا جميعًا نحترم ذلك.

مبنى الجامعة كان له سحره الخاص. أشجار الفيكس تصطف كأنها حرس شرف يحيي خطواتنا كل صباح، والحديقة الأمامية كانت قطعة خضراء منسقة، تتفتح فيها الورود كأنها تبتسم للوافدين. بجوارها ملعب لكرة القدم، ومبنى للأنشطة الاجتماعية والثقافية، ومكتبة صغيرة تحتضن الساعين إلى المعرفة، وخلفها المستنبت، وبيت حيوانات التجارب والمخازن. في الحديقة كان يقيم رجل

مسن من فلسطين، اسمه أبو العبد، يرعاها بحب صامت، كأنه يعتذر للأرض عن كل ما أصابها من اغتراب. كنت أحرص على الحديث معه، وأصغي إلى كلماته القليلة التي كانت أثقل من خطبة طويلة. قال لي مرة إنه هنا منذ الخمسينيات، وإنه هجّره الاحتلال عن أرضه وزرعه في حرب 48، ثم يضيف: «كلها بلاد الله، وقطر كريمة بأهلها». كنت أرى في صمته حكمة المنفيّين الذين حملوا أوطانهم في قلوبهم ومضوا. بجواره كان عم علي يوسف المصري يرعى المستنبت، وكثيرًا ما كنّا نجتمع وقت الظهيرة، أنا وهو وأبو العبد والعم مصطفى محمود، نتبادل أطراف الحديث عن مصر وفلسطين والزمان، وكأنهم تعويض عن الأب الذي باعد السفر بيني وبينه.

أما جوُّ الجامعة فكان مزيجًا من الجدية والحميمية. معظم الأساتذة جاءوا من مصر، وكان يتقدمهم رئيس الجامعة الدكتور محمد إبراهيم كاظم، الذي اختار خيرة العلماء بعناية أبوية. ما زلت أذكر خطابه الافتتاحي الذي ألقاه في لقائنا الأول، كان يتحدث ارتجالاً فيمزج الفلسفة بالتربية والتعليم، يرحب بنا كأننا شركاء في مشروع نهضة، ويختم خطابه بالآية التي صارت شعار الجامعة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام: 162]. شعرت يومها بثقل المسؤولية على عاتقنا، وبأننا لا ندرّس فقط؛ بل نشارك في بناء يوتوبيا عربية على أرض الدوحة.

مع الأيام أخذت أتأقلم مع نمط جديد من الحياة: نوم مبكر، واستيقاظ قبل الفجر تقريبًا، استعادة لنظام الجيش الذي كان مألوفًا لي. كنّا نستلم تجهيزات المعامل من خبراء اليونسكو، على رأسهم مستر ليون الذي بقي اسمه عالقًا في ذاكرتي لأنه يعني «أسد»، وكان بالفعل نشيطًا، ومنظَّمًا، ورياضيًا، يحترم الوقت والعمل كأنهما صلاة. مهمتي مع زميلي سعود أن نفحص الأجهزة ونتأكَّد من سلامتها قبل توزيعها على المعامل، وكثيرًا ما كنّا نحمل الكراتين على صدورنا، ونتصبب عرقًا، ونحن ننقلها بين مبنى البنين والبنات تحت شمس الدوحة الساطعة. كان يساعدني عامل هندي اسمه أحمد عبد الإله، لا يعرف من العربية إلَّا بضع كلمات؛ لكننا ابتكرنا لغتنا الخاصة من الإيماءات وبعض الألفاظ التي تعلّمتها منه: «زين»، «سيدا»، «ليش»، وصارت بيننا صداقة تتجاوز اللغة.

مـع الوقـت صرت أشـبه بالعنصر الخفي الـذي يصل بين جميع أطراف القسـم: الـطلاب، والأسـاتذة، والإدارة. كنـت أتـولى أي مهمة طارئة وأسُـدّ أي نقص، أحتفظ بثقـة الجميـع دون أن أنحـاز إلى أحـد. كنـت أعمـل للقسـم لا لرئيسـه، وأرى في ذلـك واجبًـا أخلاقيًـا. ولعـل هـذا مـا جعلني أسـتمر كل هـذه السـنين دون أن أفقد مـكاني، موظفًـا تحـت الاختبار، كما كنـت أصف نفسي مازحًا، وكأننـي أقول لنفسي: الاختبـار لم ينتـهِ بعد.

حتـى التفاصيـل الصـغيرة كان لهـا أثرهـا. مـا زلت أذكر مسـؤول العمال راشـد، الـذي كنـت أناديـه: «يا شـيخ راشـد» حتى نبّهنـي الدكتـور البتانوني أن كلمة شـيخ لهـا مكانتهـا، ولا تُطلـق إلاَّ على مـن يسـتحقها مـن أبنـاء الأسرة الحاكمـة. فناديتـه بعدهـا: «يـا عم راشـد»؛ لكنه كفّ عـن تلبية طلباتي بسرعـة كما كان يفعل، فضحك الدكتـور البتانـوني وقـال لي: «نـادِه كما يحـب، ولكن بصـوت خافت!».

لقـد تعلَّمـت منهـم جميعًـا الكـثير، واكتسـبت خبرة لا تقـدّر بثمـن، مـن حسـن الـتصرف إلى الصبر والكياسـة. كنـت أحضّ زملائي على الإتقان، وأشـعر أن البركة لا تحل إلاَّ إذا أحسـنّا العمل. واليوم، وأنا ألتفت إلى الوراء، أشـعر أن تلك السـنوات الأربـع والأربـعين لم تكـن مجـرَّد وظيفة؛ بل كانـت عمري الذي تمـدَّد بين قاعات الجامعـة وحدائقهـا، بين وجـوه النـاس وأحاديثهـم، بين ضحكاتنـا وعرقنـا الـذي سـقينا بـه هـذا المـكان حتـى صار بعضًـا منّـا وصِرنا بعضًـا منه.

أتذكَّـر جيـدًا تلـك اللحظـة الأولى حين جئـت إلى قطـر. كان الوطـن في بدايـة صعـوده الكـبير، وكانـت ملامـح النهضـة تتشـكَّل في كل زاويـة. وعلى رأس هـذا المشـهد كان الأمير الشـيخ خليفـة بـن حمـد آل ثاني، رجـل الدولة الذي رسـم معالم الطريـق نحو المسـتقبل.

وبسرعـة بـدأت رابطة وجدانيـة بيننا وبين الأمير، إذ كنّا نشـعر تجاهه بأنه الأب الراعـي لا مجـرَّد الحاكـم. كان يقـرِّب النـاس بإنسـانيته، ويزرع الثقة في نفوسـهم بعطائـه. ولا سـيما تلـك الهبـات التـي كان يمنحهـا للمواطـنين والمقيـمين على حـد سـواء، والتـي لم تكـن مجـرَّد عطاء مادي؛ بل رسـالة تقول إن الدولة الناشـئة تسـع الجميـع، وتمنحهم دفء الانـتماء والشراكة.

كان الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني الرئيس الأعلى لجامعة قطر، نراه في حفلات التخرج، يأتي بنفسه ليشهد طوابير المتخرجين، محتفيًا بهم، يهدي كل واحد منهم ساعة تذكارية، ويدفعهم ليبدأوا الحياة بثقة. ولم يكن ذلك فحسب؛ بل كان يمنحهم أرضًا وقرضًا ليبنوا مستقبلهم بأيديهم. أيُّ حكام هؤلاء الذين يحبون أبناءهم ويعزونهم هذا الإعزاز ؟.

كنت أسمع خطبه وهو يؤكِّد: «الإنسان في بلدنا هو وسيلة كل تطور، وهو - أيضًا - الغاية من كل ازدهار». ورأيت هذا المعنى يترجم على الأرض: مدارس جديدة تُفتح، مستشفيات تُبنى، طرق تمتد لتربط أطراف البلاد، وجامعة قطر تتحول من فكرة إلى حقيقة.

وهكذا ومع مرور السنين، أدركت أن ما كنت أراه في البدايات لم يكن سوى ملامح خطة أوسع. فقد أثمرت سياساته مجتمعًا أكثر استقرارًا وتماسكًا، وأوجدت طبقة متعلِّمة ومؤهلة حملت مشروع الدولة الحديثة.

وهكذا، حين أستعيد بداياتي في قطر، أستحضر صورة الشيخ خليفة لا كأمير فقط؛ بل كأبٍ كبير، يفرح بأبنائه الخريجين، ويمنحهم ما يعينهم على الحياة، جامعًا بين الحكمة والرعاية، بين الحاكم والوالد.

لقد عرفت أن جامعة قطر لم تكن مباني من حجر وإسمنت؛ بل كانت مرآة لذاكرة جيلٍ كامل. كانت البدايات حلمًا صغيرًا، نبت في كلية التربية، مبنى متواضع وعدد محدود من الطلبة؛ لكن خلفه كان وطنٌ يتأهب لخطوته الكبرى نحو المستقبل.

لقد كان المبنى نفسه يحكي قصة مزدوجة: هويَّة ومعاصرة. فقد جمع في هندسته بين الملامح العمرانية المحلية عبر العصور وبين أحدث الأفكار العمرانية. كانت أبراج الهواء ترتفع شامخة، تستقبل النسيم وتدفعه إلى القاعات، تؤدي وظيفة عملية في التهوية والتبريد، وفي الوقت ذاته، تمنح المبنى لمسة جمالية أصيلة. وكانت النوافذ الصغيرة والجدران السميكة تعيد إلى الذاكرة بيوت الطين والحجر، حيث العزل الطبيعي يقلل من حرارة الصيف، ويحتفظ بدفء الشتاء.

كان هـذا المـعمار في جوهـره تعبيرًا عن فلسـفة تلـك المرحلة: العـودة إلى البيئة، واسـتلهام الماضي، ومزاوجتـه بالمعـاصرة. لم تكـن الجامعـة مجـرَّد مـكان للدراسـة؛ بـل رمـزًا لرؤيـة جديـدة: أن قطـر تسـتطيع أن تبنـي صرحًـا علميًـا يـحترم هويَّتها، وفي الوقـت نفسـه، يواكـب متطلبـات العصر.

ومـا كان أجمـل أن تـرى الشـيخ خليفـة بـن حمـد آل ثـاني، الرئيـس الأعلى للجامعـة، يـأتي بنفسـه لحـفلات التخـرج، يجلس في قاعـة ذلك المبنى الـذي يزاوج بين الأصالـة والحداثـة، محتفيًـا بالخريجين، مانحًا إياهم سـاعته التذكارية وأرضًا وقرضًـا ليبـدؤوا حياتهـم العمليـة. كان المشـهد كلـه -المبنى والـطلاب والأمير- لوحة واحـدة تقـول: «إن التعليـم في قطـر لم يكـن مشروعًـا ثانويًـا؛ بل حجر أسـاس في بنـاء الدولـة الحديثة».

حضارة الغوص على اللؤلؤ



◉ سفينة الغوص رحلة إلى المجهول

عندما جئت إلى قطر، كنت أتلمّس عراقتها كما يتلمّس الباحث أثر الزمن في الوثائق القديمة. قرأت هنا وهناك، وأنصتّ إلى البحر وناسِه، حتى تبلورت في ذهني فكرة لم تفارقني بعد: أن الغوص على اللؤلؤ كان أعظم ما عاشه الإنسان القطري، وأنه لم يكن مجرَّد مهنةٍ ولا طريقًا إلى الرزق؛ بل كان رحلةً في أعماق الحياة نفسها.

جلست إلى بعض الغواصين ممن عبروا البحر زمن الشقاء، وجعلت أستمع إليهم كمن يصغي إلى ذاكرة وطنٍ ناطقة. كنت أدوّن كلماتهم؛ لكن قلبي كان يسبق قلمي، لأن ما قالوه لم يكن روايةً من الماضي؛ بل نبضًا حيًّا في الحاضر. وجدتهم يتذكرون البحر بألمٍ وفخرٍ في آنٍ واحد؛ يبتسمون وهم يستعيدون صولاتهم مع الموج، ثم تسكنُ وجوههم حين تمرّ أمامهم صور الغياب الطويل.

كانـوا يتحدثـون عـن البحـر كمـن يتحـدث عـن حبيـبٍ غـادر ولم يعـد، وعـن كل موجـةٍ كانـت تفصلهـم عـن الوطـن والأهل.

حدثنـي أحدهـم بصـوتٍ واهـنٍ كأنمـا خـرج مـن عمـق اللؤلـؤة نفسـها: «يـا ولـدي... البحـر قـاسٍ؛ لكنـه كريـم. كنّا نغـوص بحثًا عـن رزقنا؛ لكننـا نغوص، أيضًا، عن أحلامنا... كنت أشـتاق لزوجتي وأولادي حتى يختنق صدري من الشـوق. في الليـالي الطويلـة، حين يسـكن المـوج وتغيـب الأصـوات، كنـت أبكي بصمـت، أعدّ الأيـام والليـالي، وأرسـم وجوههـم في ظلمـة البحـر... كان البكاء سـلوتي الوحيدة. أضـع رأسي على ذراعـي فـوق صدر المركب، أسـمع نحيب الموج، وأقول: سـيأتي يوم أعـود فيه إليهـم بفرحة الفائـز الغانم».

كنت أنظر إليه وأشـعر أن الدموع التي خالطت صوته ليسـت ضعفًا؛ بل شـهادة حيـاة. ذلـك الغـواص الـذي تحـدّث إليَّ كان واحـدًا مـن آلافٍ حملـوا على أكتافهم تاريـخ قطـر، وصاغوا من العـرق والملح مجدًا صامتًا. كان البحر مدرسـتهم الأولى، واللؤلـؤ دروسـهم في الـصبر، والعـودة إلى الشـاطئ لحظـة نصرٍ لا يعرفهـا إلَّا من واجـه الغرق، ثـم نجا.

كنـت أدوّن، لا كمـن يجمـع مـادةً لبحـثٍ فحسـب؛ بـل كمـن يحـاول أن ينقـذ الذاكـرة مـن الغيـاب. كنـت أستشـعر، في كل كلمـةٍ يقولونهـا، عبـق الأرض التـي خرجـوا منهـا، وصوت الأمهـات عند الوداع، وأناشـيد «اليامال» التـي كانت تبقيهم أحيـاء. لم يكـن اللؤلـؤ هـو الجائـزة؛ بـل تلـك اللحظـة التـي يلمسـون فيهـا الرمـل بعـد الغيـاب، فيرفعون رؤوسـهم إلى الـسماء شـاكرين، والفرحـة تملأ قلوبهم فرح المنـتصر الـذي خـرج مـن الظلمـة إلى الضـوء.

تعلّمـت مـن الغـواصين أن البحـر ليس مجـرَّد صفحةٍ زرقاء؛ بل ذاكـرة من نبضٍ وألم وعزيمـة، وأن البحـث عـن الحقيقـة يشـبه الغوص نفسـه - عليـك أن تنزل إلى الأعماق؛ لتجـد مـا لا يُـرى مـن السـطح. وهكـذا، كلما كتبـت عنهـم، شـعرت أننـي أغـوص معهـم، لا في الماء؛ بـل في وجـدان قطـر، أبحـث عـن اللؤلـؤة التـي لا تُباع ولا تُـشترى: إنسـان هـذا الوطـن في نُبلـه وصبره وكرامته.

ولأجـل ذلـك أكتـب... لا لأروي مـا كان فحسـب؛ بـل لأحفـظ للأجيـال القادمـة

صـورة أولئـك الرجـال الذين صارعوا البحـر بأيديهم العارية، وخرجـوا منه مكلّلين بضيـاء اللؤلؤ وكرامة الشـقاء.

أسـجّل كلماتهـم للتاريـخ، لتبقـى حكايتهـم حـاضرة في الوجـدان، لا يغمرهـا النسـيان كما يغمـر المـوج الشـاطئ في كل مـدٍّ جديـد.

في رحاب المجتمع

لم أكن أظن يومها أن بقائي في الدوحة سيطول إلى أكثر من ستة وأربعين عامًا، متوافقًا مع رطوبتها وحرّها، متقبّلاً مناخها شيئًا فشيئًا حتى أصبح جزءًا من إيقاع حياتي. ذلك اليوم كان أول يوم في علاقة امتدت طويلاً، علاقة شوق وحب لهذا المكان ما يزال تتجدَّد رغم السنين. ومع كل خطوة في المدينة كان إحساسي يتعمّق أنني في مكان مختلف، الشوارع هادئة والمباني متواضعة؛ لكن الروح التي تملأها أكبر بكثير من حجمها. لم تكن الدوحة صاخبة ولا مزدحمة؛ بل بدت وكأنها ترسم على مهل ملامح مستقبلها. الناس يعرف بعضهم بعضًا والوجوه مألوفة حتى لمن يراها لأول مرة، كأن المدينة قرية كبيرة يلتقي فيها الجميع في السوق، في المسجد، وفي المطار. ومع مرور الأيام لم تكن الدوحة تمنحنا، فقط، مكانًا نعيش فيه؛ بل كانت تمنحنا محبة الناس. كان أهلها يعرفون كيف يتعاملون معنا بصدق وبساطة، وكأننا ضيوف في بيوتهم لا مجرَّد وافدين. لقد ساعدت المسلسلات المصرية كثيرًا في هذا التقارب، كانت تُعرض في البيوت القطرية، وتفتح نوافذ على الثقافة المصرية، فصارت لهجتنا مألوفة لديهم، وصاروا يفهمون نكاتنا وطرائفنا حتى بدا اللقاء بيننا امتدادًا طبيعيًا لتلك الحكايات التي شاهدوها على الشاشة. كان هذا التقاطع الثقافي يجعل اندماجنا أسهل، ويخفّف من شعور الغربة حتى غدت الدوحة مكانًا أقرب إلى القلب يومًا بعد يوم. لم يكن الانتقال إلى الدوحة مجرَّد تغيير مكان؛ بل كان تحوّلاً في الوعي، شعرت أن المدينة ببساطتها تمنح القادم فرصة لإعادة ترتيب أفكاره كأنها تقول له: «هنا يمكنك أن تبدأ من جديد». كانت بداياتي، هنا، مزيجًا من الشوق والخوف والحماس؛ لكن شيئًا في الجو، في ضوء الشمس الصافي ورائحة البحر، كان يطمئنني أنني في المكان الصحيح.

وكذلك كانت وزارة التربية والتعليم ورعاية الشباب - إدارة الشؤون الثقافية- لها موسم ثقافي - تستقدم عالمًا أو مفكِّرًا أو أديبًا أو شاعرًا مرموقًا، ليتحدث من منبرها، ومن بين المتحدثين الذين حضرت لهم في فترة مبكرة من تواجدي في قطر (1981) كان شاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري، وهو شاعر له حضور طاغي، كأنه متنبي هذا العصر، بجزالة شعره وحكمته وجرأته

ورصانتـه، وطلاوة حديثـة، فهـو يحـرص على التحـدث بالفصحـى طـول الوقـت، دون تكلـف أو تحذلـق، ويصـدق أن نقـول فيـه: إنه شـاعر من زمن العـظماء، وقف في قاعـة محـاضرات السـكن الـداخلي لـوزارة التربيـة والتعليـم في الغرافة، لأكثر مـن ثلاث سـاعات كلما شـارف على ختـم اللقـاء طالبـه الحـاضرون بالمزيـد، كان الحضـور جماهير غـفيرة، مـن مختلف الفئـات، وعندما تجلى نسي الوقت، وأنسـانا إيـاه، ومـن أجمـل القصائـد التـي قالهـا الشـاعر في الحـنين للوطن والاشـتياق له قصيـدة يـا دجلة:

حـييتُ سـفحكِ عن بعدٍ فحَييني يـا دجلة الـخير، يـا أمَّ البساتينِ

وخالجنـي شـعور بالصغـر، وأنا أسـتمع إليه، هكـذا هم الشـعراء وإلَّا فلا...، ومن ذلـك اليـوم طويـت صفحـة هـوسي أن أكـون شـاعرًا، فلـن أكـون شـويعرًا أبـدًا، واكتفيـت بتذوق الشـعر فحسـب.

كما اسـتمعنا للشـاعر عمر بهاء الدين الأميري، وهو شـاعر ودبلوماسي سـوري، ويتميَّـز شـعره بالطبيعـة العاطفية، وتناول في شـعره العديد مـن مواضيع التصوف، وربمـا كان ذلك في أوائـل الثمانينيات.

وكذلـك الشـيخ عبـد اللـه بـن خميـس وهـو أديـب، وباحـث سـعودي كـبير، كان لـه حضـور ثقـافي طـاغٍ في زمنـه، تنـاول مبحثًـا هامًـا عـن الشـعر النبطـي، وأتى بمقاربـات بين الشـعر النبطـي والشـعر الفصيـح؛ لكي يثبـت أن الشـعر النبطـي امتـداد للشـعر الفصيـح.

أمـا الشـاعر البحريني الكـبير إبراهيم العريض، فقـد كان صاحب حضور رائع، في حديثـه وفي إلقـاء شـعره، ينحـو في شـعره نحـو الشـعر القـصصي، يـحكي لـك قصـة بالشـعر العامـودي الـرصين، يلقيهـا بصـوت أجـش عريـض ودافيء وعميـق، وأظنـه شـاعر الخليـج الأول، ولا يزال.

وعرفت أن الوزارة اسـتضافت عام 1975م، في موسـمها الثقافي الثاني، الشـيخ محمـد متـولي الشـعراوي، وتمنيـت لـو كنـت بينهـم آنـذاك لأراه عـن قـرب، وأقبل رأسه.

وعلى الجانـب الآخـر، كان نـادي الـجسرة الثقـافي يسـتضيف كوكبـة أخرى من

المفكِّرين والسياسيين والاقتصاديين والشعراء والممثلين من ذوي الشهرة الواسعة؛ ليضيف لمناخ الدوحة الثقافي زخمًا جديدًا، ويُتاح لي أن أحضر وألتقي بقامات لم أستطع أن ألتقي بهم في مصر.

كما كانت «إدارة الثقافة والفنون» أحد الأجهزة الفاعلة في تنشيط الحركة الثقافية في قطر، ومن هذا المنطلق عملت دولة قطر على بذل كل غالٍ في سبيل تهيئة المناخ الثقافي اللازم لبناء الإنسان القطري، وكل من يعيش على أرضها، وتزويده بكل ما يحتاج إليه عقله ووجدانه من فكر وفن.

وعلى الجانب الآخر، كنّا نحضر معارض للفن التشكيلي، ربما كان معرض الفنَّان المصري الراحل صلاح طاهر هو أهمها، من وجهة نظري، وكان معرضه في فندق الخليج، وتعرفت على عدد من الفنَّانين التشكيليين، في ذلك الوقت، وعرفت أن لهم مقرًا لجمعيتهم يقع بالقرب من نادي الدوحة، فكنت أزورهم، بين وقت وآخر، لمتابعة معارضهم، وكذلك فرقة الموسيقى العربية بقيادة المايسترو حسين جنيد... وفرقة خماسي شرارة التي أبهرتنا بعزفها لمقطوعات موسيقية فاخرة، وكان ذلك في مسرح قطر الذي شهدنا فيه العديد من الاحتفالات والمسرحيات، خاصة، في احتفالات يوم المسرح العالمي وهو ما يطول شرحه، ولكنني أردت، فقط، أن أستعرض لمحات من مخزون ذاكرتي.

شارع مشيرب وما حوله

في المساء كنّا نتنزّه مشيًا على الأقدام في شارع مشيرب، وهو الشارع التجاري الرئيس في الدوحة، يبدأ من دوار البنك العربي وينتهي بإشارات الكابل (كيوتل)، ويتقاطع في منتصفه مرتين؛ مرة مع شارع عبد الله بن ثاني، ومرة مع شارع الكهرباء، فكنا نقضي كل احتياجاتنا منه ومن الشوارع التي تتفرع منه، خاصة محلات ناشونال التي كانت تشكل مولاً كبيرًا من طابقَين، يمثل معلماً من معالم الدوحة، وكذلك بقالة الجمهورية التي تخصصت في بيع المنتجات المصرية، مثل: الجبنة الرومي، والبسطرمة، والفسيخ وغيرها.

كانت مشاهد شارع مشيرب في المساء، وحركة المارة البطيئة على الأرصفة، ورائحة المطاعم الآسيوية التي تنبعث في أجواء الشارع تزكم الأنوف، والأضواء المتلألئة على واجهات محلات الأقمشة، والأجهزة الكهربائية المبهرة وشاشات التلفزيونات تعرض حلقات للمصارعة الحرة، ويتزاحم عليها المارة من البتان والسيخ والفرس والهنود من كل الملل والنحل، يتحلقون أمامها يتابعون صراعًا لا ينتهي من خلف الواجهات الزجاجية، ومحلات الحلاقة، وعلى رؤوس الشوارع يفترش الأرض عدد من الخرازين (مصلحو الأحذية)، ويقف حولهم زبائنهم، والسيارات المتراصة على الجانبين يعكس زجاجها أضواء كشافات السيارات التي كانت تسير في بطء شديد في كلا الاتجاهين.

كان هذا المشهد المتكرر كل مساء، هو أهم مشاهد مدينة الدوحة جاذبية لي، كنت أراقب المارة تارة، ويراقبونني تارة أخرى، يتفرَّس كل منّا وجه الآخر في فضول فطري، فقد كان شارع مشيرب وشارع الأصمغ، وشارع عبد الله بن ثاني، وشارع الكهرباء، أكثر شوارع الدوحة نبضًا بالحياة، وكنت أشعر أن الناس تتدفق هنا لتلتقي ثم تفترق ثم تلتقي وهكذا، كان التنوع البشري الذي تموج به شوارع الدوحة وما يحمله من لغات وسمات وعادات تتشابه وتختلف، تنسجم تارة، وتتنافر تارات جدير بالملاحظة، البعض يتحدث أردو والبعض يتحدث الهندية، بلهجاتها العديدة، والبعض يتحدث الفارسية والإنجليزية والعربية المكسرة، وهي اللغة التي كنّا نتحدثها مع الإخوة الآسيويين في السوق، كنّا نقول: كيفك يا رفيق، هذا كم سعر رفيق، شوي شوي رفيق، أنا مسكين، فيرد

علينا بنفس اللغة العجيبة: هذا آخر يا رفيق، ليش أنت مسكين، أنا فيه مسكين واجد. وهكذا وفرت لنا هذه اللغة قدرًا من التواصل الجميل.... والابتسامة الدائمة، ونعود لنستعيد تلك المفردات، أما أغرب ما كان يدهشني هو تعاطي بعض الآسيويين لمادة السويكة، ويقومون باستحلابها ثم البصق على الأرض، وكانت هذه العادة غريبة علينا.

أما منطقة الكورنيش، فهي رئة الدوحة وأفقها الذي ليس له حدود، ووجهها المشرق والمتجدِّد دائمًا، وعلى الرغم من أن السور الأسمنتي والكورنيش لم يكن قد بنيا بعد، إلَّا أن الحاجز الحجري كان يفي بجلوسنا نحن وأسرنا لفترات طويلة على الشاطئ، وخلفنا تتكسر موجات البحر الهادئة في تجاويف الصلال الكبيرة، لتتسرب مياهه في بعض الأحوال تحت أقدامنا إلى اليابسة، أما مباني الوزارات الحديثة فكان أبرزها مبنى وزارة الداخلية، ومبنى وزارة الخاجية كان تحت التأسيس، بينهما مبنى الديوان الأميري بأقواسه المميَّزة، يقف شامخًا على تل مرتفع في منطقة البدع وأمامه برج الساعة، وكان أشبه بإيقونة ساحرة، وخلفه مسجد الشيوخ أو الجامع الكبير وعلى يساره مبنى المستشار يليه مبنى نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي، كان المبنى أشبه ببيت العائلة، يرتاده شباب الجسرة ومعظمهم من محبي الثقافة والمشتغلين بها، وعدد من المقيمين المهوسين بالفعل الثقافي أمثالي.



◉ برج الساعة – أرشيف مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية

ولكن من هو المستشار؟ عرفت فيما بعد أنه ممثل الحكومة البريطانية في قطر وكان يدعى «هانكوك» وكانت مدة عمله سبع سنوات من عام 1954-1960، وكان رئيس الشرطة رجل إنجليزي اسمه رونالد كوكرين، يقال أنه أسلم، وتسمى باسم محمد المهدي، ولقد قام الشيخ خليفة بعد ذلك بتعيين الدكتور حسن كامل، المصري الجنسية، خبيرًا أو مستشارًا قانونيًا، بديلاً عنهما. وقد استعان الشيخ خليفة بخبرة الرجل القانونية لاستصدار مراسيم تنظيم الإدارة الحكومية تلك المراسيم الأساسية للإدارة الحديثة في قطر، وكنّا نسمع عنه، وعن مكانته؛ لكن الرجل كان منعزلاً، تمامًا، عن الناس، ولا يُرى إلَّا صدفة، فقد استدعى عمله أن يتخلص من أي عاطفة، ولا يحب أن يحسب نفسه على أي فريق.



◉ صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني وعلى يمينه المستشار حسن كامل - أرشيف مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية

وخلف قصر الدوحة، بين الكورنيش وشارع الريان كانت تجري أعمال بناء ضخمة لمبنى الديوان الحالي، ثم مبنى وزارة الثقافة ومسرح قطر على مشارف منطقة وادي السيل، وكان تحت التأسيس، أيضًا. أمَّا فندق الشيراتون فقد كان يقف وحيدًا على شاطئ الدوحة مواجهًا لمجمل اليابسة، فغدا معلمًا مميَّزًا تعلقت به أعيننا وقلوبنا طوال الوقت، ولا يزال هو المفضل لدي دون جميع الفنادق التي نزلتها في مختلف بلدان العالم، كانت قاعة المجلس وقاعة سلوى تحتضنا العديد من المحاضرات، بينما كانت المنطقة خلف الديوان تشكل في مجملها المدينة القديمة، بشوارعها المتعرجة، وأبنيتها الحجرية المتواضعة؛ لكنها كانت تحتوي البشر في دفء عميق، وكان دوار البنك العربي، بمثابة قلبها الذي تتفرع منه الشرايين في كل الاتجاهات، في اتجاه مبنى الاتصالات السلكية «كيوتل» وعمارة «كليوباترة» حيث مكتبة دار العلوم التي كثيرًا ما نتردَّد عليها لنقرأ الجرائد المصرية، مجانًا، بعد أن نلقي تحية المساء على البائع الذي يبتلع ريقه

كلما شاهدنا، فنقول له: «عذرًا، إننا نتابع صفحة الوفيات لنطمئن على الأهل في مصر»، فيضحك ونضحك ونمضي على وعد بلقاء، وما لا نستطيع قراءته في مكتبة دار العلوم نقرأه في مكتبة العروبة الكائنة في شارع عبد الله بن ثاني.

وفي اتجاه شرق الديوان كان مبنى شرطة العاصمة، ومبنى شركة الدرويش، ثم سوق الخضار وسوق السمك، وكان هذا السوق العامر بكلِّ خيرات الله، تأتيه من كل حدب وصوب، لا أنسى شكل الخضرة فيه من جمالها ونضرتها، كنّا نشتري التفاح والموز بالدرزن (darzan)، وهي مكونة من 12 تفاحة أو 12 أصبع موز وهكذا، ونشتري السمك الطازج بالسلة (شروة)، ونراه في حركة لولبيه لا يهدأ له حال حتى ندفع به للمنظفين الذين كانوا يقومون بواجبهم خير قيام، وفرضة الشيوخ، ومقهى الصيادين، ثم مبنى متحف قطر الوطني، وأمامه نادي الدوحة، وكان نادي الصفوة للأجانب والخبراء، لا يدخله أمثالي من البسطاء إلَّا صدفة، كانت تلك هي أهم معالم الدوحة التي أحصيتها في أيامي الأولى، وبينها بيوتات من طابقين في أقصى ارتفاع لها، تتخلها محلات البقالة والحياكة والجزارة والمطاعم وغيرها، ولم تكن لتلك الشوارع لوحات كما لم تكن للمنازل أرقام نستدل بها عليها، فلم تكن بيوت الدوحة قد عرفت الترقيم بعد.

وهكذا ويأتي بعد السوق منطقة المرقاب، وستاد الدوحة، ثم دار الكتب القطرية، ذلك المبنى الوقور، الذي يعج بالمرتادين.

مبنى دار الكتب القطرية

كان مبنى دار الكتب، من أهم معالم الدوحة، لكونه يتميز ببناء ومعمار حضاري وسط مباني المدينة المتواضعة، وفي اتجاه البرّ كانت مدينة خليفة تمتد إلى الغرب فتبدو من أفق الدوحة وكأنها مدينة معلقة في السماء، يفصلها عن الدوحة فضاء صحرواي ممتد، كانوا يطلقون على مبانيها بالبيوت الشعبية وهي بيوت وهبتها الحكومه لمحدودي الدخل، وهي بيوت لها فناء وحديقة وترتفع عن الأرض قدر نصف متر أو يزيد، بعض السكّان ألحقَ بها غرفة أو غرفتين لسكن الخدام، وبعضهم كان يؤجرها لأمثالي من المقيمين، ولكنهم كانوا يطلقون عليه (البيوت الشعبية)، وهو تعبير كان يحمل معنى التحول من مجتمع القبيلة إلى مؤسَّسة الدولة، هذا التحول الذي نشأ في بنية المجتمع العمراني بعد عصر النفط، مما أدّى إلى تغيرّ الصّورة السكّانية، قال لي صديق قطري، إن الحياة في قطر لم تكن كالتي تراها، كانت حياة سكّان قطر في عصر ما قبل البترول غاية في الصعوبة والقسوة، وذلك لعدم توفر مقومات الحياة، مثل المياه العذبة، وارتفاع درجة الحرارة والرطوبة، فاتجهوا إلى البحر لصيد الأسماك أو الغوص على اللؤلؤ لمدة ستة شهور، ثم العودة إلى المدينة وما حولها مدة ستة شهور أخرى،حيث يتفرغون للتجارة والرعي والاستجمام مع أسرهم، فصلي الشتاء والربيع، وفي ذلك الوقت، كانت تنتشر بيوت الشعر على امتداد جانبي شارع الشمال الذي يمتدُّ من الدوحة إلى مدينة الشمال، حيث تقضي الأسر فترات من الشتاء في البرّ، هنا عرفت لأول مرة في حياتي مصطلح «القنص»، ومصطلح «مقناص»، ويقصد به رحلات الصيد البري، يقوم بها الشباب والرجال، كانوا ينتظرون هذا الموسم ليعدون عدتهم لرحلة قد تستغرق شهرًا أو شهرين أو أكثر، ينطلقون إلى البرّ بصقورهم، وكلاب السلوقي، ومخيماتهم، يعبرون الحدود بحثًا عن الطيور والأرانب وحيوانات البراري.

رخصة القيادة (الليسن)؛

حين جئتُ إلى قطر كنتُ أحمل معي أحلام الاستقرار؛ لكن الطريق لم يكن معبّدًا كما تخيَّلت. أول ما اعترضني كان الحصول على رخصة قيادة السيارات (الليسن)؛ تلك البطاقة الصغيرة التي تحكم حركتك، وتحدّد مدى قدرتك على العيش بحرية في هذا المكان الجديد. كانت الاختبارات صعبة، صارمة، وأظنها حتى اليوم ما تزال تلتزم بالمعايير البريطانية الصارمة في الدقة والانضباط. كانت أقرب إلى اختبارات الحياة منها إلى مجرَّد مهارة قيادة.

لم تكن توجد هناك مدارس لتعليم القيادة، ولا دورات تسهّل المهمة. كنتُ قدّت السيارة في مصر سنوات طويلة، أتنقل بثقة؛ لكن هنا شعرت أن خبرتي تتلاشى أمام اختبارات دقيقة: الرجوع للخلف فوق منحدر حادّ الميلان، التقاط أشياء ووضعها في السيارة، الالتزام بالنظر يمينًا ويسارًا عند التحويل، اختبارات (الباركنج) و(حرف الـS)، ثم مواجهة الشارع الحقيقي. بدا الطريق نحو الرخصة كأنه عبور بوابة رمزية للاستقرار.

قررت أن أتحايل على صعوبة الموقف باختيار حليف مناسب: سيارة صغيرة إيطالية من نوع أوتو بيانكي، أشبه بلعبة؛ لكن حجمها كان سلاحًا سرّيًا. صارت هذه السيارة بطلة مغامرتي، حتى إن الزملاء الذين كانوا يمرون بالتجربة نفسها صاروا يتصلون بي ليستعيروا السيارة أملاً في اجتياز الاختبار.



كنّا نتدرّب في أماكن مفتوحة بعيدة عن البيوت وعن عيون الشرطة. وكان المكان الأثير لنا الفضاءات المحيطة باستاد خليفة؛ تضاريس واسعة تشبه ساحة الاختبار الحقيقية. بحماس الأطفال ورغبة الناجين، كنّا نرسم الأرض بالطباشير الأبيض، نحدد المسار، نضع أقماعًا من أحذيتنا القديمة ونقلد ما سنواجهه في يوم الامتحان الكبير. كانت تلك الساعات درسًا في الصبر والتعاون؛ نتبادل التعليمات والخبرات كما يتبادل الجنود خطط المعركة.

ثم جاء يوم الامتحان... كان يومًا ثقيلاً كأنه موعد مصيري. صليت الفجر، وقرأت القرآن، وتوكّلت على الله. في داخلي ارتجاف غريب؛ خليط من الغربة والخوف والرغبة في إثبات الذات. دخلت الاختبار بكل ما تدربت عليه. رجوع على المنحدر، التفاف الـS، باركنج محكم، قيادة في الشارع. حتى العسكري الذي رافقني لم يخفِ دهشته من تلك السيارة الصغيرة وسلاسة حركتها. وفي لحظة فارقة، أُعلن نجاحي من المحاولة الأولى.

لم يكن فرحي وحدي. حين عدت إلى البيت بالرخصة في يدي، رأيت في عيني زوجتي دهشة وفرحًا طفوليًا. أمسكت الرخصة وكأنها تذكرة عبور إلى حياة كانت مغلقة الأبواب. شعرت فجأة أن العالم اتسع؛ صار بإمكاننا أن نتحرك بحرية، نزور الأسواق التي كانت تبدو بعيدة، نصل إلى الحدائق والمراكز التجارية دون انتظار سيارة أجرة أو التخطيط لكل مشوار بحساب. كانت تقول لي بضحكة خجولة: الآن أصبح لنا جناحان!

ذلك اليوم كان بالنسبة لها بداية تواصل مع المدينة، نافذة على الشوارع والمتاجر والحياة الاجتماعية. كانت تتحدث عن الملابس والأطعمة والأشياء التي حلمت بشرائها دون عناء المواصلات. كانت تشعر أن البيت لم يعد سجنًا، وأن قطر أصبحت أقرب وأرحب.

احتفلنا معًا كما لو كان عيدًا. خرجنا بجولتنا الأولى في شوارع الدوحة، التي كانت وقتها شبه خالية. ضحكات زوجتي تملأ السيارة الصغيرة، والهواء يصفّر من النوافذ، وابنتي تلوِّح فرحًا وهي تكتشف مدينة جديدة من خلف زجاج السيارة. كنتُ أقود وأشعر أن كل شارع أصبح طريقًا مفتوحًا لنا، وأن الحياة بدأت تتخذ شكلاً أدفأ وأكثر استقرارًا.

ومـا زلت أذكر دفتر (الليسـن) الكرتوني ذا الـغلاف الماروني الغامق الذي حملته يومهـا بفخـر. كان في يـدي أشـبه بمفتـاح لعالم جديـد، ورمزًا لأول خطـوة حقيقية على طريق الاسـتقرار.

هكـذا كانـت حكايـة أول رخصـة قيـادة لي في قطـر؛ لم تكـن ورقـة رسـمية فحسـب؛ بـل كانـت جسـرًا إلى حيـاة جديدة، وبوابـة أمل فتحـت لي ولأسرتي أبواب الحركـة والحريـة، وخصوصًـا لزوجتـي التي رأت فيهـا نافذة رحبـة على الحياة بعد أن كانـت محصـورة في جـدران الغربـة.

السوق القديم وظلاله

كان سوق الخضار أو السوق -كما كنّا نسميه- هو المول الكبير الذي نقصده لنشتري حاجاتنا، ونستكشف الدنيا في آنٍ واحد. لم يكن مجرَّد مكان للتسوق؛ بل كان قلب المدينة النابض بالحياة. كان موقعه بالقرب مما يعرف اليوم بـ«سوق واقف»، ملاصقًا للخليج، وبالقرب من عمارة الدرويش وأمام شرطة العاصمة، حيث تعبق نسائم البحر الممزوجة برائحة البهارات والتمر والسمك الطازج.

هناك قامت شبرة كبيرة، سقفها من الخشب والحديد وممراتها ترابية أو إسفلتية بسيطة، تحوي صفوفًا طويلة من الخضراوات والفواكه والتمور والمكسّرات. كانت شبرة الخضار عبارة عن مكاتب وطاولات مترصّة إلى جوار بعضها، كل بائع يعرف طاولته المميَّزة، وقد كُدِّست عليها الحزم: حزم الخضار، وحزم الفواكه، والمِشَنّات، والأكياس المعبأة بالخيرات. الناس يتعاملون ببساطة ويسر، يعرضون البضاعة بابتسامة. كانت ربطة الخضار بريال واحد في أقصاها، كبيرة وافرة، ونشتري البقدونس والشَّبَت والنعناع والخس بكل أريحية وفرح. كان المشهد كله يوحي بالخير الواسع والوفرة، على عكس ما نعيشه اليوم حيث صرنا نشتري الأشياء بالواحدة وكأنها نادرة.

كنّا نتجوّل بين تلك الممرات الضيقة في صباحات يغمرها دفء الشمس ورطوبة البحر. الهواء مشبع بروائح متداخلة: رائحة الخيش الذي تُعبَّأ فيه الخضار، رائحة الطماطم الناضجة، والتمر الذي يلمع في صناديقه الخشبية، ممزوجة بنسيم البحر المالح الذي ينساب من جهة الخليج. الحرارة تلفح الوجوه، والعرق يتصبّب من جباه الرجال؛ لكن الابتسامات لا تغيب، والبائعون بثيابهم البيضاء أو ملابس العمل البسيطة يلوّحون بأيديهم ويهشّون الذباب بمراوح يدوية، وكأن كل شيء طبيعي ومألوف. كان النداء يملأ المكان: أصوات الباعة تتعالى في حيوية، وأصوات المشترين تتداخل معها في مفاوضات قصيرة، ولكن ودية، وبينهما ضحكات عابرة أو قصص تُروى بلا ترتيب.

وبجوار شبرة الخضار، قامت شبرة أخرى للسمك، تقع خلف مبنى وزارة

التربية والتعليم القديم أو خلف البريد القطري القديم. كانت رائحة البحر تسبقنا إليها، تختلط بزفرة الملح وبريق الصيادين وهم يفرغون ما في شباكهم. نشتري السمك «شْروات» بحسب الصيد اليومي؛ الهامور، الشعري، الكنعد... كلُّها طازجة تتلألأ تحت ضوء السوق الباهت. أما الفواكه فكنّا نشتريها «بِالدَّرْزَن»، صناديق كاملة من البرتقال والموز والتفاح، بينما اللحوم بالكيلو؛ وكان الكيلو من خرفان بلدي يُباع بتسعة ريالات، سعر بدا، في ذلك الوقت، معقولاً ومناسبًا لميزانية الأسرة.

وإلى جانب هذه الأسواق، تنتشر بقالات صغيرة تبيع كل شيء: أكياس الأرز والسكر، علب السمن، عطور بسيطة، ألعاب صغيرة للأطفال، وأشياء مستوردة تحمل رائحة بعيدة لا نفهمها؛ لكن نحبها.

كان السوق القديم يشهد حركة لا تهدأ. سيارات أمريكية فارهة من نوع كاديلاك وشفروليه وجيمس تتزاحم على أطرافه، وأكوام الصناديق والأكياس تملأ الطرقات. عربات اليد الصغيرة يدفعها رجال وحمالون يجوبون الأزقة محمّلين بالخضروات والفواكه والأسماك. وأطفال يركضون بحيوية يحملون أكياسًا صغيرة أو يساعدون آباءهم. كان المكان مدرسة للحياة؛ تعلّمنا منه مهارة البيع والشراء، وأدب المساومة، وأهمية الكلمة الطيبة.

ظلَّ السوق في مكانه القديم حتى جاء زمن التغيير؛ انتقل أولاً إلى طريق مسيعيد، ثم إلى طريق سلوى. هناك صار السوق أكثر اتساعًا وتنظيمًا، أُقيمت تقسيمات صحية أفضل، وضبطت حركة البيع، وظهر نظام البيع بالجملة. كان هذا التحوّل في صالحنا نحن العائلات؛ إذ فتح باب التعاون والتشارك فيما بيننا .

صرنا نشتري الحاجات بكميات كبيرة ونقتسمها، فكنّا نتشارك «صناديق» الطماطم والباذنجان والخيار والخس والتمر. بيت يأخذ صندوقًا، وآخر يأخذ مثله، ويمتلئ البيت بالخيرات التي تكفي لشهر كامل. حتى الفواكه كنّا نتقاسمها، صناديق التفاح والبرتقال تذهب مع كل عائلة لتملأ السلال في البيوت. كنّا نذهب إلى السوق مرتين في الشهر، ميرة الشهر تكفينا حتى الموعد التالي، بلا إسراف ولا مشقة.

أمـا السـمك فلـه طقـس مختلـف؛ كنّـا نـشتري «المِشَـنّة» كاملـة، وإذا كان فيهـا أربعـون سـمكة قسـمناها بالعـدد بعدالة عجيبة: سـمكة لهـذا البيت، وسـمكة لذاك، حتـى تنتهـي كلهـا. لا أحـد يطمـع ولا أحـد يُـغبن؛ روح التعـاون والمحبـة تغلـب على كل شيء.

كان السـوق حينهـا أكثر من مكان لشراء الحاجـات؛ كان فضاءً اجتماعيًا نابضًا. كل زيـارة فرصـة للقـاء الأصدقـاء، وسماع الأخبار، وتبـادل النـكات والحكايات. كنّا نتعلَّـم مـن وجـوه الرجـال صلابـة التجـارة وبسـاطة العيـش، ومـن النسـاء حُسـن التـدبير وصـوت الدعـاء الخفـي؛ أن يبارك اللـه في الرزق.

ذلـك هـو السـوق في ذاكرتي؛ حيـاة كاملة نابضـة بالحركة والعلاقات، وبسـاطة تختلـط بالكـرم، وحميميـة جعلـت التسـوق متعـة حقيقيـة. ما يـزال عبق تلـك الأيام يرافقنـي، كلما عبرتُ سـوق واقـف أو مـررت بطريـق سـلوى، كأن صـدى الباعـة وضحـكات المشتريـن لم ينقطـع بعد.

السـوق لم يكـن مجـرَّد مـكان، كان زمنًـا وذاكـرة، وكان دلـيلاً على أن الرخاء لا يُقـاس بـكثرة البضائـع وحدهـا؛ بـل بما يسـكن النفـوس مـن طمأنينة ورضـا. اليوم تـغيّر كل شيء؛ صـار الشراء أسرع وأبرد، والأسـواق أوسـع؛ لكن القلـوب أبعد. كنت أعـود مـن السـوق القديـم بيديـن محمّلتين؛ لكـن بروح أخفّ وأسـعد.

ربمـا في ذلـك درس للحيـاة كلّهـا: أن القيمـة الحقيقيـة ليسـت في الأشـياء التي نحملهـا؛ بـل في الـروح التـي نصنـع بهـا علاقاتنا، وفي دفء المشـاركة الـذي يجعل أبسـط ربطـة خضـار أغنى من رفـوف تمتلئ وتبقى بلا حكاية. السـوق كان سـاحة للـبشر قبـل أن يكـون مكانًـا للبضائـع، وكان درسًـا في الكفايـة، وفي أن السـعادة لا تحتـاج إلى وفـرة ماديـة بقدر ما تحتـاج إلى ودّ ورضا وابتسـامة تبادلها مع غريب.

بريد قطر

هناك أشياء صغيرة في الحياة تبقى عالقة في القلب مهما طال الزمن، تلتصق بالذاكرة كأنها لم تبرحها قط. من بين تلك الأشياء البريد؛ ذلك الجسر الهادئ الذي كان يربط الغريب بوطنه، ويصل قلب المغترب بأحبابه. في زمن لم يكن فيه الهاتف ذكيًا ولا الإنترنت متاحًا، كانت الرسائل الورقية (الجوابات) أشبه بنبض يصل عبر المسافات.

في السبعينيات والثمانينيات، وحتى مطالع الألفية، كان البريد القطري خيط الوصل بيني وبين وطني. الجوابات كانت السلة الطائرة التي تربطنا بأهلنا في مصر؛ رسائل تأتي من الوالد، أو من الأخ والأخت، أو العم والخال، أو الصديق، تحمل سلامهم وطمأنينتهم، وتنقل إلينا أخبارهم، وتنسج من الورق والحبر والكلمات جسرًا نعبرُ عليه بالحنين ومشاعر التلهّف.

كان لنا مكتب بريد فرعي في الجامعة، تأتي إليه كل صباح سيارة البريد محمّلة بالخطابات وأحيانًا بالطرود في كيس قماش كبير (شوال).

وأحيانًا الطرود في (شوال) وهو كيس قماش كبير. يتسلَّمها موظف البريد الذي كان يجلس في مكتبه الصغير، يُفرز الرسائل بعناية ومهارة، يوزِّعها مجموعات على الكليات، ثم على الأقسام. وبعد صلاة الظهر بقليل، يمر عليه مندوب من كل قسم ليتسلَّم رسائل اليوم، ويبدأ النداء: على أصحاب الجوابات، والحاضر يتسلَّم ما يخص الغائب.

كانت الصلة بيني وبين البريد أكبر من مجرَّد خدمة أو مهمة رسمية؛ كنت أطلب ودَّ موظف البريد، وأهديه، مع كل رسالة أُعطيها له، ابتسامة مجانية ولسان حالي يتودّد إليه، وكأنني أرجو بها أن تصل رسائلي وتبلغ أشواقي أهلها، ونتبادل كلمات الود والدعاء والنكات. وعندما نمسك الجواب كانت تلك اللحظة، دائمًا، مشوبة بتوجس جميل: اللهم اجعله خيرًا. أتناول المظروف بيدين فيهما شوق وحرص؛ مغلَّف مختوم بطابع بريد ملون، وعليه خربشات موظفي البريد، وختم بتاريخ الوصول. أحيانًا أفتح الرسالة من لسان المظروف، وأحيانًا أستعين بالمقص حتى أحافظ على الغلاف سليمًا؛ فله قيمة وجدانية لا تقل عن الرسالة

نفسها. خط أبي على المظروف، يصل ويسلّم إلى ابننا، واسمي مكتوب بحبر دافئ؛ كل ذلك كان حدثًا يستحق احتفالاً داخليًا صغيرًا.

على ظهر بعض المظاريف عبارات شكر بريئة لساعي البريد: شكرًا لساعي البريد، شكرًا لرجل البريد الأمين، وكأن المرسِل يبعث سلامًا مسبقًا لمن يحمل لنا أشواقه. كنت أتخيَّله يبتسم وهو يسلّم الرسالة، يشعر بأنه يحمل أمانة لا تشبه سواها. وإن كان الخطاب عاجلاً أو شهادة ننتظرها، أوصينا بها سائق سيارة البريد، نلقاه في الصباح ونرجوه أن ينادينا حين تصل. وكان يفي بوعده؛ يأتي إلى المكتب ويناولنا الرسالة باليد قبل أن تدخل دورة التوزيع الرسمية.

وأحيانًا، إن طال الانتظار، كنت أذهب بنفسي إلى مبنى البريد القريب من وزارة التربية والتعليم، أسأل عن الخطابات، وكأنني أريد أن أستبق الوقت لأمسك بخيوط الشوق قبل أن تصل. ثم حين انتقل البريد إلى المبنى الرئيسي الجديد المهيب على الكورنيش الذي أصبح أيقونة معمارية وخدمة متطورة، بدا لنا وكأننا نخطو نحو زمن آخر؛ مبنى عظيم له رهبة، نوافذ واسعة وصناديق منظَّمة، وقاعات فرز حديثة، وتكنولوجيا تصنيف تختصر الأيام إلى ساعات. هناك شعرنا أننا نتهيأ لعصرٍ سيجعل الاتصال أسرع من غمضة عين.

وبالمقابل، كنّا نحن، أيضًا، نكتب الجوابات إلى الأهل؛ نرد على استفساراتهم، نطمئنهم على الأحوال، نروي أخبار الأسرة والأبناء، ونتبادل مشاعر الشوق، وأحيانًا نستعيد ذكريات الماضي. كنّا نضع الرسالة في مظروف بعناية ونكتب عليه: يوصل ويسلِّم إلى الوالد الكريم -أطال الله في عمره- وفي الخلف المرسل: ابنكم المخلص محمد. ثم نلصق طوابع بريد قطر المميَّزة، التي كانت تتزيَّن بصورة الشيخ خليفة بن حمد -أمير البلاد- طوابع زرقاء أنيقة تحمل في صمتها هيبة الوطن. وبعدها نبحث عن أحد صناديق البريد المنتشرة في فرجان الدوحة، لنودِع الرسالة ونحن نبثها مشاعر الشوق والحب، ونتركها في رعاية رجل البريد الأمين.

البريد كان نافذتنا الكبرى على الوطن. منه تأتينا الأخبار، وتأتينا الأصوات أيضًا؛ فقد عرفنا زمنًا تُسجَّل فيه سلامات الأهل على أشرطة صغيرة تُرسل في الجوابات. نسمع أصوات الأحبة كأنها تخرج من قلب البيت البعيد؛ أصوات أمي

وإخوتي وجيران الطفولة. ونردّ نحن برسائل طويلة وصوتيات نغلفها بالشوق ونكتب على المظروف: شكرًا لساعي البريد.

وعندما انتقلتُ للعمل في المكتبة التراثية بالدوحة، اتسع أفق علاقتي بالبريد والطوابع. لم تعد الرسائل مجرَّد وسيلة تواصل؛ بل نافذة على التاريخ والهويَّة. هناك عرفتُ أن كل طابع ليس مجرَّد رسوم؛ بل شهادة زمن، وأدركت لأول مرة حكاية رغبة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، رحمه الله، في إصدار طوابع وطنية تحمل صورته وتعلن سيادة البلاد على بريدها. ثم كيف تأخّر التنفيذ حتى خرجت الطوابع الأولى في عهد الشيخ أحمد بن علي آل ثاني. كنت أرى في تلك القطع الصغيرة صورة وطن يبحث عن حضوره المستقل، تمامًا كما كنت أنا أبحث عن جذوري بين الرسائل.

وراء كل هذا التاريخ الرسمي، كان البريد بالنسبة للمقيمين والمواطنين نافذة إنسانية قبل أن يكون مؤسَّسة. الرسائل الورقية حملت أخبار الغربة، شهادات الدراسة، صكوك المحبة، والهدايا الصغيرة التي تعبر الحدود. وحتى الطوابع، التي بدت للوهلة الأولى رسومًا ملونة، كانت تسجل ملامح الوطن وتحولاته - من وجوه الأمراء، إلى رموز النفط والبحر، إلى صور التراث والمعمار الحديث.

ها أنا أستعيد، اليوم، دفء تلك الرسائل فأبتسم بحنين. تغيّر البريد وصار إلكترونيًا سريعًا؛ لكن طعم الانتظار ولهفة الطوابع الزرقاء وحوافها المزينة بشريط ملوَّن بالأحمر والأزرق وعبارة بريد جوي لا يُعوَّضان. كانت الرسائل الورقية حمائم تنتقل من وطن إلى وطن، وتربط قلبًا بقلوب. وربما لذلك بقيت في القلب نافذة مفتوحة على زمن أبسط؛ لكنه أغنى بالحب.

الرعاية الصحية

في تلك السنوات، كانت الرعاية الصحية في قطر نموذجًا مضيئًا شمل المواطنين والمقيمين على السواء؛ إذ كان العلاج حقًا مكفولاً للجميع، عبر خدمات مجانية كاملة داخل مستشفيات الدولة أو خارجها للمواطنين عند الضرورة. وحين قدمت إلى قطر، شهدت بنفسي بدايات هذه النهضة التي جعلت صحة الإنسان أولوية لا تُقدَّم عليها، كان ذلك رسالة صريحة تقول : إن صحة الإنسان في قطر لها الأولوية .

في قلب الدوحة ارتفع مستشفى ارميلة الكبير بـ(ستمائة سرير)، أضيفت إليه أجنحة جديدة لتستوعب المزيد. وإلى جواره توسع مستشفى الولادة ليستقبل أفواج الأمهات والمواليد. ولم تكتفِ الدولة بذلك؛ بل أخذت في تشييد مستشفى آخر ضخم يضم (ستمائة سرير) ووحدات للعلاج المكثف، مع مساكن للأطباء وهيئات التمريض، ليكون بيتًا للطب قبل أن يكون جدرانًا وحجرًا.



◉ مقر أول عيادة خاصة في الدوحة ومقرًا لجمعية الكشافة في منطقة رأس أبو عبود- أرشيف عتيق السليطي



◉ محيط مستشفى ارميلة، كأول مستشفى متكامل في البلاد 1957، يبدو في الصورة قصر الضيافة (المرمر)، مع إطلالة واسعة على منطقة ارميله – أرشيف الباحث عتيق السليطي.

ولم تكن الرعاية محصورة في العاصمة، فقد امتدت يد الدولة إلى القرى والبلدات، تُنشئ العيادات، وتوسّع بعضها حتى صارت مستشفيات متكاملة تفي بحاجات الناس اليومية. كان ذلك البذرة الأولى التي زرعت الثقة، وأيقظت في النفوس شعورًا بأن الوطن يتسع للجميع.

ومع العقود، رأيت بعيني كيف تحولت تلك البدايات إلى قفزات نوعية جعلت قطر اليوم تُصنَّف بين الدول المتقدمة في الرعاية الصحية. غدت المؤسَّسات الطبية هنا تضاهي كبريات المراكز العالمية: مؤسَّسة حمد الطبية التي تأسَّست عام 1979م ونمت لتدير مستشفيات متخصصة، ومدينة حمد الطبية التي أصبحت من أهم المراكز في المنطقة، ومركز السدرة للطب والبحوث الذي جمع بين أحدث التقنيات والعلم والتعليم، وكلية طب وايل كورنيل – قطر التي جعلت الطب جزءًا من بيئة الدوحة الأكاديمية.

واتسعت شبكة المستشفيات لتشمل العامة والخاصة، من الوكرة إلى الخور إلى مستشفيات المدينة الطبية. وحصدت مؤسَّسة حمد الطبية شهادات الاعتماد الدولية، لتؤكِّد أن الرعاية هنا تقف في مصاف العالمية. ولم تقف النهضة عند

حـدود الـعلاج؛ بـل امتـدت إلى البحث الطبي، وطـب الأسرة، والتمريـض، والتأمين الصحـي. وجـاءت إستراتيجيـة الصحـة الوطنيـة منسـجمة مـع رؤيـة قطـر 2030، بخطـط واضحـة لبنـاء نظـام صحـي متكامـل، وكادر وطنـي مؤهل.

حتـى القطـاع الصحـي الخـاص نـال نصيبه مـن التطويـر، بخطط لزيـادة عدد الأَسَّرة إلى مـا يفـوق المعـدلات العالميـة، وافتتـاح مستشـفيات ومراكـز تخصصيـة تواكـب النمـو السـكّاني وتنـوع الحاجات.

لم تكـن المستشـفيات في قطـر مجـرَّد مبـانٍ للـعلاج؛ بـل كانـت سـاحات تواصل إنسـاني. كنّـا نعـرف أطبّاءنا بالاسـم، وهم يعرفوننـا واحدًا واحدًا؛ يبتسـمون لنا في الممـرات، ويصغـون لشـكوانا كأهـلٍ لا كغرباء. كان الطبيب في تلك السـنوات يشـعر أن عليـه مسـؤولية كـبيرة، ليـس تجـاه المريـض الـذي أمامـه فقـط؛ بـل تجـاه أبناء قطـر جميعًـا، والمقيـمين الذيـن وجدوا في هـذه الأرض وطنًـا ثانيًا.

كانـت الثقـة متبادلـة، والقلـوب قريبـة. ولذلـك، لم يكـن الطب مجـرَّد مهنة؛ بل رسـالة؛ رسـالة تترجـم مـا آمنـت بـه الدولـة منـذ البدايـات: أن صحة الإنسـان -أي إنسـان- هـي أسـاس النهضـة، وأن الرعاية لا تُقـاس بالأجهزة وحدها؛ بـل بالرحمة التـي تملأ قلـب الطبيـب وهو يمـد يـده بالشفاء.

الصحة المدرسية



◉ عيادة المرقاب القديم، جنوب سوق الجبر، شرق الدوحة، منذ 1954م

كانت الصحة المدرسية بالنسبة لنا في بدايات أيامنا في الدوحة بابًا ندخل منه إلى صحة الجسد ولياقة العمل. أذكر حين جئت إلى الجامعة وقبل أن نبدأ العمل، كان لا بد أولاً من إعادة التقييم الطبي لكل الوافدين الجدد وذلك لفتح ملف صحي لكلٍّ واحدٍ منّا في الوحدة المدرسية، لنخضع لفحوص دقيقة ويُسجل تاريخنا الصحي لتبدأ علاقتنا الرسمية بهذه المؤسَّسة التي سترافقنا لسنوات. كنّا نتوجه إليها مطمئنين؛ هناك تُجرى الفحوص الطبية، وتُسلَّم النتائج، ويستقبلنا الأطباء بابتسامة ودعابة تخفف رهبة الفحص.



◉ منظر عام يظهر فريج الرفاع ومصلى العيد ومسجد الفريج، وساحة مدرسة أبوبكر الصديق الابتدائية، وفي الخلفية فريج لسلطه والعسيري والبدر - الباحث عتيق السليطي

كان المبنى في فريج اسلطة أشبه بقرية صغيرة تتوزع فيها الخدمات؛ هنا التحصينات والتطعيمات، وهناك الأشعة، وفي زاوية أخرى قسم الأسنان. وكانت المعامل الطبية مجهزة بأحدث الأجهزة، وتضم فريقًا من أمهر الأطباء ومعاونيهم، جاء معظمهم من دول عربية وأجنبية، مما منح المكان سمعة طبية رفيعة المستوى، وجعلنا نشعر أننا بين أيدٍ خبيرة وقلوب حانية.

وأذكر جيدًا اسمًا ظلَّ محفورًا في ذاكرتي: الأستاذ الدكتور عثمان السعيد؛ طبيب مصري بوجه بشوش ونظرة حانية، واسع الخبرة والرؤية، اختارته الوزارة ليقود وحدة الصحة المدرسية بثقة وزير التربية والتعليم، آنذاك، الشيخ محمد بن حمد. كان يمشي بين أروقة المبنى كأبٍ يعرف أبناءه واحدًا واحدًا، يدير المكان بحكمة وهدوء، ويشعرنا جميعًا أننا جزء من أسرة واحدة، لا مجرَّد طلاب يمرون على عيادة.



◉ سعادة الشيخ محمد بن حمد آل ثاني – وزير التربية والتعليم (في الفترة من 1978-1989) - أرشيف حسن بن محمد للدراسات التاريخية

كنّا نبني مع أطباء الصحة المدرسية علاقات إنسانية رقيقة، يتجاوز أثرها حدود الفحص والعلاج. ما زلت أذكر أنني كنت أتردد على عيادة الأسنان، حيث كان هناك طبيب صبور اسمه الدكتور إبراهيم كاشوري. كان يعالج أسناني بابتسامة دائمة، ويجعل جلسات العلاج أقل توترًا بحديثه الودود. سألته يومًا عن معنى اسم عائلته «كاشوري»، فابتسم وأخذ يحكي لي بفخر عن جده الشيخ كاشوري، الرجل الصالح الذي كان يُعرف بالكرامات والبركة. صار الحديث بيننا عادة، يخفف ألم الأسنان، ويحوّل العيادة إلى مساحة دفء ومعرفة.

كما كانت هناك زياراتي إلى طبيب العيون الماهر الدكتور سيد الخميس. كنت أذهب إليه لأفحص نظري وأقيس العدسات، وكان لطيفًا محبًّا للمساعدة. أذكر أنه لما علم أنني أعمل في جامعة قطر، طلب مني ذات مرة مادة كيميائية خاصة كان يحتاجها ليُعد قطرات عيون علاجية لمريض لديه. لا أنسى ذلك الموقف؛ فقد شعرت أن العلاقة بين الطبيب والمراجع تجاوزت حدود المريض والطبيب لتصبح نوعًا من التعاون الإنساني الصادق.

ولم يكن اهتمام الصحة المدرسية مقصورًا علينا نحن الكبار فحسب؛ بل كنّا نصطحب أبناءنا، أيضًا، لإجراء الفحوص والتطعيمات. هناك تلقوا اللقاحات والتحصينات في أجواء آمنة حانية، مما عمّق إحساسنا بأن هذه المؤسَّسة جزء من حياتنا اليومية.

ومن الذكريات التي لا أنساها أننا في فترة من الفترات سمعنا بخبر إصابة الدكتور عثمان السعيد بمرض عضال. كان وقع الخبر علينا قاسيًا؛ تفرّقت الهمسات بين الزملاء والأصدقاء، وغشينا حزن صامت كأن أحد أفراد عائلتنا مريض. لم نكفّ عن الدعاء له بالشفاء؛ إذ كان لكلٍّ واحدٍ منّا دين في عنقه تجاه هذا الرجل الذي منح صحته ووقته لغيره. ثم جاء الخبر المفرح بعد شهور طويلة من القلق بأن الله قد شفاه، وكأن الله -عز وجل- استجاب لقلوب أحبّته. شعرنا يومها أن الخير الذي يزرعه الإنسان يردّ له عافية ورحمة، وأن العطاء الصادق لا يضيع عند الله.



◉ الدكتور عثمان السعيد (جريدة الراية 1982م)

بفضل الدكتور عثمان السعيد ومن معه من الأطباء المخلصين، أصبحت الصحة المدرسية رافدًا قويًا للنظام الصحي الناشئ آنذاك، تساند مؤسَّسة حمد الطبية والمراكز الصحية القليلة التي بدأت بخطوات متواضعة -ربما ثلاثة أو أربعة مراكز بسيطة- لكنها مع دعم الصحة المدرسية تمكنت من تخفيف العبء وتوسيع دائرة الرعاية الطبية في قطر.

تَذكُرُ تلك السنوات الأولى، حين كانت المدرسة أشبه بعالمٍ صغيرٍ من الحلم. كانت الفصول مزدحمةً بالأمل، وكانت حقيبة الطفل لا تحمِل كتبًا فقط؛ بل تحمل قلبًا يتفتح كل صباحٍ على الحياة. في ذلك الزمن، كانت الصحة المدرسية فكرةً وليدة؛ لكنها ما لبثتْ أن تحوّلت إلى مشروع وطنيٍّ متكامل يربط التعليم بالعافية، والعقل بالجسد، والوقاية بالمستقبل.

كنت أقرأ في الصحف عن الخطة الخمسية للصحة المدرسية، وعن مدارس تتحول إلى عيادات صغيرة، وطلابٍ يخضعون لفحوصٍ دورية للنظر والسمع والأسنان، ومعلِّمين يتعلَّمون كيف يراقبون صحة أبنائهم كما يراقبون أداءهم

الـدراسي. كنّـا نـرى الطبيـب يمـرّ بين الصفـوف بابتسـامته الهادئـة، يحمـل دفتر الملاحظـات ويقيـس حـرارة الأطفـال، يسـألهم عـن نومهـم وطعامهـم، كأنه يمسـح على أرواحهـم قبـل أجسـادهم. تلـك المشـاهد البسـيطة كانـت تمنـح المدرسـة روح الأمـان، وتجعل الطفل يشـعر أن هناك من يحرسـه بالاهـتمام والعطف قبل الدواء.

ثـم جـاء زمـنٌ جديدٌ حمل عنوانًا أوسـع: المفهـوم الجديد للصحة المدرسـية، يهتم بثقافـة الوعـي الصحـي التـي تبـدأ من الصـف ومن السـلوك اليومـي للطفل. صار الهـدف أن نعلّـم الطالـب كيف يقي نفسـه قبل أن يُصاب، وأن نجعل المدرسـة فضاءً صحيًـا متـكاملاً يعيـش فيـه التلميذ حيـاةً متوازنة. ظهـرت برامج التثقيـف الصحي، ودروسٌ عـن النظافـة والغـذاء السـليم والنـوم المبكـر، ومتابعـة دقيقـة للحـالات المزمنـة. وتحولـت العيـادات المدرسـية إلى وحـدات طبيـة حديثـة مرتبطـة بالمراكـز الصحيـة في المـدن، تؤمـن بأن صحة الطفل مسـؤولية جماعية بين المدرسـة والبيت والمجتمع.

كانـت تلـك المرحلـة، بين الخطـة الخمسـية والمفهـوم الجديـد، أكثر مـن مجـرَّد تنظيـم إداري. كانـت ولادة وعـيٍ جماعـيٍّ بـأن بناء الإنسـان يبدأ مـن عافيته، وأن التعليـمً لا ينفصـل عـن الجسـد، وأن العقـل لا يبـدع في جسـدٍ مرهـق. ولذلك ظلّت فكـرة الصحـة المدرسـية في قطـر تتطور بهـدوءٍ وثبات، حتـى أصبحت اليـوم جزءًا مـن رؤيـة قطـر الوطنيـة 2030، حيـث تتكامـل الصحـة مـع التعليـم في منظومـة التنميـة البشرية.

واليـوم، حين أمـرّ على المـدارس الحديثـة، وأرى العيـادات المجهـزة، والأطبـاء المقيـمين، وبرامـج الوعـي الصحـي التـي يشـارك فيهـا الأطفـال بأنفسـهم، أتذكـر أولئـك الـرواد الذيـن وضعـوا البذرة في صمـتٍ وإيمان، كأنهـم جميعًا بنوا جسـورًا مـن الرحمـة بين الماضي والحـاضر.

ومـا زلـت أؤمـن أن ما فعلـوه لم يكن مجـرَّد مشروعٍ صحي؛ بل درسًـا في معنى الرعايـة. لقـد علَّمونـا أن الصحـة ليسـت جسـدًا سـليماً فحسـب؛ بـل هي ضـوءٌ في العقـل وسـكينة في النفـس، وأن المدرسـة التـي تعلّم طفلهـا كيف يعتني بنفسـه، إنما تعلّمـه كيـف يعتني بوطنـه أيضًا.

كانت تلك الأيام تحمل معنى الصحة في أبهى صورها: رعاية حقيقية، دفء إنساني، وبناء مجتمع واعٍ بالصحة في زمن كانت البدايات فيه متواضعة؛ لكن الأحلام كبيرة.

واليوم، وأنا أستعيد تلك الذكريات بعين سبعينية مفعمة بالحنين، بلغني أن الدكتور عثمان السعيد قد رحل عن دنيانا بعد عمر ناهز التسعين عامًا. ذلك الرجل الذي أسّس لنظام صحي تربوي متكامل، لم يتوقف عطاؤه عند أبواب الصحة المدرسية. فعندما أنهى عمله في الوزارة، فتحت له الأقدار بابًا جديدًا بفضل ثقة المغفور له الشيخ محمد بن حمد بن عبد الله آل ثاني الذي كان وزيرًا للتربية والتعليم آنذاك، فكلفه بإنشاء عيادة الدوحة في فريج النصر. هناك واصل عثمان السعيد رسالته، وجلب فريقًا من أمهر الأطباء العرب؛ ليكون هذا الصرح الطبي امتدادًا لعطائه، وليبقى أثره في مجتمع قطر حاضرًا وحيًا.

كم هو جميل أن نتذكر رجالاً من هذا الطراز؛ عملوا في صمت، وتركوا أثرًا خالدًا في حياة أجيال كاملة. ونحن الذين تلمسنا رعايتهم يومًا، نرفع لهم اليوم تحية امتنان، وندعو بالرحمة لمن غرس فينا معنى الصحة بوصفها أمانًا ودفئًا وعطاءً مستمرًّا.

رحم الله الدكتور عثمان السعيد، فقد كان لي أبًا طيبًا ورمزًا إنسانيًا خالدًا في ذاكرة جيلي. ولتبقَ أماكن، مثل: فريج اسلطة، وفريج النصر، وفريج المرقاب شواهد حيّة على بدايات الرعاية الصحية في قطر، حيث انطلقت الأحلام من مبانٍ بسيطة لتصنع منظومة متكاملة من العطاء والإنسانية. ليت الأجيال الجديدة تدرك أن هذه الصروح العظيمة بدأت بحب وعطاء وإيمان عميق بالإنسان.

الصحافة القطرية



◉ غلاف العدد الأول يناير 1976 – إصدار ثاني

عرفت أول ما عرفت مجلة الدوحة وهي من أوائل المجلات التي صدرت في قطر، وكان صدورها في أواخر عهد الشيخ أحمد بن علي، في نوفمبر من عام 1969، وهي مجلة أدبية ثقافية، تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام، وانقطعت لعدة سنوات إلى أن صدرت في ثوب جديد في يناير 1976، وهو الإصدار الذي كان يصلنا في القاهرة، واستطاعت أن تأخذ مكانًا مرموقًا بين كبريات المجلات العربية.

عندما جئتُ إلى قطر في أواخر السبعينيات كنتُ مثل غريب يبحث عن لغةٍ يتعرّف بها إلى المكان. لم تكن وسائل التواصل قد فتحت الأبواب كما اليوم، ولا الفضائيات غمرت البيوت؛ كان للورق سلطان وهيبة، وكانت الصحف والمجلات هي الجسر الذي يصلنا بالعالم. ما زلت أذكر رائحة الحبر صباحًا، والسيارات التي تتوقَّف أمام الجامعة لتلقي بأحزمة الجرائد على الأرصفة. كانت لحظة انتظار، كمن ينتظر رسالة بعيدة.

أول نافذة فُتحت لي كانت مجلة الدوحة. كنت قد عرفت هذه المجلة قبل أن أعرف الدوحة نفسها؛ كانت تصل إلى القاهرة في السبعينيات، شهرية أنيقة تصدر عن وزارة الإعلام منذ نوفمبر 1969، ثم توقفت، قليلًا، وعادت في يناير 1976 أكثر شبابًا وثراءً. هناك في القاهرة كنت أبحث عنها في المكتبات، تلمع أغلفتها بين مجلات العرب الكبار، وتقدّم قطر لي بوصفها بلدًا لا يكتفي بالثروة؛ بل يفتح أبواب الفكر والأدب. وعندما وصلت إلى الدوحة، شعرت أن المجلة سبقتني إليها؛ سبقت حيرتي وأسئلتي، وفتحت لي باب التعارف على أسماء شعراء وكتّاب عرب كانوا يكتبون فيها. صفحاتها كانت جسري الأوّل إلى المجتمع الثقافي هنا؛ من خلالها التقطت نبض المكان، واطلعت على ما يُكتب وما يُترجم وما يُحاور. كانت المجلة تكبر بسرعة، تحتل مكانًا رفيعًا بين كبريات المجلات العربية، تنافس في جديتها وتحريرها الرصين، وتمنح القارئ القطري نافذة على فكر عربي وعالمي متجدّد. أذكر جيدًا كيف كانت نسخها تصل إلى مكتبات الجامعة، وكيف كنّا نتناقل أعدادها، نفتح صفحات النقد الأدبي والدراسات الثقافية بشغف القادم الجديد. ومع الوقت، وجدت لي موطئ قدم على صفحاتها؛ أكتب وأشارك، حتى شعرت أن الغريب صار جزءًا من المشهد.

بعد الدوحة، كان عليَّ أن أبحث عن بيت حقيقي للكلمة، مكان أضع فيه قدمي وأشعر أن الصحافة هنا ليست أوراقًا عابرة؛ بل جذرٌ عميق. وجدت ذلك في (العروبة). لم تكن مجرَّد دار نشر أو صحيفة، كانت مؤسَّسة صنعت ملامح الصحافة القطرية. هناك يقف اسم عبد الله حسين النعمة كبيرًا؛ شيخ الصحفيين الخليجيين، رجل هادئ؛ لكنه صلب، آمن أن الصحافة عهد مع الحقيقة، وليست تجارة خبر. هو الذي أسس جريدة العرب، الصحيفة التي صارت عنوانًا للجدية والانفتاح. كنتُ أقرأها بشغف؛ صفحات واسعة، عناوين متينة، وعمود ثقافي يعطي مساحة للأدب والفكر. كانت (العرب)، في ذلك الوقت، منبرًا للتعبير، نافذة على القاهرة وبيروت ودمشق، ومتنفَّسًا للأقلام القطرية الناشئة. ولم تكن العرب وحدها؛ فدار العروبة امتدت إلى مجلة العروبة التي ولدت عام 1970م، وأضافت بعدًا ثقافيًا راقيًا. كانت المجلة نافذة للأدباء والمفكِّرين العرب، كما أقامت مكتبةً خاصة حملت اسمها، أشبه بواحة معرفية في قلب الدوحة. أتذكر تلك المكتبة جيدًا: رفوف مكدسة بكتب ومجلات من مشارق العرب ومغاربهم، كنّا نلجأ إليها بحثًا عن أعداد قديمة من «الهلال» و«الكاتب المصري» و«الدوحة» نفسها. هناك اكتشفت أن الصحافة ليست، فقط، صناعة يومية؛ بل ذاكرة ومخزن للأفكار. ومع مرور الزمن، رأيت الابن خالد عبد الله حسين النعمة يواصل المسيرة. حمل الراية من والده بهدوء وذكاء، وقاد «العرب» و«العروبة» بروح الجيل الجديد؛ لكنه ظل وفيًّا لمدرسة الأب: المهنية، والتنوّع، والمسؤولية الثقافية. هذا الامتداد العائلي أعطى الصحافة القطرية عمقًا وإنسانية؛ جيل يسلّم جيلاً دون انقطاع أو ضجيج.





◉ مبنى دار العروبة في الثمانينيات - أرشيف الباحث عتيق السليطي

وعندما جئت كان هناك وليد جديد هو الراية التي صدرت لتفتح نافذة أخرى لقطر على العرب، ولسان حالها يقول: نحن بلد صغير؛ لكنه صاحب كلمة وصوت. وقف خلفها ناصر محمد العثمان، رجل رأيته فيما بعد يكتب عن الوطن كأنه يحادث صديقًا قديمًا. معه جاء من القاهرة الناقد الكبير رجاء النقّاش، حاملاً خبرة ثقافية عريقة. وفي مطلع الثمانينيات جاء الصحفي صلاح الدين حافظ ليحوّل (الراية) إلى صحيفة يومية، ويمنحها مهنية رصينة وأفقًا واسعًا. كنتُ أرى فيها شيئًا جديدًا، يختلف عن «العرب»: أقل تقليدية، أكثر حيوية وانفتاحًا. صفحات الرأي فيها مفتوحة، والمقالات تحمل أصواتًا قطرية وعربية متنوعة. وفيما بعد، واصلت (الراية) رحلتها حتى مطلع الألفية الجديدة، حين برز عبد الله بن خليفة العطية رئيسًا لمجلس إدارتها؛ دعمها ماديًا ومعنويًا، وقادها إلى العصر الرقمي. أتذكر جيدًا احتفالها بأربعين عامًا في 2019، وإطلاق موقعها الإلكتروني وتطبيقاتها؛ بدت لي كصديقة قديمة،

لبست ثوبًا حديثًا دون أن تفقد روحها. كان في (الراية) شيء يشبه قطر نفسها: شابة، طموحة، تعرف كيف تستفيد من خبرات العرب الوافدين، وتحافظ، في الوقت ذاته، على صوتها المحلي. ومعها شعرت أن المشهد الصحفي هنا يتسع وينضج؛ لم يعد مجرَّد جريدة واحدة تقود؛ بل ساحة تنافس شريف يثري المهنة، ويفتح مجالاً للتنوع.

لم تكن الصحافة القطرية مجرَّد جرائد عامة؛ في جانبها المتخصص وجدت عوالم أوسع، أشبه بحدائق جانبية تفتح أبوابها للباحث والقارئ النوعي. أذكر جيدًا مجلة (ديارنا والعالم) التي صدرت عام 1976 عن وزارة المالية والبترول. كانت مجلة بوجه اقتصادي بحت؛ لكن وراء أرقام النفط وإحصاءاته كان هناك طموح لتقديم قطر كفاعل دولي في مجال الطاقة. ما لفتني فيها أنها باللغتين؛ العربية والإنجليزية؛ رسالة مزدوجة تعكس انفتاح البلد، وتطلعه للحوار مع العالم. ثم (الصقر)؛ مجلة رياضية مختلفة تمامًا؛ لكنها أخذت مكانها بقوة. كان على رأسها الشاب المثقف سعد الرميحي، الذي لم يكتفِ بالرياضة خبرًا وتحليلاً؛ بل جعلها ثقافة وذاكرة للبطولات والأبطال. سعد نفسه كان، لاحقًا، وجهًا تلفزيونيًا بارزًا، محاورًا هادئًا وعميقًا، يواجه ولا يجرح، نموذجًا للمحاور المهذّب. أما (المشعل) فقد صدرت عن الهيئة القطرية العامة، شهرية تتابع أخبار النفط والإنتاج والتصدير. كانت أقرب إلى نشرات متخصصة لا تصل إلى القارئ العادي؛ لكنها تؤرخ لبنية اقتصادية تبنيها الدولة بصمت.

ويبقى عندي مكان خاص لمجلة (التربية). كنت أتابعها عن قرب، فهي منبر رسمي؛ لكن بمستوى علمي راقٍ. تصدرها اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، يرأس تحريرها عبد العزيز فرج الأنصاري، ويعاونه الراحل عبد المنعم سليم، الذي كان حريصًا على أن يبقى على تواصل معي، يستشير ويناقش. كتبت فيها عدة مقالات علمية؛ لكن تبقى تجربتي الأعمق عندما نشرت دراسة عن «المخدرات: مصيدة الموت». يوم علمت أنها صارت ضمن منهج الثانوية في سوريا، أحسست أن الكلمة التي تكتب بصدق يمكن أن تخرج من مكتبك المتواضع؛ لتصير درسًا لشباب بعيدين لا تعرف وجوههم.

ولا أنسى مغامرتي الشخصية مع مجلة المنتدى العلمي. كنت أرى في قطر

حاجة إلى منبر علمي يربط البحث بحياة الناس، فحلمت بالمجلة حتى خرجت للنور. حررتها كاملة في فترة مهمة، وكانت بالنسبة لي محاولة لزرع فكرة أن العلم ليس غريبًا عن الصحافة، وأن الثقافة لا تعني الأدب وحده؛ بل المعرفة في أوسع صورها.

وسط هذا الزخم، كان هناك باب آخر استهواني: الصحافة الاقتصادية. دخلت (عالم أسواق الخليج)، وهي مجلة أسبوعية جامعة صدرت عام 1980م، عن دار النبأ للصحافة والطباعة والنشر، يرأس تحريرها ويملك امتيازها محمد سالم الكواري. هناك خصصت لنفسي زاوية بعنوان «على هامش الاقتصاد». أردت أن أجعل الاقتصاد أقرب للناس، أكتب فيه عن البيئة، العلم، والمال؛ لكن بروح مبسطة تحاور القارئ العادي. كان ذلك تدريبًا رائعًا على الكتابة العملية بعيدًا عن الشعر والنقد.

وأيضًا كانت لي علاقة خاصة مع (أخبار الأسبوع)، المجلة السياسية الثقافية الأسبوعية التي صدرت عام 1986 عن مؤسَّسة علي بن علي. كانت بالنسبة لنا -نحن جماعة المثقفين- أشبه بمنتدى أسبوعي، ينتظر السبت مساءً لنلتقي في مكتب الأستاذ سنان المسلماني - شفاه الله وعافاه - ذلك الرجل واسع الثقافة؛ رسّام تشكيلي وشاعر وممثِّل وكاتب في آن واحد. كان يجمعنا بحيوية وكرم فكر، وحوله دائرة من الأصدقاء: الأستاذ حسين أحمد والأستاذ أحمد عاشير، رفاق من أيام الجامعة، تربطهم صداقة قوية متنامية. فيما بعد أصبح أحمد حسين رجلاً من رجال الدبلوماسية القطرية، وتولى أحمد عاشير قيادة رقابة المطبوعات في وزارة الثقافة. أما نحن، القادمين من مصر وسوريا وفلسطين، فكنّا خليطًا جميلاً: أنا وطلعت الشايب وجودة خليفة من مصر، ونزار عابدين من سوريا، ونبيل الأغا من فلسطين، وغيرنا من الأقلام المتنوعة. كنّا نكتب في أخبار الأسبوع ونمنحها من وقتنا وقلوبنا حبًا واعتزازًا. لم تكن مجرَّد مجلة؛ بل بيتًا آخر، صداقة عابرة للجنسيات، ونقاشات لا تنتهي عن الكتابة والحياة والفن.

لم تكن الصحافة ورقًا فقط؛ كانت وجوهًا وصداقات ومجالس. أذكر حسن توفيق، الشاعر والصحفي الذي أدار الصفحة الثقافية في (العرب) وأشرف على

«أدبـاء على الطريق». كان شـاعرًا رقيقًا، كريمًا مع الشـباب، يراجـع النصوص بدقة، ويمنحـك الشـعور بأنـك مهـم. معـه عمـل لـفترة الدكتـور الشـاعر حسـن طُلِب، رغم اختلافـهما الفكـري والمزاجـي، وقد أثارت قصتـهما، لاحقًا، الكثير مـن الحكايات في الوسـط الثقـافي. كنّا نلتقي هـؤلاء الصحفيين في المؤتمرات والنـدوات والجامعة، لم يكونـوا صائـدي أخبـار عابـرة؛ بل عشـاق معرفة يقتربـون بحس المثقـف لا المتربص. هـذه اللقاءات منحتني شـعور الانـتماء؛ لم أعد غريبًا، صـارت الصحافة بيتي الثاني، وأصبحـت أسماء هـؤلاء الرفـاق جزءًا من سيرتي الشـخصية.

ثـم جـاءت التسـعينيات محملـة بالتحـولات. كبِرت التحقيقـات، اتسـعت الملفـات الاجتماعيـة والثقافيـة، وانفتـح الأفـق الإعلامـي. أُلغيـت وزارة الإعلام في منتصـف العقـد، وانطلقـت قنـاة الجزيـرة عـام 1996 لتـغير المشـهد تمامًا؛ فجأة صـار لقطر حضـور عالمـي، وصـارت الصحافـة المحليـة تتطلـع إلى فضـاء أوسـع. مـع دخـول الألفيـة الجديـدة أخـذ الـورق يتراجع أمام الشاشـة، صارت الصحـف الرقمية واقعًا لا يمكـن إنـكاره؛ لكـن بَقِـي هناك وفـاء لتاريخ الصحافـة الورقية؛ بقيـت «العرب» و«الرايـة» و«الشرق» و«Gulf Times» تحمـل روح البدايـات، حتـى وهـي تتجـدَّد في شكلها.

عنـد هـذه المرحلـة، لا أسـتطيع أن أتجـاوز اسمًا سـيبقى حـاضًرا: عبـد اللـه بـن خليفـة العطيـة. هو ليـس مجرَّد رجـل أعمال أو ناشر؛ بل عاشـق للصحافة والذاكرة العربيـة. على مـدى أكثر مـن نصـف قـرن جمـع أعداد الصحـف والمـجلات العربية مـن بيروت وبغـداد والقاهـرة ودمشـق وغيرهـا. لم يكـن الجمـع عنده تكديسًـا؛ بل مشروع حيـاة؛ سـعى ليصنـع مكتبـة متخصصـة تشـبه ذاكـرة حيـة للقـرن العشرين. في مكتبتـه تجـد الصحـف كأنهـا أيـام متراصـة: أخبار اسـتقلال، حـروب، نهضات ثقافيـة، نصـوص أدبيـة نـادرة. تجـد كتـب الرحالـة والتقاريـر السياسـية القديمـة، والكتـب الأوروبيـة عـن العـالم العـربي والإسلامـي. إنهـا مكتبـة لا تقـدّر بثمـن، ليسـت، فقـط، أرشـيفًا للباحـثين؛ بل كنـزًا وطنيًا. شـعرت، دائمًا، أن جهـده هذا هو الوجـه الآخـر للصحافـة: أن تحفـظ مـا يُكتـب، حتـى لا يضيع في زحمـة الأيام. من هنـاك تكتمـل دورة الكلمـة: يكتبهـا صحفـي على عجـل صباحًـا، فيلتقطهـا التاريـخ مسـاءً لتعيـش عقودًا.

وفي دراسته حول تاريخ الصحافة في دولة قطر، قدّم إبراهيم إسماعيل[1] عرضًا شاملاً لمسيرة الصحف والمجلات القطرية منذ نشأتها الأولى، موضحًا مسار تطورها عبر العقود. وقد بيّن أن بدايات الصحافة القطرية ارتبطت بجهود المؤسَّسات الوطنية ومبادرات القطاع الخاص، إذ شهدت البلاد في ستينيات القرن العشرين صدور مجلة (تجارة قطر) عام 1964م عن مجلس إدارة غرفة تجارة وصناعة قطر، لتُعدّ من أوائل الدوريات المتخصصة في الشؤون الاقتصادية والتجارية. ثم جاءت مجلة (العروبة) عام 1970م عن مؤسَّسة دار العروبة للصحافة والطباعة والنشر؛ لتفتح آفاقًا أوسع للصحافة الثقافية والفكرية، وتستمر حتى منتصف عام 1995م، إلى جانب إصدار مجلة (Gulf News) في العام نفسه بالإنجليزية عن المؤسَّسة ذاتها، في خطوةٍ هدفت إلى مخاطبة الجاليات الأجنبية المقيمة.

وفي مطلع السبعينيات، صدرت جريدة (العرب) عام 1972م، تزامنًا مع تولي الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني سلطاته الدستورية أميرًا للبلاد، فكانت علامة فارقة في تاريخ الصحافة الوطنية. وتتابعت بعد ذلك الإصدارات المتنوعة، مثل: مجلة «العهد» عام 1974م التي استمرت حتى 1994م، ومجلة «الفجر» التي صدرت عام 1975م وتوقفت بعد عام واحد، ثم مجلة «الجوهرة» عام 1977م. وفي المجال الرياضي ظهرت جريدة «الدوري» عام 1978م عن نادي العربي والسد، وقد عاودت الصدور، لاحقًا، في شكل مجلة تُطبع في القاهرة. وفي العام ذاته، صدرت بالإنجليزية جريدة «Daily Gulf Times» على يد رجل الأعمال يوسف جاسم درويش، بينما شهد عام 1979م ولادة جريدة «الراية» عن مؤسَّسة الخليج للنشر والطباعة.

أما في ثمانينيات القرن العشرين، فقد تنوّعت التجارب واتسعت دائرة النشر، فظهرت مجلة «أسواق الخليج» عام 1980م، وصحيفة «الشرق» عام 1985م، ثم مجلة «أخبار الأسبوع» عام 1986م، تلتها مجلة «مشاعل» عام 1987م التي ركّزت على الجوانب الاجتماعية والثقافية. وفي أواخر الثمانينيات

(1) إبراهيم إسماعيل عيسى، الصحافة اليومية العربية في قطر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، ط 1، 2004، ص 9 – 66.

وبداية التسعينيات، تواصلت حركة الإصدارات مع مجلة «قطر للإنشاء» عام 1989م، ومجلة «قوس قزح» الرياضية عام 1990م، ومجلة «الكمبيوتر للجميع» عام 1991م، ثم صحيفة «شباب اليوم» في العام نفسه، والتي توقفت عام 1994م. كما صدرت «مجلة سيدة الشرق» عام 1993م، واختُتمت هذه المرحلة بصدور مجلة «شموخ» عن مؤسَّسة الأشرعة عام 1995م، لتعبرّ عن مرحلة نضج التجربة الصحفية القطرية وتنوعها من حيث الموضوعات واللغة والجمهور المستهدف.

اليوم، وبعد مرور كل هذه السنوات، أنظر إلى هذه الرحلة وأشعر أنني لم أكن مجرَّد قارئ أو كاتب ضيف، أو باحث؛ بل كنت خيطًا صغيرًا في نسيج كبير. الصحافة هنا لم تكن مهنة عابرة؛ كانت وطنًا موازيًا، بيئة تربيت فيها، ومرآة رأيت من خلالها قطر تكبر وتتعلَّم وتفتح نوافذها للعالم. من «الدوحة» التي سبقتني إلى البلد، إلى «العرب» التي منحت البيت والهويَّة، و«الراية» التي وُلِدت معي في زمن التحولات، ومن تلك المجلات المتخصصة التي علمتني أن لكل مجال صوته، إلى مكتبة العطية التي تحفظ الذاكرة حتى لا يتبخر كل ذلك... أجد سيرة كاملة تتقاطع مع حياتي، وتقول لي: الكلمة التي أحببتها يومًا صارت جزءًا من تاريخ المكان.

بائع الجرائد

أعـرف أن كثيريـن ممـن سـيقرؤون هـذه السـطور سـيتعجبون؛ بـل سيبتسـمون دهشـة، حين يسـمعون أن الجرائـد - تلـك الصحـف الورقية التي كانـت نافذتنا إلى العـالم - كانت تبـاع على رؤوس الـدوّارات.

نقـف نحـن، في الصبـاح الباكـر، نتلقفهـا بريـال واحد مـن يد بائع صبـور يقف كل يـوم في وجـه الشـمس، ينتظرنـا بابتسـامة عريضـة، ووجه لفحتـه الرياح، وعلى رأسـه قحفيـة أو شـال يحمـي بـه جبهتـه مـن الأمـام وقفـاه مـن الخلـف مـن وهج النهار.

كانـت الجريـدة والراديـو هما الدنيـا كلهـا، نسـتقبل بـهما اليـوم؛ لا شاشـات -فالتلفـاز كان يبـدأ بثـه في المسـاء- ولا مواقـع، ولا إشـعارات.

منهما نعرف أخبار الوطن والعالم، ومنهما نتابع السياسـة والرياضة والحوادث، ونتـسلى بـ«حظـك اليـوم» و«الـكلمات المتقاطعـة»، ونتبـارى في حلهـا كما لـو كنّـا نخـوض سـباقًا في الذكاء والدهشـة.

كنـا نؤمـن أن الجريـدة لا تكـذب، وأنها صادقـة ما دامت تُطبـع بالحبر، فالحبر لا يخفي شـيئًا.

تصـل الجريـدة إلى أيدينـا وهـي تحمـل رائحـة الطباعـة الطازجـة، ممزوجـة برائحـة الصبـاح، وكأن الـورق خـرج للتـو مـن قلـب المطبعـة ليخبرنا بمـا جرى في الليل.

كانـت كل صحيفـة مرتبطـة بمكاتـب إعلاميـة في العـالم، تبعـث الأخبـار عبر أجهـزة البرق والتكـر، ثـم عبر الفاكـس، في رحلـة طويلـة قبـل أن تسـتقر الـكلمات على الـورق.

وصـورة واحـدة كانـت تعد كنـزًا، إذ كان التقاطهـا ونقلها مع الخبر أمـرًا عسيرًا، يحتـاج إلى صبر وأيام.

كان بعـض النـاس يشتري الجريـدة في طريقه إلى العمـل، يطويها تحت ذراعه، يتفقـد العناويـن في الإشـارة الحمـراء، أو يقرأهـا على مكتبـه حين يصـل، قبـل أن

يعلقها على الجدار أو يضعها على الطاولة في المقهى، ليتناقلها الآخرون واحدًا بعد الآخر.

كنا نتبادل أخذ الصحيفة بيننا، فقد كانت الصحف تصل إلى الدوائر الحكومية والمؤسَّسات العامة بالاشتراك عن طريق الدعم الحكومي، لأن الدولة كانت ترى في الصحافة وسيلة لتنوير العقول وربط الناس بما يجري في وطنهم والعالم من حولهم ونافذة للإعلانات الدائمة.

وعلى الرغم من أن هذه الجرائد ــ التي كانت تتكون من أكثر من اثنتين وثلاثين صفحة ــ كانت تحمل لنا الأخبار، فإننا كنّا نجد لها استخدامات أخرى في بيوتنا.

كانت تُفرش على موائد الطعام حين نجتمع إلى السفرة، أو تُستخدم لتغليف الأشياء وتنظيف الزجاج، أو لحماية الأرض من آثار الطلاء والغبار.

كانت الجريدة تعيش معنا دورة حياة كاملة: من المطبعة إلى المائدة، ومن الخبر إلى الذكرى.

أما أنا، فكنت أحتفظ بأعداد نادرة منها، لا لأخبارها وحدها؛ بل لما تحمله من عبق الأيام الماضية، لتكون لي ذاكرة ورقية تمتد مع الزمن.

ولم تكن الجريدة مجرَّد أوراق تقرأ وترمى؛ بل كانت يومًا من حياة البلد.

كل عدد كان يختزن أنفاس النهار، وصدى الأخبار، وصورة من مزاج الناس.

تُطوى الجريدة مع الغروب، لتبدأ أخرى فجرًا، كأنها نبض يومي لا يتوقف.

لكن أين هي الآن؟

لم تعد تباع على الدوّارات، ولا تجدها على مكاتب الموظفين إلَّا نادرًا.

حلّت محلها الشاشات الصغيرة، والهواتف التي تنقل الخبر في لحظته، مجانًا وباردًا، بلا رائحة ولا انتظار.

وكأننا نعيش زمن نهاية الورق وبداية العدم الإلكتروني، زمن السرعة الذي يبتلع التفاصيل والذاكرة معًا.

رحم الله بائع الجرائد، ذلك الرجل الذي كان يوزع علينا صباح الوطن بابتسامة واثقة، وعبارة لا تنسى:

«راية؟ أم العرب؟ أم الخليج؟»

فنمد له الريال، ونغادر حاملين بين أيدينا صوت العالم كله مطويًا في جريدة.

إن التغير، شئنا أم أبينا، هو سنة الحياة.

فما كان بالأمس من أساسيات الوجود صار اليوم في الهامش، وما كان يملأ أيامنا ضجيجًا وحديثًا صار ذكرى تستعاد بحنين.

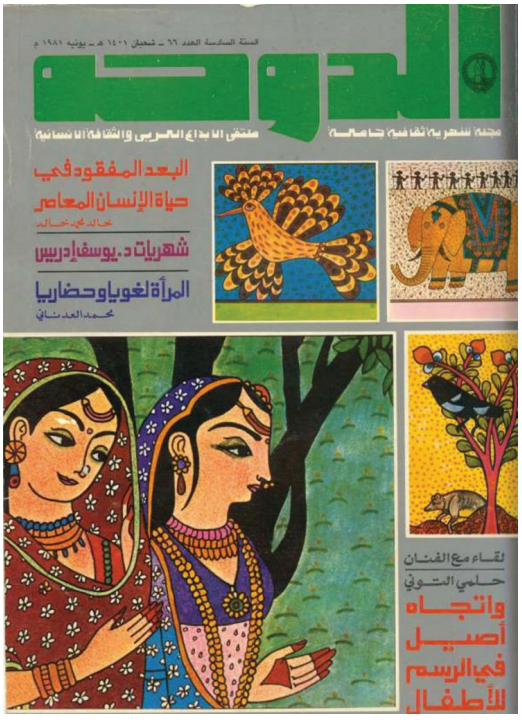
الصحف التي كانت لسان الناس وذاكرة الأوطان تراجعت أمام وسائل جديدة أسرع وأقرب، وربما يأتي يوم تصبح فيه هذه الوسائل نفسها أثرًا من الماضي، كما صارت الجريدة.

فالثبات من المحال، والحياة لا تعرف الجمود. إنها تتبدل كما تتبدل الفصول، وتنمو كما تنمو الشجرة، وتسقط أوراقها لتعود خضراء من جديد.

لذلك، لا نملك إلَّا أن نبتسم ونحن نودع زمنًا مضى، ونرحب بزمن قادم لا نعرف ملامحه بعد، فالتطور هو وجه الحياة المتغير، وما يبقى حقًا هو الذاكرة، والقدرة على الحنين. وتحية لزمن لن يعود.

مساء الْخَمِيس

وهـو اللقـاء الذي يجمعنـي مع أصدقائي الجـدد على كورنيش الدوحة كل خميس في نهاية الأسـبوع بعد سـتة أيام عمل في الأسـبوع، تذكرت جلسـاتي مـع رفـاق الصبـا فـوق الـجسر على ترعـة المريوطيـة في كرداسـة، ولكـن الحديـث تـغير موضوعـه، وغـدا أكثر عمقًـا ونضجًـا، فقـد تحـوّل اهتمامـي جغرافيًـا إلى الخليـج العـربي، وكنت لا أزال أحب الشـعر وأقرضـه، وتتملكني مشـاعر شـوق لمصر على إيقـاع التفعيلـة، فكتبـت قصيـدة حزينـة عنوانهـا، البـكاء عنـد شـاطئ الخليـج، تخيَّلـت فيهـا مناجاة بينـي وبين الخليـج، كانت أشـبه ببكائيـة غريب.



وتذكـرت مسـاهمتي في مجلـة الدوحـة، والتـي نشرت عـام 1976، قبـل أن تطـأ قدمـاي أرض قطـر، عندمـا كان رئيـس تحريرهـا الشـاعر الدكتور محمـد إبراهيم الشـوش، وكانـت هـذه المجلـة لهـا سـمعة واسـعة، فكنـا في مصر ننتظـر صدورهـا

كل شهر بشوق، كما كنّا ننتظر صدور مجلة العربي الكويتية، كان بينهما خيط رفيع يشدنا إلى شكل جديد من الثقافة يشرق علينا من الخليج، على الرغم من أن معظم من كانوا يكتبون فيها غير خليجيين، ولكن هذه المجلات وغيرها تصلنا بالوطن العربي من غربه إلى شرقه، نقرأ للمغربي واليمني والعراقي والجزائري والموريتاني والسوداني وغيرهم.

كتبت قصيدة بعنوان (القرية المنفية)، ونشرتها مجلة الدوحة، وكانت محاولة ساذجة ككل المحاولات المبكرة التي تجاسرت بها على الشعر، ولكنها حملت بذورًا كامنة في بستان الإبداع.

أما تأمُّل مياه الخليج كل ليلة فكان يأخذني إلى فترة ما قبل تفجر البترول، ذلك المارد الأسود الذي أحدث ما أحدث في حياة كل من يعيش على ضفاف الخليج، أو الذي يتطلع إليه كمصدر للرزق الوفير، ظللت أحمل خيالاً خاصًا لصورة رسخت في ذهني واستقرت عن خليج الغوص على اللؤلؤ. وأحيانًا أوغل في الخيال وأجدني أعيش رحلات الغوص، وأزعم بيني وبين نفسي أنني غواص صارع الموت بحثًا عن محارة؛ لذلك تتملكني رهبة شديدة كلما نظرت إلى مياهه الرمادية، محاولاً الحديث إليه أرثي لحاله تارة ولحالي تارة أخرى، لا سيما ويأتينا صوت النهام، من وقت لآخر، عبر تلفزيون قطر، وكان صوته الحزين شقيًا وشجيًا.

لقد كانت قصيدة الشاعر العراقي بدر شاكر السياب «غريب على الخليج»، حاضرة، دائمًا، في ذاكرتي، كلما جلست على شاطئ البحر، كانت مفرداتها تشبه لسان حالي، دائمًا، ولربما ألقت بظلالها على ما كتبت فيما بعد... يقول السياب:

عَلَى الرِّمَالِ، عَلَى الْخَلِيج

جَلَس الْغَرِيب، يَسْرح الْبَصَر المحير فِي الْخَلِيجِ...

ولأنني أزعم أن الغوص على اللؤلؤ هو الإرث الحقيقي لأبناء الخليج، وهو الذي صنع دراما تاريخ المنطقة باعتباره ظل لآلاف السنين محورًا هامًا في الأحداث التي سطرها التاريخ.

سيطرت عليَّ فكرة الإنسان والبحر، وخطر لي أن أخرج من هذه المواجهة

بعمل ما أشغل نفسي به، فظللت أناجي نفسي وأقرأ وأكتب وأمحو ما كتبت.

هكذا كانت الأفكار تبزغ ثم تنمو ثم يحدث لها ما يحدث؛ ليبقى ما يبقى، أو لا يبقى شيء، فليس من السهل على الإنسان أن يقاوم مداهمتها أو يمنع سيطرتها على الرغم من تبدل الأحوال وتغير الظروف.

وتفتَّق ذهني عن فكرة إنشاء ملتقى مساء الخميس، أشبه بالصالونات الثقافية، فقد كانت جلساتنا المسائية على الخليج أشبه بمنتدى ثقافي حر، لا جدران تحده، ولا سقف يغطيه، لقد حاولت أن أنشئ منبرًا حرًا للفكر، لاسيما بعد أن تعرفت على عدد من المثقفين من أبناء مصر وقطر، واقترحت عليهم أن نقيم صالونًا أدبيًا في الهواء الطلق، ليختار كل منّا موضوعًا محببًا إليه ليحدثنا عنه، اتفقنا أن يكون يوم الخميس هو موعد لقائنا الأسبوعي، كنّا نصطحب زوجاتنا وأولادنا وسندوتشات الفول والطعمية والشاورما والمياه الغازية، ونتركهم يأكلون ويتسامرون، والأطفال يلعبون ويتدفقون من حولنا بحيوية الحياة.

وعلى مقربة منهم نفترش الأرض، نتحلق في دائرة مستديرة، وبدأت بنفسي وأعددت موضوعًا عن اللؤلؤ في الخليج، وفي الحقيقة كنت أريد أن أعرف عنه، فشرعت في البحث، فإذا أردت أن تعرف عليك أن تقرأ، وإذا أردت أن تستفيد مما تقرأ عليك أن تكتب، فقرأت تقريرًا منشورًا في دليل الخليج (لوريمر) بمكتبة الجامعة، وأعجبني، ولأن الكتاب غير مصرح باستعارته خارج جدران المكتبة، قمت بنسخ صفحات عديدة منه، وكان ذلك قبل شيوع ماكينات التصوير عملاً سهلاً.

وعندما سعيت للحصول على نسخة من الكتاب وكان مكونًا من 14 مجلدًا (سبعة مجلدات جغرافي ومثلهم للتاريخي)، ولم يكن ذلك سهلاً، حتى يسَّر الله لي سبيلاً لذلك، فلقد بهرني هذا الكتاب، وقلت لنفسي: «هذه هي الكتب وإلا فلا.. نعم إنه نتاج جهد فريق كبير من المتخصصين، ولكنه عمل موسوعي لا مثيل له»، كانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها كتاب تاريخ أشبه بقصة الحضارة. وهو كتاب جدير بالدراسة، فقمت بدراسته وكأنني سأمتحن فيه وبعد أن استخلصت نصوصًا من التقرير، سجلتها على بطاقات صغيرة، وعندما التقينا أخذت أقرأ على أصدقائي، رفقاء صالون الخميس، عن الغوص على اللؤلؤ،

والـهيرات، وأوزان اللؤلـؤ، وأماكـن تسـويقه في الشرق والغـرب، ومن هـو النوخذا، ومـن هـو المسـقم، ومـن هو الغيـص والسـيب وغير ذلك مـن مصطلحـات الغوص، وكان الموضـوع جديـدًا عليهـم، فاسـتمعوا بشـغف وخلفنـا امتـداد لا متناهـي مـن ميـاه الخليـج، يفصلنـا عنـه سـور حجري متـآكل، تتسرب منـه المياه، وهـواء الدوحة الرطـب يـغشي نظاراتي السـميكة.

كان التقريـر يغطـي فترة زمنيـة مهمـة مـن نشـاط السـكّان في قطـر، ولا أدري لماذا اهتممـت بهـذا المجـال مـن مجـالات التراث، فقمـت بإعداد ملف عـن الغوص نشرتـه فـيما بعـد في مجلة خليجية تُعنـى بالتراث، لتبدأ رحلتي مـع التراث القطري ولا تنتهي.

وكان الوطـن حـاضًرا معنـا في كل الأوقات، نتحدث عن أسـعار تذاكر الطيران، والهدايـا، وأسـعار العملـة، والإجـازات، ومدخراتنـا، وإجـراءات التجديـد... وغيرها مـن موضوعـات تهم أمثـالي من أبنـاء الوطن.

كان رواد صالـون الخميـس، مـن زملائي العامـلين في الجامعـة ومنهـم الأخ الدكتـور أميـه أبـو السـعود، والأخ إبراهيـم البربـري، والأخ حسـن الهـواري، والأخ سـامي كمالـة، حريـصين على الاتفاق في نهايـة كل لقاء على اختيـار الجامع الذي نـصلي فيـه صلاة الجمعـة، فقـد كانـت جوامـع قطـر منـارات للثقافـة الإسلاميـة والعلـم والفكـر، فالخطبـاء معظمهـم عـلماء، بعضهـم أسـاتذة في جامعـة قطـر أو أسـاتذة وشـيوخ في المعهـد الدينـي، وبعضهـم من الدعـاة الذين لا يشـقُّ لهم غبار، وهـم مـن الرعيـل الأول الـذي اسـتقدمهم الشـيخ علي بـن عبـد اللـه، حاكـم قطر الأسـبق، وكانـوا حـوالي 45 مـن خريجـي الأزهر الشريـف اسـتقدمهم للتدريس في مـدارس قطـر، فقـد كان الاهـتمام بالعلـوم الدينيـة يـأتي في مقدمـة العلوم.

بالإضافـة إلى عـلماء مـن لبنان وسـوريا، فلا زلت أذكر فضيلة الشـيخ مصطفى الـصيرفي، وكان مـن سـوريا، ويرتـدي ثوبًا قطريًا، وكان له حضـور رائع على المنبر في جامـع الأصمـخ، فقـد كان أول مـن حضرت لـه خطبـة في قطـر، لكـون الجامع كان قريبًـا مـن مسـكني الأول، وإلى جـواره مـحلات الريس للإلكترونيـات، وفندق القايـد، وظللـت أحضر لـه كل جمعـة، واسـتفيد مـن خطبه، فقـد كانت لونًـا جديدًا مـن الخطابـة، كل خطبـة يفسر فيها سـورة من سـور القـرآن الكريم وبعض السـور

لطولها تأخذ أكثر من خطبة، وكان صافي الصوت، ولكونه سوريًا فإن الجامع كان يقصده الكثيرون من أبناء الجالية السورية، كما كان له درس أسبوعي في تفسير القرآن الكريم.



◉ مجموعة من أعضاء هيئة التدريس في المعهد الديني يتوسطهم الشيخ يوسف القرضاوي

وكان الزملاء يقترحون في لقائنا هذا التجمع بعد صلاة الجمعة لنتبادل الأحاديث، فنتفق على جامع من الجوامع الكبيرة لنذهب إليه، وكل جمعة يقوم واحد منّا بالمرور على الزملاء لنستقل سيارة واحدة، ونتجمع بعد الصلاة لنعلق على ما تضمنته الخطبة، فحضرنا افتتاح مسجد أبو بكر الصديق في منطقة أم غويلينة، وكان من أهم المعالم المعمارية البارزة في المدينة، واستمعنا لخطب الشيخ يوسف القرضاوي التي كانت تسمع أرجاء قطر، حيث كانت كاميرات تلفزيون قطر، تنقل الخطبة على الهواء، فكنا نجلس في اتجاه عدسات الكاميرات ليرانا الأهل في المنزل، حيث تضطلع مساجد دولة قطر بدور كبير في الحفاظ على الهويَّتَين العربية والإسلامية في البلاد، وعندما افتتح جامع عمر بن الخطاب وكان تحفة معمارية فريدة تضاف إلى سلسلة

المساجد الحديثة، انتقل الشيخ يوسف القرضاوي ليخطب فيه، وترك منبر جامع أبو بكر الصديق لتلميذه الدكتور عبد السلام البسيوني، الذي تخصص في دعوة غير المسلمين للإسلام، فكنا نحرص على حضور لحظات دخولهم الإسلام بعد نطق الشهادتين، لترتجف معهم قلوبنا، ونحن نشهد تغير سحنتهم بعد النطق بالشهادة، وكان الشيخ عبد السلام يجتهد بعلمه وخلفيته الثقافية في الاقتراب منّا، محاولاً كسب الشباب على اختلاف توجهاتهم واجتذابهم إلى صفوف المصلين، وكان يزورني في المكتبة مع وفود الزائرين من الخارج ولعلمه كان يقدِّر ما تحت يدي من كنوز، ويبدي دهشة بما يراه من كتب، ويتركني وهو يأمل أن يأتي في فسحة من الوقت للاطلاع، فقد كان ذا اهتمام ثقافي واسع وإنتاج فكري غزير، وحكاء لا يمل حديثه، وفي آخر زيارة له كان بصحبة المفكِّر الألماني الكبير مراد هوفمان، الذي سَّره أن يجد معظم مؤلَّفاته لدينا في سجلات المكتبة.

لذلك حين أستعيد الوجوه التي تركت في الروح أثرًا لا يزول، يطلّ الدكتور عبد السلام البسيوني بملامحه الوادعة وابتسامته التي تفيض إنسانية وانفتاحه على الثقافات كافة بسماحة العالم. كان لقاؤنا به لقاءً مع مصر الأصيلة في دفئها وصدقها، وكان حضوره امتدادًا للحياة كلها، دون أن يُصنّف نفسه أو يحصر ذاته في لقب أو إطار ضيق.

ما جمعنا لم يكن الفكر وحده ولا الدعوة فقط؛ بل جمعنا حب الجمال أيضًا. فقد كان عاشقًا لفن الخط العربي، نتبادل عبر الواتساب لوحات خطية تحمل أرواحنا على حروفها، كأنها رسائل نور تُسافر بيننا. وكان ذلك دليلاً على سعة قلبه واتساع روحه؛ إذ جمع بين عِلمٍ رصين وفنٍّ أصيل، بين جدّ الدعوة ورهافة الذوق.

كان يعيش الحياة بكل تفاصيلها: عالِمًا حين يشرح، مربّيًا حين يوجّه، وفنَّانًا حين يتأمَّل جمال الحرف العربي. لم يفرض نفسه بالمنابر ولا بالخطابة أو بالشعر؛ بل بالحضور الإنساني القريب، وبالصدق الذي يسبق كلماته.

سلام عليه في ذكرياتي، وسلام على تلك اللحظات التي جمعتنا، بين دفء الدوحة، ونقاء الخط العربي، وصفاء الروح.

كما اجتذبنا جامع إِسْحَاقَ وهو الجامع الذي كان يخطب فيه الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر، وهو أستاذ في جامعة قطر وعالم أزهري جليل اشتهر بغزارة علمه، وتواضعه الجم، وغيرته على الإسلام وحال المسلمين. وكان خطيبًا مفوهًا هادئ الطبع أحبه الناس، فكان الجامع والطرقات المؤدية إليه تمتلئ بالمصلين الذين يأتون من كل حدب وصوب، ليس لحضور الخطبة فحسب؛ بل والاستماع إلى الدرس الديني الذي يلي صلاة الجمعة، ونلتف حوله، ويمطره الحضور بالأسئلة والفضول، ويصبر عليهم، وكنت استشعر من حديثه الأبوة والنصيحة فقد كان - رحمة الله عليه - معلماً ومربيًا قريبًا من القلوب أحبه مريدوه، وأنزلوه منزلة عظيمة.



◉ الشيخان محمد الغزالي وحسن عيسى عبدالظاهر، عام 1982- جامعة قطر

وكان الشيخ محمد الغزالي يأتي إلى قطر مدعوًا من جهات عدة وفي مناسبات عديدة، فإذا عرف أحدنا أخبر الأصدقاء لنشد له الرحال، فقد كان للشيخ الغزالي في نفوسنا مكانة كبيرة، وكان الشيخ القرضاوي يجله، ويقدمه على نفسه، وكذلك الشيخ حسن عيسى، وغيرهما فقد كان محبوبًا من الجميع، وينزله العلماء منزلة المربي الكبير، وكنت أحبه جدًا، منذ كان يخطب في جامع الظاهر في مصر، وحديثه يدخل إلى القلب، وعندما قرأت كتابه هموم داعية،

توثّقت علاقتي بكتاباته وأحاديثه ومنهجه، فقد كان يأتي بأفكار نابعة من قلبه ووجدانه، وهمه أن تتقدم الأمة بالعلم؛ لتعتمد على أبنائها في إطعام نفسها وعلاج مرضاها، وعندما كان يأتي قطر يفسح له الخطباء المنابر لكي يعتليها، وتكتظ المساجد بالناس، ويفترشوا كل الطرقات المؤدية له، فقد كان -يرحمه الله- داعية متأمِّلاً في الحياة وغيورًا على واقع الأمة وصاحب رسالة، والتقيته على الإفطار في رمضان في بيت الدكتور درويش الفار (مدير متحف قطر الأسبق) وكان من عاداته - يرحمه الله - أن يدعونا ليلة السابع والعشرين من رمضان لنفطر ونصلي المغرب في بيته، وفي هذه الليلة صلى بنا الشيخ محمد الغزالي، وكان الحضور فوق الخمسين شخصًا من جميع الجنسيات، وكان من الحضور - أيضًا - أساتذة من جامعة قطر فضلاً عن الشخصيات الدينية البارزة، مثل: الشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ عبد اللطيف زايد وآخرون، رحم الله من غادرنا منهم إلى دار البقاء.



◉ الدكتور درويش الفار – شيخ المثقَّفين العرب

أما علاقتي بالدكتور درويش الفار فكانت - أيضًا - من خلال أستاذي الدكتور البتانوني، الذي طلب منه الدكتور درويش أن يرشح له أخصائي معشبات، بقصد إنشاء مجموعة معشبية من نباتات قطر؛ ليحتفظ بها في قسم التاريخ الطبيعي بمتحف قطر الوطني، فرشحني أستاذي البتانوني لهذه المهمة، فقمت بجمع العينات وإعدادها للعرض وتسميتها، وكانت سعادته كبيرة عندما انتهيت من العمل، وتسليمه الملفات، وظلّت علاقتي به مستمرة، نلتقي بعد صلاة العصر في مكتبه في المتحف، لنصلي المغرب جماعة مع فريق العاملين في المتحف، يتقدمهم العم سعيد البديد، وكان رجلاً هاديء الطباع ودودًا يقابلني بابتسامة الأتقياء وبشاشتهم، والأستاذ إبراهيم الجابر، والمهندس إبراهيم فؤاد. وتوطدت علاقتي بالدكتور درويش منذ ذلك الوقت، حيث كنت حريصًا على الاستماع له ومناقشته في بعض الموضوعات المتصلة بمقالته التي كان ينشرها في جريدة الراية، وعادة هي موضوعات علمية ميسرة، يقدمها في ثوب أدبي راقٍ، وبلغة عربية بليغة، وفيما بعد جمعنا مجلس الشيخ حسن في منتدى الجمعة الذي سيأتي ذكره.

وكان له اهتمام بالطب الشعبي، وحاولنا أن نربط بين ما لديه من موروث شعبي في التداوي وبين ما تقدمه البيئة القطرية من نباتات وأعشاب لها أثر علاجي ظلت تستخدم حتى وقتنا الحاضر، واستفدت من زياراتي للمتحف بجلسات مطولة مع الوالد سعيد البديد الذي لديه خبرة بالأعشاب الطبيعية وفوائدها، وحدثني عن العديد من الأعشاب واستخداماتها العلاجية، فمنها ما يستخدم لعلاج ضغط الدم والروماتيزم والربو والسكري والحساسية والالتهابات والكسور إلى جانب الاستخدامات الأخرى.



ولا أستطيع أن أذكر كل أولئك الذين اجتذبونا لنحضر دروسهم ومحاضراتهم الدينية، وأثروا فينا، فقد أضاؤوا لنا الطريق، ويشهد الله أنهم كانوا دعاة سلام ومحبة، فساهمت الجامعة بعلمائها في إثراء حياتنا من خلال منابر المساجد، التي شُيدت تعزيزًا للجوانب الدينية والروحية للمجتمع القطري، جنبًا إلى جنب مع الارتقاء بالجوانب العلمية والثقافية، وأعتقد إنني وأبناء جيلي ومن هم على شاكلتي قد تعلَّمنا منهم الكثير فجزاهم الله خير الجزاء.

نادي الجسرة

أمـا وقـد مضـت أسـابيع قليلـة على وجـودي في الدوحـة، وحصلـت على رخصة القيـادة، وتمكنـت مـن خلالهـا أن أستكشـف ملامـح الحيـاة الثقافية، وأتابـع أخبار الصالونـات الفكريـة، فقـد تذكـرت مـا كان يصلنـي، وأنـا في مصر، عـن نـادي الـجسرة الثقـافي الاجتماعـي؛ ذلـك النـادي العريـق الـذي حمل اسـم الحـي الذي وُلـد فيـه في سـتينيات القـرن الماضي. بـدأ رياضيًـا ثـم ما لبـث أن تحـوّل إلى بيت للثقافـة والفكـر والفـن، فصـار بحـق جسًرا تـعبره الأفـكار الجريئـة، ومـنبرًا حـرًا لأصـوات تبحـث عـن فضـاء للحوار.

كان موقـع النـادي بحـد ذاتـه جـزءًا مـن الحكاية؛ يقـوم على مقربة مـن جامع الشـيوخ، ليس بعيدًا عن قصر الدوحة، تحيط به الأسـواق القديمة والمعالم الشـعبية: خلفـه سـوق النجادة وسـوق محمد بن جاسـم والمقبرة، وإلى جانبـه الدكاكين وبيت المستشـار، وأمامه سـاحة تعـج بالحركة عند نهايتها يبدأ سـوق





◉ مسجد الشيوخ وبرج الساعة أيقونات خالدة

واقف. ومن ورائه شارع الكهرباء ومكتب الدرويش للسفريات ومخبز حبيب. كان المكان مشبعًا بروائح الماضي وصور الحياة القطرية الأصيلة.

المبنى من طابقين؛ الأول فيه صالة واسعة ومكتبة ومسرح صغير، بينما الطابق العلوي قاعة مهيبة مستطيلة تستضيف المفكِّرين والأدباء والشعراء. بدا المكان كبيت كبير للثقافة، مفتوحًا لأهل الحي وضيوفه على السواء. ومنذ زيارتي الأولى أدركت أن النادي ليس مجرَّد مؤسَّسة ثقافية تتبع وزارة الإعلام؛ بل نافذة على الفكر الحر، يستمد إشاراته من الوزير المستنير عيسى بن غانم الكواري، ويتناوب على تسييره مثقفون من أبناء الجسرة.

في تلك الأروقة عشت لحظات لا تُنسى. حضرت أمسيات شعرية لشعراء كبار، كان أولهم صلاح عبد الصبور؛ ألقى محاضرة تلتها قصائد من دواوينه في فندق رمادا. ولا أنسى الحضور السوداني الكبير الذي دلّني على ذائقة فنية رفيعة. كنت أحفظ مسرحيته «مأساة الحلاج» عن ظهر قلب، فتجرأت لألقاه مدعيًا

أنني صحفي مستقل أرغب في محاورة الكبار. ابتسم عبد الصبور وقال: «يعني عايز تسترزق؟» ثم ضحك ورحب بي، وجلست معه أكثر من ساعة. بقي ذلك اللقاء محفورًا في وجداني.

كما حضرت أمسية نزار قباني في قاعة المجلس بفندق الشيراتون؛ الحضور كان كثيفًا إلى درجة أن الواقفين فاقوا عدد الجالسين. كان نزار شاعرًا يغني بالكلمات، يبوح وكأنه يقول قصائده لأول مرة. نصف الحاضرين تقريبًا كن نساءً، ولسانهن يقول للشعراء: «أنتم الناس أيها الشعراء».

ولم يقتصر النادي على الشعر؛ فقد استضاف قمم السياسة والفكر. استمعت إلى الدكتور محمود رياض، الأمين العام الأسبق لجامعة الدول العربية، يتحدث عن الأمن القومي العربي وكأنه يمسك الكرة الأرضية بين يديه. كما حضر الدكتور عصمت عبد المجيد بخبرته الدبلوماسية، والمفكِّر أحمد بهاء الدين في محاضرته «نحن في عالم متغير»، حين لخّص الفقر بعبارة خالدة: «لا نشعر بفقرنا إلَّا عندما توجد السلع ولا نملكها».

وأذكر المناظرة النادرة التي جمعت الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور لويس عوض؛ قال له القرضاوي: «يا دكتور لويس، أنت وإن لم تكن مسلماً بالعقيدة فأنت مسلم بالثقافة والحضارة». وانتهى الحوار بودّ واحترام.

أما يوسف إدريس فقد جاء في أمسية جريئة، ففاجأ الحضور بالعتاب قائلاً: «أين نصف المجتمع؟ لا أستطيع أن أخاطب جمهورًا كله من الرجال». كان جريئًا في نقده؛ لكنه عاد ليشيد بقطر قائلاً: «هذا البلد يسير إلى الأمام بخطى ناجحة، متحفظ بقدر، متقدم بقدر، ويسير إلى الأمام بقدر أكبر». كان الطيب صالح بين الحاضرين، وجلست إلى جواره نتبادل التعليقات الهمسية على كلمات إدريس.

مرّ على الجسرة - أيضًا - فتحي غانم بصوته الهادئ وطرحه العميق، وجمال الغيطاني الذي صحبتُه في سهرة امتدت إلى ما بعد منتصف الليل، وسميح القاسم ومحمود درويش ومحمد الفيتوري، وفاروق شوشة الناقد الرصين، ونور الشريف وحسين فهمي في حديث عن السينما، ومحمود السعدني وأحمد بهجت

في الأدب الساخر. كانت الدوحة كلها تتنفس عبر منبر الجسرة.

وفي منتصف التسعينيات، شاركت في الصالون الثقافي بإشراف الدكتور مراد مبروك وإدارة الأستاذ محمد عصفور، قرأت قصصي القصيرة ونلت تعليقات ثمينة، وتبادلت الحوار مع شعراء وكتّاب شبان. هناك شعرت أنني وجدت امتدادًا لدار الأدباء التي تركتها في مصر، وأنني لست غريبًا عن هذه الأرض.

لقد قضيت في نادي الجسرة ردحًا من عمري، حتى غدا بالنسبة إليّ أكثر من جدران وقاعة؛ كان بيتًا للروح وذاكرةً لا تشيخ. فيه التقت خطاي الأولى بخطى الكبار، وعلى منبره تلاقحت القصائد والأفكار، وكلما غادرت أروقته حملت معي ومضة من ضوء لا يخبو. كان الجسرة بحق جسرًا من القلب إلى القلب، ومن الضفة التي جئت منها إلى الضفة التي صرت أنتمي إليها؛ هناك حيث يتحول الحلم إلى جزء من الحقيقة.

ولعل أجمل ما تركه النادي في نفسي أنه جعل من الدوحة، في تلك المرحلة، منارة للفكر والإبداع لا تقل إشعاعًا عن كبرى العواصم العربية. فقد فتحت قطر عبره نوافذها للثقافة العربية، وأثبتت أن الثروة الحقيقية ليست في النفط وحده؛ بل في العقول والأفكار والقدرة على الحوار. وهكذا بقي نادي الجسرة بالنسبة إليّ وطنًا آخر، وواحةً للفكر، وذاكرةً حيّة تتجدَّد كلما عدتُ بقلبي إلى تلك الأيام.

الطباعة في قطر...

أذكر أول حديث سمعته عن آلة طباعة جاءت إلى الدوحة كما يأتي المسافر الغريب. عبد الله حسين نعمة ـ ذلك الصحافي المثابر ـ حمل الحلم بيديه، جرّب بآلة بدائية وصفّ الحروف حرفًا حرفًا. لم تكن الطباعة يومها ترفًا؛ بل مغامرة عنيدة ضد الفراغ، وكانت مجلة «الدورية» أول صرخة مكتوبة بأيدٍ قطرية؛ حروفها خرجت من حنيننا للمعرفة، وإصرارنا أن يكون لنا صوتٌ على الورق.

ومع الزمن، لم يعد الأمر حرفة أفراد. دخلت الشركات والبيوت التجارية الكبرى. مطبعة علي بن علي ــ التي بدأت في أربعينيات القرن الماضي ـ أخذت تُنشئ أفقًا أوسع، تدور فيها عجلات الأوفست، وتعلو أصوات ماكينات الويب والفليكسو. صارت المطبعة بيتًا للأعمال التجارية، وللإعلانات، وللكتب الصغيرة التي تحكي قصص البلد. وفي السبعينيات برزت مطبعة الشرق الأوسط، خطوة ثابتة أخرى جعلت الطباعة صنعة مستقرة لها أهلها وخبراؤها.

ومع مرور العقود، ظهرت مطابع قطر الوطنية، وهي شركة قطاع خاص تأسست في الدوحة عام 1958 لتقدم خدمات طباعة متكاملة للسوق المحلي. امتدت خبرتها لأكثر من ستين عامًا، تخدم خلالها الوزارات والمؤسَّسات المالية والتعليمية والشركات المختلفة. جمعت بين الحرفية التقليدية والتقنيات الحديثة، فكانت تنتج الكتالوجات والبروشورات وحلول التغليف بأعلى مستويات الجودة والدقة.

ثم جاءت مرحلة «الصناعة». لم تعد الطباعة حرفة على استحياء؛ بل مشروعًا مُرخصًا ومسجلاً في دفاتر الدولة. مطابع الدوحة الحديثة وغيرها أخذت مكانها منذ الثمانينيات، ومع الألفية الجديدة صار لكل مطبعة سجل صناعي وأرقام إنتاج بالطن، وأقسام للإخراج والتغليف والتوزيع. وبموازاة ذلك ظهر مصنع السويدي للورق في 2001؛ ليؤمن خام الورق محليًا ويغلق حلقة الصناعة.

أما أنا، وقد اخترتُ المجال الثقافي ساحةً لي، فقد عشت التجربة عن قرب. تابعت بنفسي أعمال الطباعة والمسودات والبروفات، وتعرّفت على رجالٍ صاروا علامات في هذه المهنة.

أذكر الأستاذ صلاح مرسي، ذلك الدينمو في مطابع قطر الحديثة، صاحب الحرفية العالية الذي جعلنا ـ نحن المراجعين والمؤلفين ـ نشعر أننا جزء من المطبعة نفسها. هناك في قلب آلات الأوفست، أصبحنا كعائلة واحدة؛ نراجع، نصحّح، وننتظر خروج العمل بأبهى صورة. وعلى مدى سنوات، توطدت هذه العلاقة حتى أُنيط إلي الإشراف على طباعة مجلة جامعة قطر للعلوم. ومن خلال هذه المهمة عرفت الأستاذ أنور الذي تولّى الجوانب الإنجليزية في المطبعة، والأستاذ صلاح أبو خضرة، وكلهم كانوا على مستوى عالٍ من الاحتراف وحسن المعاملة.

وفي مطابع قطر الوطنية ومطابع السويدي، التقيت الأستاذ جمال عبد الحفيظ، المدير الفني الهادئ اللطيف، الذي كان يستقبلني بابتسامة ودودة. بفضله أنجزنا أعمالاً طباعية صعبة؛ لكنّها خرجت في النهاية بأناقة عالية.

تعلّمت منهم سّر البروفة الدقيقة: أوراقٌ مقطوعة بالمليمتر، أعمدة وصور توضع بترتيب مثالي قبل اعتمادها للتصوير والطباعة وفصل الألوان. رأيت آلات الأوفست و«الهيدلبرج» وهي تدور، وشهدت خطوط الإنتاج في التجليد الميكانيكي، وقصّ الليزر الذي كان وصوله إلى المطبعة يعدّ حدثًا مثيرًا في تلك السنوات.

ولم تتوقَّف تجربتي عند هذه المطابع فحسب؛ فقد تعاملت مع مطابع الشرق حيث طبعت أعدادًا من مجلة رواق التاريخ والتراث، ومع مطابع أسباير التي بهرني فيها المستوى العالي للطباعة وفتح لي أبوابها السيد نادر طلعت، كما يسّر لي السيد أحمد حنفي طرق التعامل مع مطابع الورّاق، وفي مطابع رينودا التقيت خبرات متخصصة أمينة. كل هذه المطابع تركت بصمتها في حياتي المهنية، وصنعت لي ذاكرة ممتلئة بأشخاص ووجوه ما تزال حاضرة رغم مرور السنين.

واليوم، حين أرى المطابع الحديثة في الدوحة، بأجهزتها الرقمية وخطوط تغليفها اللامعة، أتذكر تلك اللحظات الأولى. من آلة يدوية وصفّ حروف متواضع، إلى مصانع تنتج الورق وتغذي المطابع المتقدمة - هذا هو مشوار وطن أراد أن يكتب نفسه بنفسه، ومشوار جيلٍ أحب الكلمة حتى صنع لها بيتها في الدوحة.

إذاعةُ قطر من الدوحة



◉ مبنى إذاعة قطر

لم تكن عبارة «إذاعةُ قطر من الدوحة» مجرَّد فاصلٍ إذاعي أو عنوانَ بثّ؛ بل كانت فضاءً وجدانيًا يرافقنا طوال اليوم: في راديو السيارة صباحًا ونحن نُوصل الأبناء إلى مدارسهم، ثم في طريقنا إلى العمل، فنصل إلى مكاتبنا وفي آذاننا صدى آخر فقرة استمعنا إليها، ليُطلّ الصباح بندى الأمل وشغفٍ يتجدَّد. وفي طريق العودة ننتظرها، وفي المساء يأتينا صوت المذياع كصديقٍ مستنيرٍ يحمل إلينا الأخبار والأسمار. وهكذا تدور عقارب ساعة الإذاعة لتبدأ معنا من جديد بقرآن الفجر، وتنتهي عند منتصف الليل بقراءة من القرآن الكريم يتبعها النشيد الوطني، لننام على سكينة الكلمة المسموعة.

بين برنامج وآخر، تتردّد العبارة الخالدة «هنا الدوحة» بصوت محمد جاسم المعضادي، الصوت الفخم الرخيم، أيقونة الإذاعة في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، وكأنها صوتُ قطر القادم من عمق الزمن ليمنحنا تواصلاً جميلاً مع العالم.

كنا نعيش مع برامج خالدة: الأمن والسلامة بصوت الرائد محمد السادة والعقيد معروف رفيق، الأسرة بصوت الإذاعية المهذبة عائشة حسن، التي كانت تمثّل لنا صورة الأم والأخت معًا، وبرامج هدى جاد السريعة الإيقاع التي تبثّ البهجة، ولا سيما برنامجها الشهير وطني الحبيب صباح الخير بمشاركة المذيع المتألق عبد العزيز محمد. أما في الظهيرة والعصر فكنّا نتابع البرامج المعادة، وفي المساء نصغي لصوت أماني كامل وهو يطوف بنا بين عادات الشعوب وغرائب الحياة.

وكان صلاح خليفة، كبير المذيعين وحكيمهم، يضفي على البرامج مسحة من الرصانة والجدية، بنبرته الدينية الهادئة ودعائه قبل الأذان. ومعه أصوات أحببناها وانتظرناها بشغف، كأنها من أهل البيت: عدنان الشريف، زيدان ياسين، زهير قدورة، أماني كامل، نشأت سلايطه، هدى جاد، نزار عابدين، فوزي العجمي، حازم طه، محمد الجوهري وغيرهم. كانت أصواتًا من قطر والعالم العربي ـ من مصر وسوريا والأردن وفلسطين ـ صاغت معًا هويَّة الإذاعة وجعلتها جسرًا عربيًا حيًّا.

لم تكن الإذاعة مجرَّد بث؛ بل وسيلة تواصل. فقد كان المستمعون يرسلون رسائل بريدية تحمل تعليقًا أو معلومة أو مساهمة تُقرأ على الهواء. كما استعانت الإذاعة بمراسلين في القاهرة ودمشق وعمان والكويت يمدّونها برسائل صوتية مسجلة تُبث في نشرات الواحدة والنصف ظهرًا، فكانت قطر حاضرة في قلب العالم العربي.

أما الدراما الإذاعية فكانت أصوات غازي حسين، علي ميرزا، سيار الكواري، وعبد العزيز جاسم تصنع عوالم متخيَّلة نعيشها بخيالنا، رغم أدائها المسرحي المسموع لا المرئي.

رشّحتني كتاباتي الأدبية لأدخل عالم الإذاعة بدعوة من الأستاذ محمد جاسم المعضادي، مراقب عام البرامج، الذي دعاني للمشاركة في إعداد برنامج فكرة، حيث كان يقرأ بصوته أفكارًا يكتبها المفكِّرون، وترافقه شارة بصوت الإذاعية سعاد حسن. ومن هنا بدأت رحلتي مع الإذاعة، التي استمرت عبر برامج كثيرة: ماذا يقرأ هؤلاء مع صلاح خليفة، في الميزان مع عدنان الشريف، سؤال وجواب

مـع زهير قـدورة، الـزورق، رأي المسـتمع، حتـى الواحـدة والنصـف، وغيرهـا مـن البرامـج الثقافية.

ثـم رشّـحني الأسـتاذ المعضـادي عـام 1986م لإعـداد برنامـج لمدة نصف سـاعة بعنـوان المجلـة العلميـة. كان يتطلـب جهـدًا متـواصلاً طـوال الأسـبوع: إعـداد مادة جديـدة، وإجـراء لقـاءات مـع متخصـصين مـن جامعـة قطـر ومؤسَّسـات أخـرى. وهنـا أدركـت دوري كوسـيط بين العـلماء والجمهـور، أُبسّـط المعقـد وأقـرّب البعيد. وقـد تعاقـب على تقديمـه مذيعـون بارعون: نشـأت سلايطه، ابتسـام سـعيد، فوزي العجمـي، وعبـد الرحمن رشـاد.

وعندمـا أنهـى الدكتـور محمـد سـعيد الحفـار عملـه في برنامـج نحـن والبيئـة، طُلـب منـي أن أواصـل الطريـق ببرنامـج جديـد أسـميته أنـت والبيئـة. كان موجّهًـا للمسـتمع بلهجـة ودودة، يطـرق أبـواب البيـت والمطبـخ والمدرسـة والمطعـم، بعيـدًا عـن خطـاب الوعـظ المبـاشر. جـاءت شـارة البرنامـج بصـوت الإذاعية هـدى جاد، وتنـاوب على تقديمـه مذيعـون مميَّـزون. كنت أحرص على الاسـتماع إليـه حتى وأنا في مصر خلال الإجـازات، فـأشتري راديـو عـالي الجـودة للبحـث عن تـردد قطر، بينما كانـت زوجتـي تمازحني قائلـة: «في قطر تبحث عـن إذاعة مصر، وفي مصر تبحـث عـن إذاعـة قطر!».

ومـن خلال هـذا البرنامـج التقيـت بعـلماء وخبراء في مختلـف المجـالات، فكنت أحمـل معـي، دائمًـا، جهـاز تسـجيل لأغتنـم فرصـة حـوار مع أحدهـم. ومـع الوقت أصبحـت الإذاعـة فـصلاً أساسـيًا مـن حيـاتي في قطـر، فما مـن مناسـبة إلاَّ وكنت ضيفًـا في برامـج مثـل الدوحة هذا المسـاء، مسـاء الدوحـة، المقهى الثقـافي، ثمرات المطابـع، وغيرها.

وقـد تعـززت تجربتـي عبر لقاءات إذاعية أخرى: مـع بثينة عبد الجليل في أخبار مكتبـة قطـر الوطنيـة، ومـع رانيـا ظاهـر حـول كتـابي الحج مـن قطر قديمًـا، ومع الأديبـة لبنـى المامـولي في فعاليـات مركز حسـن بـن محمـد للدراسـات التاريخية، فـضلاً عـن لقـاءات مـع حازم طـه ومحمد الجوهـري وغيرهما. لقد كنّـا بحق أسرة إذاعيـة واحدة.

وهكذا غدت إذاعة قطر بالنسبة إليَّ أكثر من منبر إعلامي؛ كانت بيتًا ثقافيًا، وجسرًا وجدانيًا، ورفيقًا يوميًا جمعنا في البيوت وعلى الطرقات، وأسهم في تشكيل وجدان المجتمع القطري في الثمانينيات والتسعينيات وما بعدها. ومن خلالها شعرت أنني لم أكن مجرَّد مستمع أو ضيف؛ بل واحدًا ممن كتبوا سطرًا في ذاكرة هذه المؤسَّسة العريقة.

واليوم، في زمن الإعلام الرقمي، حيث تتزاحم المنصات وتتنافس الصور والفيديوهات على الانتباه، أعود بذاكرتي إلى صوت المذياع البسيط: إذاعة قطر. كان الصوت وحده يصنع عالمًا كاملًا، ويمنحنا دفئًا لا ينطفئ. لقد علَّمتني التجربة أن الإذاعة ليست مجرَّد وسيلة إعلامية؛ بل ذاكرة جمعية وجسر روحي يربط الناس بالمكان والزمان.

وهكذا ستبقى إذاعة قطر بالنسبة إليّ وطنًا مسموعًا، ورفيقًا لا يغيب، وذاكرة تتجدَّد مع كل صباح ومساء.

دار الكتب القطرية



عندما قدمت إلى الدوحة في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، كان من أهمّ المعالم التي حرصت على زيارتها دارُ الكتب القطرية، تلك الدار التي أُنشئت في ستينيات القرن الماضي، لتكون من أوائل المكتبات العامة في منطقة الخليج. كانت تبدو كإحدى المنارات القليلة تشق طريقها في فضاء ما يزال في بداياته الثقافية. كان الهدف من تأسيسها أن تكون مصدرًا رئيسًا للمعرفة، هكذا أرادها الشيخ علي بن عبد الله حاكم قطر آنذاك، وأن تكون كيانًا شامخًا ينهل منه المجتمع القطري علومه ومعارفه.



◉ الأستاذ عبد البديع صقر

ولقد كان من حظّ هذه المكتبة الناشئة أن عمل على أمانتها الأستاذ عبد البديع صقر، مدير الدار آنذاك، الرجل الذي ارتبط اسمه بهذه الدار العريقة في وقت كانت فيه الدوحة تخطو خطواتها الأولى نحو التمدّن السريع بمؤسَّساتها المجتمعية، فشكّل المبنى نقلة حضارية في قلب العاصمة، بتصميمه «الآرت ديكو»، وكان موقعها الفريد يضاعف قيمتها الرمزية؛ فهي تقف وسط معالم نابضة بالحياة: بالقرب من دوّار الساعة، ومكتبة المدارس، وسوق واقف، ومنطقة المرقاب، ومتحف قطر الوطني القديم، كأنها تاج يزيّن هذه المنطقة الثقافية في قلب المدينة.

وفي سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، كنّا نعيش لحظة أسبوعية تكاد تكون طقسًا مقدسًا. ننتظر قدوم الطائرة المصرية أو طائرة الخليج كأننا ننتظر زائرًا عزيزًا يحمل لنا أخبارًا من الوطن. كنّا نعرف مواقيت وصولها، ونتهيأ

نفسيًا لذلك اليوم، ونتساءل فيما بيننا: ماذا تحمل الطائرة هذه المرّة؟ أيّ أخبار؟ أيّ مقالات؟ وأيّ مفاجآت سياسية أو ثقافية؟ وما إن نسمع أنّ الطرود وصلت إلى دار الكتب حتى تتسارع الخطى إليها. كنّا نترقب لحظة فتح الأكياس البنية الكبيرة، صوتَ تمزيق الخيوط الذي يسبق انبعاث رائحة الورق والحبر، ثم تتكشف أمامنا الصحف والمجلات: الأهرام، الأخبار، أخبار اليوم، صباح الخير، روز اليوسف، المصوّر، وآخر ساعة. كان أوّل من يمسك بالجريدة يقرأ العناوين بصوت مرتفع، فتلتفّ حوله الرؤوس كأننا في حلقة دراسية أو جلسة سمر، فتمنحنا حميمية وحقًّا لا نحصل عليه مجانًا أمام سلال المجلات في مكتبة العروبة.

في قاعة المطالعة، سرعان ما تتحوّل القاعة إلى خلية نحل؛ كل واحد ينكبّ على صحيفته أو مجلته، العيون تلتهم السطور، والأصابع تقلّب الصفحات بسرعة، وتفحص الصور التي شوّهها قلم المراقب؛ فقد كان مجرَّد جزء من جسد المرأة – ما عدا وجهها ويديها – يدعو المراقب إلى شطبه وطمسه بالقلم العريض، وأحيانًا ينزع الصفحة التي لا تقبل المعالجة. وكان يرافق ذلك الهمسات والتنقّل من طاولة إلى أخرى: تعليق على مقال، ضحكة على كاريكاتير، تعجب من قرار سياسي، أو تنهيدة على خبر رحيل شخصية عزيزة. كانت تلك القاعة هي العقل الجماعي الذي يستوعب ما تحمله الطائرات إلينا من الوطن، ويعيد صياغته في حواراتنا ونقاشاتنا، فتغدو القراءة عملاً جماعيًا يعيد ربطنا بالقاهرة وبالعالم العربي بأسره.

لم تكن دار الكتب بالنسبة لنا مجرَّد مكتبة؛ بل كانت نادينا الثقافي المجاني المفتوح لنا طول الوقت، ورئة نتنفس منها أخبار الوطن وثقافته. كنّا نعبر بوابتها عصر يومي الاثنين والخميس، نلقي السلام على رجل الأمن الذي يعرفنا واحدًا واحدًا، ثم نتجه إلى القاعة حيث تتراص الصحف والمجلات، فنلتهم الأخبار، ونتبادل التعليقات، وندخل في نقاشات لا تنتهي. كانت القاعة بالنسبة لنا أشبه بمقهى ثقافي بلا لافتة، نقرأ فيها ونستعيد ملامح الوطن، نبدأ بصفحة الوفيات لنطمئن على الأحبة، ثم نغوص في المقالات السياسية والثقافية، ونتناقش في كل ما يجري. كان المكان حافلاً بالحياة، ينبض بالحوار والجدل، ويعيد إلينا

إحساسنا بأننا جزء من عالم عربي واحد.

وفي تلك السنوات تعرّفتُ إلى وجوه لا تُنسى، رجال وهبوا حياتهم لخدمة الكتاب والمخطوط. أستعيد وجه الأستاذ محمد ميرغني، الذي كان قلبه معلّقًا بالمخطوطات وقضى حياته في رعايتها وحفظها. وأتذكر الأخ عبد المنعم الوكيل الذي كان يعمل مفهرسًا، وبيننا الكثير من الود والجدل، والأخ وليد عودة، والأخ محمد عز الذي كان حضوره لافتًا في معارض الكتاب، والأستاذ خالد رمضان الذي لا يزال يعمل في الدار ويقدّم إسهامات كبيرة في تنظيم معارض الكتاب، والأستاذ حسني شحادة رئيس الإعارة، والسيد أحمد قمبر الذي كان حضوره إنسانيًا وعمليًا يملأ أروقة الدار بالهدوء والدأب. كما تحضرني أسماء قادة الدار من القطريين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية هذا الصرح الثقافي: محمد حمد النصر، وعبد الله الأنصاري، والآن يقودها جاسم البوعينين من جيل الشباب القطري الواعي.

كانت دار الكتب بالنسبة لنا في جامعة قطر أكثر من مجرَّد فضاء للقراءة؛ كانت شريكًا حقيقيًا في العمل الثقافي والتعليمي، ومجالاً للتعاون المستمر. وحين انتقلت، لاحقًا، إلى مؤسَّسة قطر، وكنت مسؤولاً عن التنسيق مع دار الكتب في مرحلة إنشاء مكتبة قطر الوطنية، شعرت أنني أمثل الجهتين معًا في النقاشات. كنت أحمل غيرتي على دار الكتب معي، وأحرص أن تظل لها مكانتها وقصتها الخاصة وقدسيتها التي ارتسمت عبر العصور، حتى في ظل ظهور مشروع المكتبة الوطنية. كنت أشعر أنني أدافع عن إرث قديم، وأعمل، في الوقت ذاته، على بناء مستقبل جديد للمعرفة في قطر.

وبعد سنوات طويلة عدت إلى دار الكتب، هذه المرة لأقدّم محاضرة عن تاريخ صناعة الكتاب في قاعاتها بعد التجديد. وجدت كل تلك الوجوه حاضرة في مخيلتي كأنها تجلس معي في القاعة. شعرت أن المحاضرة لم تكن مجرَّد فعالية ثقافية؛ بل لحظة تتويج لمسيرتي، تكريم غير معلن لكل تلك السنوات التي عشتها قارئًا وعاشقًا للمكان. أمسكتُ بالميكروفون وأنا في حالة من التجلي، وكان تجاوب الحضور دافئًا، كأنهم يشاركونني استعادة روح المكان بكل ما فيه من حنين وعطاء واستلهام في نظرتنا للمستقبل.

وحين انتهت المحاضرة وغادرت القاعة، مشيت ببطء إلى الخارج. كان المساء قد أرخى سدوله على الدوحة، وأضواء المنطقة المحيطة تتلألأ كما كانت قبل عقود. سرتُ بمحاذاة دوّار الساعة، وألقيت نظرة إلى سوق واقف ومتحف قطر الوطني القديم، فشعرت كأنني أتمشّى في شوارع شبابي. كان الهواء يحمل شيئًا من رائحة الورق القديمة، وكأن الدار تودّعني على طريقتها. أحسست أنني أغلقت دائرة كاملة من حياتي؛ من مقاعد المطالعة إلى منصة المحاضرة، من انتظار الصحف إلى مخاطبة جمهور ينتظر كلماتي. تلك اللحظة تركت في قلبي يقينًا أن دار الكتب ستظل بيتي الأول، حارس ذكرياتي، وجسر روحي بين الماضي والحاضر.

واليوم، كلما مررت بالقرب من مكانها القديم، أشعر أنني أمرّ ببيت من بيوت الطفولة، بيت جمعنا على حب القراءة وحب الوطن، بيت ما يزال يهمس في أذني: هنا بدأنا نرى العالم بعيون جديدة. وهكذا تمثل دار الكتب القطرية بالنسبة لي ولجيل كامل من القرّاء جسرًا بين زمنَين: زمن الورق الذي حفظ ذاكرتنا وصاغ وعينا، وزمن الرقمنة الذي يسعى إلى أن يحمل المكتبة كلّها في راحة اليد. إنها رمز لرحلة الدوحة من البدايات المتواضعة إلى مدينة المعرفة، وشاهد على أن الثقافة كانت، دائمًا، في قلب هذا التحوّل... تحية تقدير لكل من حافظ على الدار وعمل على إحياء دورها، ولسان حالي يقول لها: «لا أنتِ أنتِ، ولا الزمان هو الزمان».

معرض الدوحة الدولي للكتاب

لقد كان من حظي أن أحضر معرض الدوحة الدولي للكتاب في نسخته الثالثة عام 1980، بعد عام واحد من مجيئي إلى قطر. كان أول معرض أزوره بعد أن أُقيمت نسختان سابقتان، الأولى عام 1972، والثانية عام 1977.

ومنذ تلك اللحظة، صرت جزءًا من حكاية هذا المعرض، وصار المعرض جزءًا من عمري. منذ ذلك اليوم، أصبح المعرض موعدًا أنتظره بشوقٍ من عام إلى عام، أو من دورةٍ إلى دورة، كأنه نبضٌ متجدِّد يذكّرني أن الحياة لا تزالُ تحتفي بالفكر والعقل والكلمة. في كل مرة أراه، أشعر أنه يحتضن روحي كما يحتضن الورقُ الحبرَ، وأنه يعيد لي شيئًا من شبابي، من دهشتي الأولى أمام الكتب. أتذكّر بداياته البسيطة، يوم كان عدد دور النشر لا يتجاوز العشرين، واليوم صرنا نتحدث عن أكثر من خمسمائة دارٍ من مختلف أرجاء العالم. تلك المفارقة ليست مجرَّد أرقام؛ بل هي شاهد على رحلة نمو الثقافة في قطر، وعلى إيمانٍ عميق بأن الفكر والمعرفة هما أساس النهضة الحقيقية. ولا أنسى معرض الدوحة الثالث الذي حضرته في ديسمبر عام 1980، وكان تحت إشراف سعادة الشيخ محمد بن حمد آل ثاني، وزير التربية والتعليم آنذاك، بمشاركة عدد من المهتمين بالكتاب.

كانت دار الكتب القطرية، إلى جانب وزارة التربية والتعليم، تقومان بتنظيم الحدث بكل عناية واهتمام، وكأنهما تنسجان له روحًا خاصة. ظلّت علاقتي بالمعرض مستمرة، أزوره كل عام، وأقتني منه ما يغذّي هويتي الفكرية وقراءاتي المتنوعة. ومع تأسيس مكتبة التراث العربي والإسلامي - مكتبة الشيخ حسن - صار المعرض بالنسبة لي أكثر من مناسبة ثقافية؛ صار غايةً في ذاته، رحلة سنوية للبحث عن الجديد والمهم بين رفوف الكتب.

وفي أحد المعارض، كان من حسن حظنا أن زارنا شاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري، مدعوًّا لإلقاء أمسية شعرية خالدة ما يزال صداها عالقًا في الذاكرة. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح المعرض يستضيف كبار الشعراء والمفكِّرين من مختلف الأقطار العربية، ليقدّموا محاضرات وأمسيات فكرية وأدبية في أثناء

انعقاده، مما أضفى حيوية فريدة على هذا اللقاء الخالد مع الكلمة والفكر، وجعل من المعرض فضاءً حيًّا للحوار الثقافي والإبداعي. وبمناسبة مرور خمسةٍ وعشرين عامًا على انطلاق المعرض، كان لي شرف المشاركة في احتفاله الفضي مع كوكبة من العلماء والمفكِّرين، أذكر منهم الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، حيث قدّمت محاضرة عن تاريخ المكتبات في قطر ودورها في تحقيق ونشر كتب التراث الإسلامي. كانت تلك المحاضرة بالنسبة لي محطة مضيئة في مسيرتي مع الكلمة، ومناسبة أستعيد فيها جمال ما تراكم من خبرة وقراءة وتأمُّل. وكان من حظي - أيضًا - أن أشارك من داخل معرض الكتاب، لا بصفتي زائرًا أو محاضراً فقط؛ بل ناشراً أقف خلف الطاولة أقدّم للزوار ما ينتجه مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية من أعمال فكرية وعلمية كنت أعتز بها كل عام، وأفخر بما تمثّله من إضافة للمشهد الثقافي القطري والعربي.

كنت أشعر حينها أنني أشارك في صناعة المعرفة، وأنني جزء من هذا النبض الثقافي الذي يجمعنا حول الكتاب. وكنت أنتظر، دائمًا، زيارة صاحب السمو أمير البلاد – حفظه الله – مترقبًا مسار جولته بين الأجنحة، كمن ينتظر لقاءً مهيبًا، لأقول له في نفسي: «حفظكم الله ورعاكم كما ترعون هذا الملتقى الفكري النبيل.» أتذكر - أيضًا - معارض كثيرة رافقت مسيرة حياتي، منها المعرض الذي أُقيم في القسم الداخلي بالغرافة بوزارة التربية والتعليم، ومعارض متخصصة، مثل: معرض الكتاب الإسلامي، ومعرض الكتاب الخليجي، ومعرض الكتاب الفلسطيني، ومعرض الرياضة والشباب.

كانت جميعها تشكّل بالنسبة لي أهم حدث ثقافي تشهده البلاد، وكانت تعيد في داخلي الإيمان بأن الكلمة قادرة على أن تُنبت حياة. لقد تطوّر المعرض عامًا بعد عام، حتى غدا اليوم على مستوى عالمي رفيع، تتسابق دور النشر للمشاركة فيه، وتتطلع إليه العقول والقلوب.

ولعل أجمل ما فيه أنه يحظى برعاية سامية من الدولة، إذ يفتتحه صاحب السمو أمير البلاد أو من ينوب عنه، رئيس مجلس الوزراء أو وزير الثقافة، ليؤكِّد أن الثقافة ركنٌ من أركان النهضة، وأن الفكر جزءٌ من هويَّة الوطن.



◉ ندوة من النقش إلى الطباعة (الأستاذ الدكتور محمد حرب فرزات، ويديرها الأستاذ الدكتور مقبل التام 2025)

وكان من حظي - أيضًا - أن أشارك في الندوة الافتتاحية لمعرض الكتاب عام 2025، حيث قدّمت محاضرة عن تاريخ الطباعة وتطورها من النقش إلى الطباعة، فكان ذلك امتدادًا لعلاقة عمرٍ مع الكلمة، تتجدَّد في كل دورة كما يتجدَّد الحبر على الورق. هذه المعارض ليست مجرَّد فعاليات ثقافية؛ إنها مساحات للروح، نلتقي فيها نحن والكتاب، ويلتقي فيها الأبناء والبنات بثقافةٍ أوسع من حدودهم. فيها نحتفل بالعقل، ونجدّد حيوية الفكر، ونؤمن أن الحياة لا تزال ممكنة ما دمنا نقرأ. في هذا العمر، أرى الكتاب كما أرى الصديق القديم؛ لا يشيخ، وإن تهرّأت صفحاته. أفتحه فأجد نفسي فيه، طفلاً يندهش، وشابًا يحلم، ورجلاً يتأمَّل. معرض الكتاب بالنسبة لي ليس مكانًا تُباع فيه الكتب؛ بل موسمٌ للحياة، يعود كل عام ليذكّرني أن الكلمة هي المعنى الأجمل الذي تركه الله في الإنسان. ما دامت الكتب تُقرأ، وما دامت العقول تتجدَّد، فالحياة بخير....

متحف قطر الوطني



في سبعينيات القرن الماضي، كانت قطر تخطو خطواتها الأولى نحو النهضة، وكان الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني مؤمنًا بأن العمران وحده لا يكفي لبناء وطن، فلا بد من ذاكرة تحفظ الهويَّة وتوثّق التراث. من هنا وُلدت فكرة المتحف الوطني؛ بيتًا للذاكرة، ومرآة للهويَّة، ومكانًا يجمع الماضي ليقدّمه للأجيال.

اختير قصر الحكم القديم في منطقة اسلطة، بعد أن تُرك مهملاً لسنوات، فأُعيد بناؤه وتجهيزه ليكون أول متحف وطني. وأسندت مهمة جمع المقتنيات إلى لجنة وطنية برئاسة يوسف جاسم الدرويش، ومعه رجال حملوا الحلم على أكتافهم: ناصر العثمان، جاسم زيني، وآخرون.

كانت المهمة شاقة؛ جالوا القرى والبيوت، بحثوا عن صناديق قديمة، وسيوف، وأدوات غوص، وملابس، ومقتنيات بحرية. لم يكن إقناع الناس سهلاً؛ بعضهم تردد، وبعضهم طلب ثمنًا، وقلة، فقط، وهبت مقتنياتها عن طيب خاطر. ومن أبهى المواقف ما فعلته الشيخة مريم العطية حين أهدت المتحف قطعًا ثمينة بلا مقابل، وفي سميسمة وافقت عائلة الحايكي، بعد مفاوضات طويلة، على

بيع مقتنيات قديمة كانت حبيسة صناديق مغلقة. أما الأثر الأبرز فكان خاتم المؤسِّس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، الذي ظل محفوظًا في حرز عائلي لعقود، ثم سُلّم إلى سمو الشيخ خليفة ليستقر في المتحف شاهدًا على البدايات ورمزًا للتأسيس.

المتحف لم يكن مقتنيات فحسب؛ بل كان رجالاً أيضًا. وجوه لا تُنسى: سعيد البديد رجل مسن، أسمر البشرة، يحفظ تاريخ الغوص وأسرار العلاج الشعبي؛ والدكتور خالد بن يوسف الملا، رجل الإدارة الرصين الذي يدير بحكمة المتعلم ورفق الشباب؛ والأستاذ إبراهيم الجابر، أمين العملات الإسلامية والخلق الرفيع، الذي أصبح، لاحقًا، من أبرز الخبراء وصاحب مؤلفات قيّمة، وحلم بمتحف خاص للنقود، ومع الدكتور درويش الفار، منح هؤلاء للمتحف روحًا تتجاوز الجدران.

وللمتحف وجه بحثي كذلك؛ فقد أنشأ درويش الفار معشبة نباتية صغيرة تضم عينات من الفلورا القطرية، وبالتشجيع من أستاذي الدكتور كمال البتانوني أنشأتُ معشبة متواضعة مرتبطة بالمتحف. كنت مؤمنًا أن النبات ذاكرة حيّة، وأن حفظه حفظٌ لعلاقة الإنسان بأرضه وبيئته.



متحف قطر الوطني الجديد

ومضت العقود... حتى جاء عام 2019، حين أعاد المعماري العالمي جان نوفيل صياغة المتحف في صورة وردة صحراء عملاقة. ألواح رملية متشابكة بدت امتدادًا للصحراء نفسها... كأن الأرض أرادت أن تروي سيرتها بلغة الحجر. دخلت المتحف الجديد، فشعرت أنني أخطو في ممرات العمر؛ هنا قصر الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني يطل كأب حكيم يذكّرنا بالبدايات، وهناك إحدى عشرة قاعة كأنها صفحات كتاب مفتوح تروي تفاصيل الحياة: الغوص، الأسواق، التاريخ الشفوي، وصولاً إلى الدوحة الحديثة التي نهضت من بين الرمال. لم أكن مجرَّد زائر؛ بل شاهدًا يصغي إلى الوطن وهو يروي سيرته بنفسه.

وفي الزوايا الجديدة امتدت التجربة أبعد من القاعات: مطعم جيوان بإطلالته على الكورنيش، حيث الأطباق القطرية تجمع بين الأصالة واللمسة العصرية؛ مقهى وردة الصحراء ككهف مضاء بضوء الغروب؛ والمتاجر المصممة بروح الكهوف، والرمال كأنها تهمس أن الجمال الحقيقي يسكن في التفاصيل. لقد صار المتحف كتابًا مفتوحًا، مرآة لروح قطر، وبيتًا للذاكرة والحياة معًا.

عرفته أول مرة شابًا في بدايات العمر، وأعود إليه اليوم في سبعينيتي، فأراه صورة لقطر كلها: من قصر الحكم البسيط إلى وردة الصحراء العالمية، من صناديق وسيوف متواضعة إلى عروض رقمية مبهرة، ومن جهد رجال قلائل إلى رؤية ثقافية عالمية.

كلما دخلت قاعات المتحف الوطني، ورأيت ما اخترته بعيني ويدي، سمعت همسًا داخلي يقول: لقد وضعت من روحك هنا. لم تكن الخرائط مجرَّد خطوط على ورق، ولا كتب الرحّالة شهادات عابرة؛ بل كانت نبضًا يربط قطر بتاريخها، وصوتًا يؤكِّد أن لهذه الأرض حضورًا في ذاكرة العالم. اخترت ما يشبهني... خرائط تدرجت صورتها لقطر حتى اقتربت من ملامحها اليوم، ووثائق تنطق بما رآه العابرون على هذه الأرض، وكتبًا حملت حكايات من عرفوها وكتبوها للأجيال. وضعتها لا كخبير فقط؛ بل كعاشق يعرف أن للتاريخ روحًا، وأن للأوطان ذاكرة تُصان. وحين أقف أمامها اليوم، لا أرى إلَّا قطعة مني تضيء في قلب هذا المتحف العظيم، فأبتسم وأقول: لقد تركت أثرًا، لعل الأجيال القادمة تقرأه بعيون المحبة التي وضعتُها فيه. وأدركت أنني أنا - أيضًا - جزء من هذه

الحكايـة؛ كتبـت سـطورًا صـغيرة في ذاكـرة المتحـف، وهـا هـو يكتـب اليـوم فصولاً جديـدة في ذاكـرتي. لقـد صرنـا، أنـا والمتحف، رفيـقين في رحلـة العمر.

رحـم اللـه من أسسـوا وبنـوا، وبـارك في كل من جعل مـن المتحف بيتًا لذاكـرة الوطـن والإنسـان، وليبقـى شـاهدًا على أن الهويَّـة تُصـان حين تُـروى وتُحفـظ للأجيال.

لُول (مال لول)

منذ البدايات الأولى لتكوّن الوعي بالتراث في قطر، كان الشغف بالماضي حاضرًا في قلوب الناس قبل أن يكون في أروقة المتاحف. فحين بدأت فكرة متحف قطر الوطني في السبعينيات، كان الهدف أبعد من مجرَّد جمع الأشياء القديمة؛ كان رغبة في حفظ الذاكرة وتوريثها للأجيال. كان أهل قطر يجمعون ما يذكّرهم ببيوتهم الأولى، بسفن الغوص، بأدوات البحر، وبكل ما تبقّى من زمنٍ كان يعيش في التفاصيل البسيطة. تلك المبادرات الأولى، التي انطلقت بإخلاصٍ من أبناء البلد، شكّلت البذرة التي نمت منها حركة وعيٍ ثقافيٍّ شامل بالتراث المادي وغير المادي، وأيقظت الإحساس الجماعي بأن ما نملكه من ذاكرةٍ يستحق أن يُصان ويُروى.

وفي خريف عام 2012، كانت الدوحة تتزيَّن لاستقبال معرضٍ يشبه قصيدة حبٍّ طويلة وهادئة، عنوانها «مال لـوَّل» - أي من أيام زمان - لم يكن الحدث مجرَّد معرضٍ تُعرض فيه المقتنيات؛ بل كان عودةً جماعية إلى الذاكرة، ومصالحة بين الحاضر والماضي، بين من نَسُوا ومن تذكّروا.

في قاعة «الرواق» المجاورة لمتحف الفن الإسلامي، تناثرت القصص بين جامعي المقتنيات والفنَّانين التشكيليين؛ جاؤوا حاملين معهم ما تبقّى من الزمن الجميل: ساعةٌ منسية في صندوقٍ خشبي، خريطةٌ بلون الرمل، سيفٌ منقوشٌ بأسماء الرجال، وثوبٌ نسجته أيادي الجدّات.

كنت هناك، أتابع التفاصيل كما يتابع الأبُ أولَ خطى أبنائه. شاركتُ في تنظيم المعرض، وتولّيتُ الإشراف على معروضات الشيخ حمد بن عبد الله آل ثاني، التي كانت بحقٍّ متحفية بامتياز؛ مجموعة من المخطوطات النادرة التي تفوح منها رائحة الورق العتيق، وتتلألأ بزخارفها ورسومها الدقيقة، كأنها تنبض بتاريخ الفن والعلم معًا. وما أدهشني آنذاك - وربما منح تلك التجربة بعدها الإنساني العميق - أنني كنت محظوظًا بزيارة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني للمعرض. كنت واقفًا أمام واجهات العرض حين توقَّف سموه يتأمَّل المخطوطات، فوجدتني أشرح له ما تضمّه من روائع الفنون والعلوم،

بعضها في الفلك والطب، وبعضها منمنم ومزخرف مثل الشهنامات الفارسية. كان سموه يصغي بإمعان، يسأل ويبتسم، وكأننا نغوص معًا في عمق الزمن، نقرأ من جديد سطورًا كتبتها أيدي أجدادٍ عاشوا للحكمة والجمال.

ولقد جاء المشاركون بأملٍ يحدوهم أن تُقتنى بعض ما عرضوه لصالح الدولة، وأن يُكافَؤوا بما يُشجّعهم على الاستمرار في جمع التراث وصونه. كانوا يشعرون، وهم يرون مقتنياتهم معروضةً تحت أضواء القاعة، أن جهدهم لم يذهب سدى، وأن ما كانوا يحفظونه في بيوتهم بدأ يجد مكانه في ذاكرة الوطن. كانت الوجوه تلمع بالرضا، والقلوب تفيض بالفخر، كأن المعرض أعاد لكل واحدٍ منهم شيئًا من نفسه، شيئًا من قطر القديمة التي ما تزال تنبض في وجدان أهلها. في تلك الأيام أدركت أن «لوَّل» لم يكن معرضًا عابرًا؛ بل وعدًا صادقًا بين الدولة والناس: أن التراث حين يُكرَّم، يُكرِّم من حفظه، وأن الذاكرة حين تُعرض على الناس، تُصبح وطنًا آخر يسكن القلوب.

بعد عامين فقط من تلك اللحظة الأولى التي أشرقت فيها ذاكرة الوطن من وراء الزجاج، كبر «لوَّل»، صار اسمه يتردّد في المجالس، وفي أحاديث من جمعوا شيئًا من الماضي ليقدّموه هدية للحاضر. في ديسمبر 2014، انطلقت النسخة الثانية، لا في حدود قطر وحدها؛ بل بروح خليجيةٍ واسعة امتدت إلى البحرين والكويت والسعودية والإمارات وعُمان، وكأن الذاكرة التي بدأت محليّة قرّرت أن تتوحّد في فضاءٍ من الحنين المشترك. كنتُ أتابع هذا الامتداد بشغفٍ واعتزاز، أرى فيه ثمرة الجهد الأول، وصدق الفكرة التي آمنّا بها. لم يعد «مال لوَّل» معرضًا فحسب؛ بل منصة للتعارف بين الذاكرات، حيث تتقاطع القصص، وتتشابه التفاصيل رغم اختلاف الأمكنة. كان كل جامعٍ يأتي بمقتنياته كما يأتي الناس بصور طفولتهم؛ يضعها أمام الآخرين بعينٍ فخورةٍ ويدٍ ترتجف بالحنين.

في تلك النسخة، رأيت الأطفال يقتربون من أدوات الغوص، ونساءً يتهامسن أمام ثوبٍ قديم من حريرٍ مزخرف، وشيوخًا يبتسمون في صمتٍ وهم يرون سيوفهم القديمةً تلمع من جديد. أحسست يومها أن المعرض أعاد للناس علاقتهم بالتراث، وجعل من كل قطعةٍ تُعرض على الجمهور صفحةً في كتاب الهويَّة، ثم توالت النسخ، فكانت الثالثة منعطفًا جريئًا نحو الحاضر، حيث دخلت الذاكرة

الرقمية المشهد، وتحوّلت المعروضات إلى حوارٍ بين القديم والجديد - بين جهاز تسجيلٍ من السبعينيات وهاتفٍ ذكيٍّ يوثّق الحنين ذاته بلغةٍ أخرى. أما النسخة الرابعة في 2024، فقد بدت لي كأنها عودة الابن إلى البيت الأول. أقيمت في «ساحة النخيل» بمشيرب، قلب الدوحة النابض بالتاريخ والمعاصرة معًا. هناك، بين الضوء والظلال، رأيت شبابًا لم يعيشوا زمن اللؤلؤ والغوص؛ لكنهم وقفوا مبهورين أمام تلك القطع التي حفظت الذاكرة. كان في عيونهم الامتداد، وفي دهشتهم وعدٌ جديد. وأنا أتجول بينهم، شعرت كأن الزمن يدور دورته الكاملة؛ فما بدأناه قبل أكثر من عقدٍ من الزمان كمحاولة لتجميع الذاكرة المتناثرة، صار اليوم مشروعًا وطنيًا متجذرًا في الوعي العام. كل نسخةٍ من «لـوَّل» كانت فصلاً جديدًا في كتاب قطر الثقافي، وكل مشاركٍ فيه كان سطرًا ناصعًا في ذاكرة الوطن.

حين أعود بذاكرتي إلى الأيام الأولى من المعرض، أجدني كمن يفتح صندوقًا قديمًا يحتفظ بعبق الورق، وصدى الخطوات الأولى في قاعة الرواق. كانت تلك اللحظة - لحظة ولادة المعرض - أكثر من حدثٍ ثقافي، كانت بوابةً إلى الذات. لقد علّمني «لـوَّل» أن التراث ليس مجرَّد ماضٍ نحفظه في خزائن؛ بل حاضرٌ نحيا به. وأن المقتنيات حين تُعرض للناس، لا تُعرَّى من معناها؛ بل تُكسى بثوب جديد من الوعي والاعتزاز. لقد كان كل معرضٍ من معارض «لـوَّل» رحلةً إلى الذاكرة الوطنية، تُذكّرنا بأننا لا نملك الزمن؛ لكننا نستطيع أن نحفظ أثره، وأن نمنحه امتداده في الحاضر.

واليوم حين أتأمَّل تلك المسيرة التي رافقتُ فيها متاحف قطر في رحلة جمع التراث وحراسته، فأدرك أن أجمل ما أنجزناه لم يكن فقط المعارض والكتب والمقتنيات؛ بل إحياء العلاقة بين الإنسان وتاريخه؛ بين العين التي ترى، والقلب الذي يتذكر. فكل قطعةٍ رأيتها في «لـوَّل» - من سيفٍ عتيقٍ إلى مخطوطةٍ نادرة - كانت مرآةً صغيرةً تعكس وجه هذا الوطن، ببحره وصحرائه وناسه، وتقول لنا بهدوء:
«إن حفظ الذاكرة ليس عملاً ماضيًا... بل وعدٌ للمستقبل».

مسرح قطر الوطني



على كورنيش الدوحة، في وادي السيل وبالقرب من حديقة البدع حاليًا، يقف مسرح قطر الوطني كعلامة معمارية وثقافية فارقة. واجهته الأنيقة المتناغمة مع روح العمارة الإسلامية، وأروقته ذات الأقواس المطمئنة والتي تحيطه باحتضان صامت كأذرع حانية، وصفّ النخيل الذي يقف كحرسٍ ساهر على بهائه، كلها عناصر جعلت منه مكانًا يبعث الراحة في العين والطمأنينة في الروح. منذ افتتاحه عام 1982م كان واحدًا من أكثر المسارح تطورًا في المنطقة؛ فقد جاء ليفتح أفقًا جديدًا لمحبي المسرح في قطر، لا سيما وأنه زُوّد بأنظمة إضاءة وصوت وتكنولوجيا جديدة، ليواكب الطموح الثقافي لمدينةٍ كانت تتأهب لتكون عاصمةً للفكر والإبداع والثقافة. كان للمبنى وجهان: وجهٌ يطلّ على المدينة القديمة حتى البدع والجسرة يستعيد عبق وروح الماضي، ووجهٌ يفتح أفقه على البحر الممتدّ كأنه يحاور الموج ومراكب الغوص المبحرة إلى رزقها ولؤلؤها ونهامها. وعلى الجدار الشعار الذي يعلو واجهته في الجهة المطلة على وادي السيل. أما الشعار فهو عبارة عن تجريد لصقر يحلق في السماء، رمز يحاكي روح المسرح والسمو، وهو يعلو بفكره في سماء المكان، وكأنما يدعو العابرين إلى أن يرفعوا أبصارهم وقلوبهم معه. كنت أنظر إليه في ذهابي وإيابي، وأشعر أن بيني وبينه علاقة خاصة.

في الثمانينيات، كان أفق الدوحة البحري ساكنًا لا يقطعه إلاَّ معلمان بارزان: مسرح قطر الوطني وفندق شيراتون من الشمال الشرقي. وعلى امتداد الشاطئ ارتسمت ملامح المدينة بمبانيها الخالدة: وزارة الداخلية، البلدية، بنك قطر الوطني، وزارة الخارجية، ثم إلى الداخل حيث الديوان الأميري وقصر الدوحة، ومسجد الشيوخ وبرج الساعة؛ وسوق واقف ذلك الظهير العتيق. وجميعهم يرسم للقادم من البحر لوحة واحدة تشكّل وجه الدوحة في بدايات نهضتها. غير أنّ المسرح لم يكن حجرًا وكراس وثيرة فحسب؛ بل كان قلبًا نابضًا بالحياة. ارتبط اسمه بأهمّ الفعاليات المسرحية في المنطقة، من احتفالات المسرح العربي إلى المسرح الخليجي. كانت الفرق تأتي من كل أرجاء الخليج، ومعها النقاد والمسرحيون من مختلف البلدان العربية. ليشهدوا تظاهرة فنية مسرحية ثانوية في يوم المسرح العالمي، لقد قُدّمت على خشبته أعمالٌ تتنوّع بين التجريبي والكلاسيكي والهزلي الفكاهي، تليها حواراتٌ نقدية صريحة ومعاييرُ فنية عالية، فتمسي الليالي أعيادًا للذائقة والمعنى. وكان الجمهور جزءًا من هذا السحر؛ تمتلئ القاعة قبل الموعد، تعلو الهمسات وتخفت الأضواء، ثم يسود صمتٌ مهيب مع رفع الستار. يتنفس الجمهور مع الممثلين، يضحك حين يضحكون، ويبكي حين يبلغ الأداء شغاف القلوب. وعند نهاية العرض، تبدأ الأحاديث الجانبية الدافئة وهكذا كنّا لا نحضر للمشاهدة فحسب؛ بل للمشاركة - أيضًا - بالثرثرة، فكنّا نخرج من الفعالية وكل منّا في يده أسئلةٌ جديدةٌ وحواراتٌ لا تنتهي.

كنتُ أحرص أن أصطحب زوجتي وأبنائي إلى حفلات الموسيقى العربية التي كانت تأتي من القاهرة، تحمل إلينا بأجوائها الدافئة رسائل من الوطن. ما زلتُ أذكر فرقة أم كلثوم بقيادة حسين جنيد، وفرقة الموسيقى العربية، الخماسي الموسيقي الرائع «خماسي شرارة» الذي ملأ القاعة بأوتارٍ صافية؛ كانت المعزوفات كأنها نسمات باردة تصلنا من النيل مباشرة. كان المسرح مصيدة للمثقفين، فلا يذهب إليه إلاَّ من يطلب الفن الراقي والفكر الهادف، وكان الحضور فيه بمثابة شهادة انتماء لعالم الثقافة. وكانت التذاكر تصلنا، غالبًا، مجانًا، حتى لو كانت تباع في الأكشاك، فقد كنّا نرتبط ببعض العاملين في المسرح الذين كانوا يحرصون ألا ينسونا في تلك الحفلات الخالدة. وأحيانًا كنّا نشتري التذكرة، كنت أفعل ذلك وأنا أشعر أنني أفي للمكان دينه.

في هـذا المسرح شـاهدت مسرحيـة «ريـا وسـكينة» كيـف غـدت حدثًـا حديـث المدينـة؛ ازدحمـت المقاعـد في الداخـل، وتجمّـع النـاس في الخـارج لمشـاهدة كبـار الممثلين الذيـن قدمـوا إلى الدوحـة، وتألقـت شـادية وسـهير البـابلي وعبدالمنعـم مدبـولي. وعلى الخشـبة نفسـها وقـف مطربـون ومطربـات كبـار، غنّـوا وأطربـوا وأجزلـوا العطـاء، فصـار المسرح جسرًا بين الدوحـة والعواصـم العربيـة. أمـا أهـم مـا كنـت أحـرص عليـه، فـكان حضـور المحـاضرات العامـة التي يُدعـى إليهـا كبار المفكّريـن العـرب. أذكـر أننـي جلسـتُ هنـا لأسـتمع إلى الدكتـور فـؤاد زكريـا وهـو يقـدم لنـا محاضرتـه الشـهيرة عـن أزمـة العقـل العربي؛ محـاضرة أسرتنـي طويلاً، وجعلتنـي أخـرج مثقلاً بأسـئلة كبرى عن الواقع والمسـتقبل. هكـذا كان المسرح، ليس مكانًـا للمتعـة فحسـب؛ بل مسـاحةً للتفكير، وللصـدام الجميل مع الأفـكار الجديدة.

وكانـت لي لحظـة خاصـة لم تغـادرني: يـوم انتقلـتُ مـن مقعـد المتفـرجين إلى خشـبة المسرح نفسـه، لا ممـثلاً؛ بـل محـاضًرا. في احتفـالات قطر باليـوم الوطني، وقفـتُ لأعـرض جانبًـا مـن تاريـخ قطر يتعلق بالشـيخ جاسـم بـن محمد بـن ثاني، مؤسِّـس الدولـة الحديثـة. شـعرتُ حينهـا أننـي صرت جـزءًا مـن هـذا المسرح الذي رافقنـي لسـنوات؛ كأننـي كنـت في تلـك اللحظـة نجـم الحفـل، أو بطل روايـة طالما شـاهدت فصولهـا من المقاعـد الأولى.

واليـوم، وبعـد أكثر مـن أربعـة عقـود على افتتاحـه، يظـلّ مسرح قطـر الوطنـي شـاهدًا على زمـنٍ انتظرنـا فيـه العـروض عامًـا بعـد عـام بشـغف المحـبّ، ومختبرًا للفـنّ حيـث تتجـاور التجربـة مـع الكلاسـيك، والضـوء مـع المعنـى، والجمهـور مـع الخشـبة. وكلما مـررت بـه ورأيـت صقـره المحلّـق فـوق البوابـة شـعرت أنـه لا يزين المبنـى فحسـب؛ بـل يرفـع المسرح إلى مقـام الحريـة، يدعـو أرواحنـا أن تحلّـق معه فـوق ضجيـج الحيـاة اليوميـة. وكأنمـا يقـول لنـا: مـا دام المسرح هنـا، فثمـة أفـق أوسـع وأبعـد يمكننـا أن نبلغـه، وثمـة كلمة صادقة تسـتحق أن تُقال. المسرح بالنسـبة لي لم يعـد مقاعـد وواجهـة وصالـة عـرض؛ بـل صـار فضـاءً للـطيران، يذكّرني في كل مـرة أن الفـن حين يكـون صادقًـا يمنحنا جناحي صقر، وأن الفكر حين يشـتعل يضيء لنـا سماءً أبعـد وأوسـع.

أمـا تجربـة المسرح في قطـر فيمكـن النظـر إليهـا باعتبارهـا مـرآة لتحـولات

المجتمع ذاته؛ فلم يأتِ المسرح كفنّ معزول، ولا كزخرف مستورد؛ بل وُلد من رحم حركة إصلاحية وتعليمية أعادت تشكيل وعي الناس وأفقهم الثقافي في خمسينيات القرن الماضي. كانت الفنون الشعبية بأهازيجها وإيقاعاتها الجماعية بمثابة الجذر العميق، الذي منح المسرح غذاءه الأول وأهّله؛ ليكون قريبًا من الذائقة الشعبية ومتفاعلاً مع الروح المحلية.

وحين احتضنت الأندية الثقافية والاجتماعية هذا الفن الوليد، لم تكن تسعى فقط للترفيه؛ بل كانت تبحث عن لغة جديدة للتعبير، عن مساحة تتيح للشباب أن يواجهوا أسئلة التغيير والانفتاح، وأن يعكسوا هموم مجتمع صغير يتطلع إلى أن يجد مكانه في العالم الحديث.

من تلك البدايات التي قد تبدو متواضعة اليوم، انطلق المسرح ليغدو أحد ملامح المشهد الثقافي في البلاد، شاهدًا على مسيرة انتقال من البساطة الشعبية إلى وعي ثقافي متنام. وربما تكمن قيمة المسرح القطري لا في عدد العروض أو شهرة الأعمال وحدهًا؛ بل في رمزيته كجسر بين تراث حيّ متجذّر، وحاضر يسعى إلى التجديد والتحديث.

هكذا يصبح المسرح في قطر ليس مجرَّد فن أدائي؛ بل فضاءً للتأمُّل في الذات الجماعية، في جدلها بين الماضي والحاضر، وفي بحثها الدائم عن صيغة توازن بين الأصالة والمعاصرة.

شيراتون الدوحة؛ سيد الفنادق



لقد كان من حظي أن جئتُ إلى قطر في العام نفسه الذي شهد ميلاد فندق الشيراتون، عام 1979، يوم ارتفع هرمه المهيب على شاطئ الخليج كتحفة معمارية فريدة، ليصبح، منذ ذلك الحين، أحد أبرز معالم الدوحة. ووُصف عند افتتاحه بأنه «عالم من الفخامة العربية والأجواء السحرية». ومنذ لحظة دخولي إليه للمرة الأولى، شعرت أنني أمام عالم مختلف: الردهات المبهرة، والموسيقى الناعمة التي تنساب في أرجائه كأنها همس بعيد، وصوت خرير النوافير يختلط بخطوات النزلاء فتتشكَّل سيمفونية من الهدوء والوقار. وكانت للمكان روائح

خاصة تعبق الأجواء؛ مزيج من رائحة الهيل والورد البلدي والقهوة التركي، تتخللها نسمات خفيفة من العود والبخور الهادئ. كان هذا المزيج الحسي يخلق حالة من الدفء والسكينة، وكأنك تعبر من صخب الحياة إلى حضن ضيافة رحب.

وعندما ترفع رأسك في صحن الفندق، يطل عليك الشكل الهرمي المهيب من الداخل، وتتعانق عيناك مع خضرة تتدلى من شرفات الطوابق كأنها شلالات من نبات حيّ. كان المشهد يمنحنا شعورًا بأننا في حديقة معلّقة في قلب المدينة، مكان يجمع بين الراحة والدهشة في آن واحد. هذا التصميم الفريد جعل الشيراتون بالنسبة لنا أكثر من مجرَّد فندق؛ كان بيتًا للدهشة والبهجة. وعندما سافرت، لاحقًا، إلى دول أخرى، ونزلت في فنادق تحمل اسم الشيراتون، كنت أتوقع أن أجد نفس الإحساس؛ لكن ظل شيراتون الدوحة في وجداني هو الأصل، كأنه الفندق الذي وضع المعيار لكل ما تلاه.

أجمل ما كنّا ننتظره هو غداء الجمعة الأول من كل شهر. كان يومًا عائليًا بامتياز؛ نفرح به نحن الكبار قبل الصغار. الأطفال يمرحون ويلعبون، ونحن نتواعد مع بعض الأسر المصرية لنقضي يومًا حول مائدة الشيراتون. كان البوفيه المفتوح يفيض بروائح الأطباق الساخنة، رائحة الشواء تمتزج بنكهة الخبز الطازج، وتصلنا من بعيد رائحة القرفة والهيل من ركن الحلويات. أما أصوات أدوات المائدة والضحكات المتناثرة، فقد كانت تصنع موسيقى خاصة لذلك اليوم. كان الفرد يدفع مبلغًا يستطيعه، لا سيما وأن الأطفال كانوا يدفعون نصف ما يدفعه الكبار، مما جعلها فرصة مثالية للعائلات. لم يكن الأمر مجرَّد طعام؛ بل كان رحلة صغيرة إلى أجواء أشبه بالأجواء الأوروبية، وكأننا نسافر دون أن نغادر الدوحة.

وكانت من عادة جامعة قطر أن توفر سكنًا لأعضاء هيئة التدريس الجدد في الشيراتون لفترة تمتد إلى نحو أربعين يومًا، ريثما تجهّز لهم الجامعة مساكنهم المؤسَّسية. كانت تلك الفترة بمثابة استقبال رسمي كريم، إذ كان الفندق يقدّم لهم المقام والطعام وكامل العناية، فيتهيأ عضو هيئة التدريس الجديد لحياته وعطائه قبل أن تلتحق به أسرته. ورغم أن الزملاء كانوا يتطلعون إلى الاستقرار

في مساكنهم الدائمة، إلاَّ أن ذكرياتهم في الشيراتون كانت تبقى عالقة في أذهانهم، كأنه البيت الأول لهم في قطر، والمكان الذي يستقبل كل قادم جديد. هناك التقيت شخصيات مهمة من أساتذتي وزملائي، سواء الذين مرّوا بالدوحة مرورًا أو حضروا مؤتمرات وأمسيات، فكنّا نلتقي بهم في الشيراتون وننطلق معهم لزيارة أماكن متفرقة من قطر. كان الفندق أشبه ببوابة دخول إلى المجتمع الأكاديمي والثقافي في الدوحة.

كثيرًا ما كنت أرافق الزملاء إلى هناك حين يأتون من القاهرة للمشاركة في المؤتمرات أو لإلقاء المحاضرات، ثم أعود لزيارتهم بين حين وآخر. وكان بعض أعضاء هيئة التدريس يقيمون في الفندق لفترات طويلة، نحسدهم على ذلك؛ لكنهم كانوا يذكّروننا أن دفء البيوت لا يعوّضه أي فندق مهما كان فاخرًا. ومن أجمل ما أذكره أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز مطر كان يقيم إقامة دائمة في الشيراتون. كان يحدد مواعيد لقاء الأصدقاء في مقهى الفندق القريب من المصعد. كنّا نجلس هناك، ورائحة البن الطازج تملأ المكان، وأزيز ماكينة القهوة يضيف إيقاعًا دافئًا إلى الجلسة. كان لفنجان القهوة في الشيراتون مذاق خاص، كأنه يشاركنا الأحاديث والذكريات. ذات يوم انتظرته طويلاً، فانشغلت بكتابة قصة قصيرة في أثناء احتسائي القهوة، وكانت من القصص المميَّزة التي أعتز بها.

الشيراتون لم يكن مجرَّد فندق؛ كان مركزًا للفعاليات في الدوحة. مؤتمرات، معارض، حفلات أعراس... كلها كانت تملأ المكان بالحركة والبهجة. وعندما كنت مدعوًا لحفل زفاف هناك، كان فرحي مضاعفًا، كأنني ذاهب إلى احتفال في قصر أنيق. وتحول الشيراتون عبر الثمانينيات والتسعينيات إلى ما يشبه مجلس قطر؛ المكان الذي يستقبل ضيوفها في أجمل حلّة ويقدّم لهم أكرم مائدة. ولا أنسى طبق «أم علي» الشهير الذي اشتهر به مطعم الفندق، وكان سّر تميّزه الشيف الذي يتفنّن في إعداده.

وزرت، لاحقًا، شيراتون دبي، وكان من الخارج شبيهًا بشيراتون الدوحة؛ لكن عندما دخلته لم أشعر أنه يحمل نفس الطاقات الإيجابية، وكأن روح الدوحة هي التي كانت تبث الحياة في شيراتونها، وتجعله مختلفًا عن كل فنادق المنطقة.

وعلى الرغم من أنني زرت معظم دول الخليج؛ بل زرتها جميعها، ودخلت فنادق خمسة نجوم، إلاَّ أنني لم أشعر بنفس الأجواء التي كنت أحسها في شيراتون الدوحة. كان أشبه ببيتنا، نعرفه جيدًا ونعرف العاملين فيه الذين كانوا يستقبلوننا بابتسامة طيبة.

ومؤخرًا دعتنا دار الوثائق القطرية للقاء ضم باحثون، ومؤرِّخون، وأمناء أرشيف، جاءوا من الخليج ومن الوطن العربي. وبينهم زملاء وأصدقاء من مصر، التقينا بعد طول غياب، وتفتحت الذاكرة على مصراعيها.

وعلى الرغم من أنني لم أكن على جدول الكلمات، ولم أتأهب للحديث، كنت حاضًرا للاستماع فقط... لكن فجأة، وجدت الدكتور أحمد عبدالله البوعينين، الأمين العام لدار الوثائق، يدعوني للصعود إلى المنصة. دعوة مباغتة... لم أتهيّأ لها، ولكنها جاءت على سبيل التكريم، فتقدمت بخطى السبعيني الذي عاش عمرًا بين الكتب والوثائق، وتحدثت... تحدثت كما يتحدث القلب حين تسبقه الأوراق.

رحت أحكي عن تجربتنا في المركز، عن محاولاتنا لجمع التراث القطري، عن الوثائق البريطانية، عن الترجمة، عن حفظ الذاكرة قبل أن تُبددها الأيام.

كانت لحظة مختلفة... ليست ككل المداخلات المعدّة سلفًا؛ بل لحظة فاضت فيها الذاكرة، وانسكب فيها الصدق، فوق منصة لطالما جلست أمامها منصتًا، لا متحدثًا. تغيّر المشهد، وصرت أنا من يطلّ من الضوء على الوجوه، لا من يختبئ خلف الصفوف الخلفية.

عندها أدركت... أن خدمة التاريخ ليست فقط في الأوراق التي نراجعها، ولا في الوثائق التي نُرممها؛ بل في تلك اللحظة التي تقول فيها كلمتك، لأنها خرجت من تجربة لا تُكتب؛ بل تُعاش. وهكذا، امتدّ بين الكلمة العفوية على مسرح الشيراتون، والمحاضرة المعدّة في دار الوثائق، خيط خفيّ من المعنى... خيط يشبه حياتنا حين تندمج فيها صدفة القلب بعقل المؤسَّسة: حب للتاريخ... ووفاء للذاكرة.

اليوم، بعد أن امتلأت الدوحة بسلسلة فنادق فاخرة وحديثة، صار الشيراتون

واحـدًا مـن معـالم الزمـن الجميل. كلما مررت بجانبه، شـعرت كأننـي أمرّ على جزء مـن حيـاتي، على مسرح صـغير عشـت فيـه لحظات من الفـرح والدهشـة. لقد كان ولا يـزال أجمـل فنـادق الخليـج، وتحـول إلى أيقونـة قطرية بشـكله الهرمي الضخم الـذي يملؤنـا في كل مـرة بالرهبـة والبهجـة. يظل شيراتـون الدوحة رمـزًا للرفاهية والمحبـة والأمـان، ويبقـى في ذاكرتي أبو الفنادق، نافذتنا الأولى على العالم. شـكرًا لـك يا شيراتـون الدوحة.

النادي العلمي والمنتدى العلمي

لم تكن جامعة قطر منعزلة عن المجتمع؛ بل كانت تمدّ أذرعها إلى مختلف المؤسَّسات لتدعم كل ما هو علمي، ولتكون إلى جانب كونها منارة للعلم، بيت خبرة يقدم الاستشارات والأبحاث والدراسات التي تفيد تلك المؤسَّسات. ومن أبرز صور هذا التعاون، علاقتها الوثيقة بوزارة التربية والتعليم، التي كانت على أرفع درجات التنسيق.

فقد طلبت الوزارة من الجامعة، ومن كلية العلوم التي كنتُ أنتمي إليها، أن تمدها بخبرات علمية تطبيقية من متخصصين وأكاديميين وفنيين، ينقلون معارفهم المعملية والتجريبية إلى طلاب المدارس، وذلك في إطار نشاط النادي العلمي التابع للوزارة. وكان النادي العلمي، الذي تأسس في 1987م، في ذلك الوقت، من أبرز الأنشطة الحرة التي اهتمت بها الوزارة، ليكون حاضنة للمواهب، وميدانًا لنقل الخبرات إليها، لتبدع في مجالات متعدِّدة: العلوم البيولوجية، الإلكترونيات، الكهرباء، الفضاء، الجيولوجيا، وغيرها من الفروع التي تستجيب لميول الطلاب واتجاهاتهم.

وقد جاءني ترشيح من رئيس الجامعة لكي أتولى مسؤولية جانب العلوم البيولوجية، وبخاصة النباتات البرية. فقد سبق أن شاركتُ أستاذي -يرحمه الله- كمال الدين حسن البتانوني في مسح النباتات البرية المنتشرة في أرجاء قطر، من خلال رحلات علمية استكشافية كنّا نجمع فيها العينات، ونقوم بتسميتها وتجفيفها وتصنيفها، ومنحها بطاقات تعريفية. وكان تجهيز هذه العينات وحفظها يتطلب تقنيات دقيقة وخبرات خاصة.



◉ من رحلات النادي العلمي

في تلك الفترة، وجدتُ في إدارة النادي العلمي القطري بقيادة الأستاذ علي فرج الأنصاري – الذي كان، في الأصل، معلمًا للعلوم، واختير ليكون مشرفًا عامًا على هذا النشاط – دعمًا وسندًا مهمًا. وكان معه - أيضًا - الأستاذ حسام الدين مصطفى، وهو أحد المعلمين المصريين الرواد الذين جاؤوا إلى قطر في الستينيات، بينما لحقنا نحن بهم في نهاية السبعينيات. وقد كان النادي العلمي نافذة رحبة أتاحت لنا فرصة اللقاء بالطلاب وتنمية قدراتهم. وكانت الوزارة تمنحنا مكافآت رمزية على جهودنا، مما جعلنا نتسابق للمشاركة ليس فقط بدافع الحاجة المادية؛ بل - أيضًا - بدافع الحماسة للعمل والإنجاز.

ساعدني في هذه التجربة أنني كنتُ من روّاد نوادي علوم الأهرام في مصر، التي كان يقودها الصحفي الكبير صلاح جلال، وكان يصدر مجلة (الشباب وعلوم المستقبل). ومن ثم، حين التحقت بالنادي العلمي في قطر، وجدت نفسي أضع خبراتي في خدمة الطلاب: أنقل إليهم الوعي العلمي والقدرة الاستكشافية، وأعرّفهم بعمليات حفظ النباتات من الناحية الجمالية والعلمية، وأدربهم على معرفة الفصائل النباتية والأنواع المختلفة. وقد استطعنا أن نزرع في نفوس الطلاب وعيًا جديدًا، وأعدنا إليهم إدراكًا مختلفًا في تعاملهم مع النباتات باعتبارها كائنات حيّة تشاركنا الحياة.

وكانت هذه الفترة مثمرة بحق، إذ فتحت أمامنا آفاقًا واسعة للتعارف مع مدرّسي العلوم، ومشرفي الأنشطة، وموجهي العلوم. وأذكر هنا الأستاذ توفيق القيسي - يرحمه الله -، الذي كان رجلاً نشيطًا للغاية، يتحلّى بأخلاق عالية، ويطرح علينا الأفكار التربوية التي كانت تتناسب مع المناهج العلمية آنذاك. كما أذكر الأستاذ نائل الأغا - يرحمه الله - وكان مدرِّسًا للعلوم من أصل فلسطيني، درس في القاهرة بجامعة عين شمس، وقد فتح بيني وبينه حوارًا شيقًا عن ذكرياته في مصر، فكان ذلك بمثابة جسر ثقافي وإنساني بيننا.

ومن التجارب التي أعتز بها - أيضًا - مشاركتي في دعم إنشاء متحف العلوم بمدرسة الاستقلال الثانوية، التي كانت من أبرز المدارس في إبراز مواهب الطلاب العلمية. وقد تداخلت أنشطة النادي العلمي مع أنشطة كشفية قادها الدكتور محمد عبد الله الأنصاري الذي كان يشغل منصب وكيل مساعد في وزارة التربية والتعليم، وكان تربويًا من طراز فريد، ذا همة عالية، وداعمًا لهذه الأنشطة، وراعيًا لها.



◉ تجمع فريق الكشافة في مدارس الدوحة – استعدادًا للانطلاق (الستينيات)، أرشيف مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية



◉ مخيم الكشافة في قطر

كما أتذكر تعاوننا مع بعض الإخوة من الأردن، وكان بينهم رجل كريم أظن اسمه عبدالوهاب المصري، الذي كان يمثل الجانب الكشفي في النشاط، وارتبط معنا بأنشطة المخيم الكشفي في طريق دخان. كنّا نصحب الطلاب في جولات بيئية مفتوحة، وقد أعددت لهم دليلاً للكشّاف للتعرّف على عناصر البيئة ومقومات النظام البيئي. وكان الطلاب يقبلون على هذه الأنشطة بشغف كبير، لا سيما بعض أبناء البادية الذين كانوا يدهشونني بمعرفتهم بمسميات النباتات المحلية. كنت أشعر بسعادة غامرة حين أكتشف أن طالبًا في المرحلة الإعدادية أو الثانوية يعرف نباتًا بعينه؛ بل يروي كيف كان جدّه أو جدّته يستخدمانه في العلاج الشعبي. لقد أضاف ذلك بُعدًا وجدانيًا ومعرفيًا عميقًا لهذه التجربة، إذ لم يكن النشاط مجرَّد تعليم علمي؛ بل كان بعثًا لذاكرة المكان، وربطًا بين العلم الحديث والتراث الشعبي.

ولقد أخذني الحماس إلى أبعد من ذلك، فدفعتني التجربة إلى أن أوثّق لتاريخ

حركة أندية العلوم في قطر. فكتبت مقالين متتاليين في مجلة التربية التي كانت تصدرها اللجنة الدائمة للعلوم والتنمية التابعة لوزارة التربية والتعليم. وقد لاقت تلك المقالات إعجابًا كبيرًا، لأنها وضعت أساسًا فكريًا وتأصيليًا لهذا النوع من النشاط العلمي في المدارس، وربطته بالحركة العلمية العربية والإقليمية، وأظهرت قيمته التربوية في تنمية العقول وبناء المهارات.

ورُويدًا رُويدًا بدأ النادي العلمي القطري يأخذ مكانة إقليمية مرموقة، فاقترحتُ على المهندس محمد السيد، وكان رئيس مجلس إدارة النادي آنذاك، إصدار مجلة علمية تحمل اسم النادي، لتكون لسان حاله ومنبرًا لأخباره، وتستكتب العلماء والمفكِّرين في قضايا العلوم الأساسية والعلوم التطبيقية. وقد توليتُ تحرير المجلة كاملة، فكانت مجلة المنتدى العلمي، التي صدر منها نحو ستة أعداد متتالية.

ومن خلال صفحات هذه المجلة، سنحت لي فرصة ثمينة للقاء عدد من العلماء البارزين، كان بعضهم قد نال جائزة نوبل بالفعل، وبعضهم الآخر حازها بعد اللقاء بسنوات. فقد التقيت بالعالم البريطاني جون كيندرو، الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1962، عن أبحاثه في البنية الجزيئية للبروتينات باستخدام حيود الأشعة السينية. كان قد كشف التركيب الذري لبروتين myoglobin، فاتحًا بابًا واسعًا لفهم وظائف البروتينات في الكائن الحي على المستوى الجزيئي.

حين جلست أمامه، لم يكن مجرَّد عالم نوبل فحسب؛ بل رجل غيّر فهمنا لبنية البروتينات، وكأنني أمام من جسّد العلم في أرقى صوره، رابطًا الذرة بالحياة.

كما التقيت بالدكتور أحمد زويل، يرحمه الله، حين كان في قمة مسيرته الأكاديمية في الولايات المتحدة، وقد كان، آنذاك، مرشحًا بارزًا لنيل جائزة نوبل، التي حصل عليها، لاحقًا، عام 1999م عن أبحاثه في الفيمتوثانية. لقد ابتكر أسلوبًا باستخدام أشعة الليزر فوق السريعة لرصد التفاعلات الكيميائية في زمن الفيمتوثانية، أي في جزء من مليون مليار جزء من الثانية، كاشفًا عن اللحظات الفاصلة حين تتكون الروابط الكيميائية أو تنكسر.

كان حديثه عن الزمن الذي لا يُرى إلَّا بالليزر، وعن تلك اللحظة الخاطفة بين الذرات، حديثًا أشبه بالبوح بمستقبلٍ سيأتي لا محالة. شعرت أنه لا يتحدث عن العلم باعتباره مادة؛ بل باعتباره حياة تتجاوز الزمن.

كما أجريت حوارًا مع الدكتور فرج موسى، رئيس اتحاد نوادي العلوم العالمية، تناول فيه تأصيل فكرة أندية العلوم، وأهدافها، وأهمية أنشطتها في ترسيخ الوعي العلمي بين الشباب وربطهم بالابتكار. وكان لذلك الحوار قيمة خاصة، لأنه وضع النادي العلمي القطري في قلب الحركة العلمية العالمية.

في هذه الفترة زارنا الدكتور فرج موسى، رئيس الاتحاد الدولي لجمعيات المخترعين (أفيا)، وموقعها جنيف، والدكتور فرج مصري مهاجر منذ زمن طويل، وأجريت معه حوارًا نشر، آنذاك، في مجلة «المنتدى العلمي» التي أصدرها النادي عام 1993م، وكنت أعمل سكرتير تحريرها والمحرر الوحيد الذي يقوم عليها من جمع المادة وتحريرها، وعمل اللقاءات، إلى المشاركة في عمل ماكيت تجهيزها للطباعة، ثم الإشراف على طباعتها في المطبعة، ولقد بدأت كنشرة شهرية ثم تطورت إلى مجلة علمية ربع سنوية، ولقد نوه بها الأستاذ صلاح جلال في الأهرام، حال صدورها، باعتبارها أول مجلة علمية ثقافية تصدر في قطر، واستطاعت المجلة أن تجتذب العديد من الكتاب من ذوي المكانة العلمية، فقد كنت أحرص على دعوة أساتذة جامعة قطر من هيئة التدريس في كلية العلوم أو المراكز العلمية للكتابة فيها، كما كنت لا أفوت الفرصة في إجراء لقاءات مع العلماء الذين يزورون الجامعة لكي أنقل تجربتهم للمجتمع، فكان طموحي أن أسس لإعلام علمي يلقى تقديرًا من المجتمع، فقمت بعمل لقاءات مع عدد من كبار العلماء، أمثال البروفيسور فاروق الباز، والبروفيسور مصطفى السيد وغيرهم.

أما عن لقائي مع العالم جون كندرو الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء 1962م، فقد كان لقاءً تاريخيًا، فهذه هي المرة الأولى التي يتاح لي أن أجري فيها حوارًا مع عالم كبير حائز على جائزة نوبل، أو أن أجلس إليه، وكنت أظن أن هذا ليس بمستطاع، لذلك استعنت بأخي الدكتور أسامة هنداوي، أن يكون رفيقي في هذا اللقاء، لا سيما وأنه حاصل على درجة الدكتوراة من إنجلترا، ويعرف كيف يفكر العلماء البريطانيون.



◉ مع العالم جون كيندرو في أثناء زيارته لجامعة قطر، عام 1994م

بكل صدق ودقة يقول: «لقد حصلت على الجائزة لأنني محظوظ». هكذا بكل بساطة يرجع حصوله على الجائزة لعوامل لم يسعَ هو إليها، ولم يفعل المستحيل أو يدّعي ذلك. أنه يقول باختصار شديد: «لقد وُجِدت في المكان والزمان الملائَمين لذلك.»، شيء رائع أن يكون العالم متواضعًا إلى هذا الحد، ترى هل هذا هو تواضع العلماء؟.

أضاف: «لقد كان الحظ حليفي فعلاً عندما دفع إليَّ زملاء أمثال فرانسيس كريك - وهو عالم بيولوجي فيزيائي نال عام 1953م جائز نوبل في الفيسولوجيا والطب- الذي كان يبحث، في ذلك الوقت، في خواص المادة عن درجة الحرارة المرتفعة. وأذكر أنه استطاع أن يصمم جهازًا خاصًا لذلك؛ لكنه دُمِّر في أثناء الحرب العالمية الثانية؛ مما دفعه إلى أن يهجر هذا الموضوع، ويتجه إلى دراسة خواص البرتوبلازم؛ لأن فرانسيس كريك استطاع أن يساهم ببحوثه القيمة في تحديد المادة المسؤولة عن التحكم الوراثي ووظائف الحياة (DNA)، وبالطبع كان هذا الاكتشاف من أهم الاكتشافات البيولوجية في القرن العشرين.

وبالطبع كان هذا من حسن حظي كما سبق أن قلت لك. المهم أنني عملت مع هذا الفريق الذي كان يتكامل، ولا يحجب أي منّا عن الآخر خبرته. فقد كان

معنا - أيضًا - عالم الكيمياء السويسري «مكس بروتس» الذي جاء إلى كمبردج للالتحاق بأحد المعامل، فلم يجد له مكانًا، فاضطر للالتحاق بالمعمل الذي كنت أعمل فيه. وتعاونا - أيضًا - وفي نفس الوقت، كان زميل لنا يُدعى «أسبري» وهو أمريكي، وقد جاء للالتحاق ببحوث استعمالات أشعة أكس، وكانت لوجوده معنا أهمية خاصة، فقد استفدت أنا شخصيًا من خبرته وتعاونه معي في مجالات الكشف عن جزء «الميموجلوبين»، أما عالم البيولوجي الوحيد الذي كان معنا فهو العالم الأمريكي «جون واطسون - WATSON» صاحب اكتشافات تركيب (DNA) والذي حاز مع زميله «كريك - CRICK» على جائزة نوبل لقاء ما قام به من فك شيفرة بنية الحمض النووي، ولك أن تتخيَّل هذا المناخ من العمل. على الرغم من قلة الإمكانات المتاحة - آنذاك - لكننا كنّا نثابر في العمل، فقد عملنا مثلاً لعشر سنين دون أن نتوصل إلى نتائج مشجعة، ولم نتوصل إلى نتائج مشجعة، ولم نتوقف عن البحث، لأننا لا يجب أن نتوقف مهما كانت النتائج. فكنا نقوم بتصميم الأجهزة التي تفيدنا في القياسات، ونصنعها في الورشة الملحقة بالعمل، فمعظم أجهزة المعمل كانت من تصميم وتنفيذ من يعملون في المعمل مع دعم تقني من زملائنا الفيزيائيين والمهندسين، غير الحال الذي هو الآن من أجهزة متقدمة جدًا متاحة لكل باحث؛ لكنني أعترف بأن الحظ حالفني جدًا عندما قام قسم الرياضيات بتركيب جهاز كمبيوتر (أتساك - مارك - 1) وكان جهازًا ضخمًا للغاية، وسعته أقل كثيرًا من أجهزة الكمبيوتر المتوفرة الآن، أقول محظوظ؛ لأني لو لم أقم بالحسابات الخاصة ببحوثي عليه، لتأخر اكتشافي لتركيب «الميموجلوبين» لمدة عشر سنوات، وهنا أقول لك أن الكمبيوتر كان بالنسبة للبحوث العلمية، ولا يزال، اكتشافًا رائعًا حقًا، وأن الظروف الحسنة أو الصدفة التي هيَّأت لي هذا الجو بهذه العناصر العلمية والإمكانات كانت مواتية حقًا، ولو أن هناك رجلاً آخر غير جون كندرو في نفس المكان والزمان لحصل على الجائزة». «سير جون، اسمح لي أن أقول لك: أنت رائع يا سير جون، وأنني محظوظ حقًا بهذا اللقاء».

وبعد فهذا جانب من هذا اللقاء الذي نشرته، في حينه، في مجلة المنتدى العلمي (العدد الأول 1 مارس 1993)، قبل أن يغادر الحياة بأربع سنوات، فقد توفي جون كندرو في 23 أغسطس 1997م، في كامبردج، عن عمر يناهز الـ 80 عامًا.



◉ البروفيسور رشدي فكار والمؤلِّف.

لازلت أذكر لقائي مع المفكِّر الإسلامي الكبير رشدي فكار، وكنت أجري معه حوارًا حول الدين والعلم، كنت أدرك أن لقاء عالم ومفكِّر كبير بقدر ومكانة البروفيسور رشدي فكار أمر عظيم حقًا، وكان لابد أن أستعدَّ لهذا اللقاء، فهذا لقاء فلسفة، والفلسفة هي أم العلوم، وأن نظرة الفيلسوف والمفكِّر إلى القضايا كثيرًا ما توضح لنا اتجاه الفعل وانعكاساته.

ورشدي فكار، مفكِّر من طراز فريد، فهو مصري صعيدي، متخصص في الفلسفة الوضعية. ويعمل أستاذًا للفلسفة الإسلامية بجامعة محمد الخامس بالمغرب، يتحدث العربية بلكنة (صعيدية مغربية فرنسية) ويطرح القضايا ببساطة وأسلوب مميَّز للغاية. أقرب إلى الحكي منه للمباشرة في الطرح.

لذلك لم أجد صعوبة مطلقًا في بناء وطرح الأسئلة، اكتفيت، فقط، بالوصول في الموعد المحدد لإجراء اللقاء، ولكن المفاجأة أنني وجدتني واحدًا من لفيف من العلماء والمريدين الذين يستمعون إليه، في احتفالية مميَّزة، جلست في مواجهته وذكرته بمكالمتي معه، فاستطرد قائلاً:

أعرف ما تريد، لقد أخبرتني أن نتناول إشكالية «العلم والدين»، وهذه إشكالية قديمة وجديدة معًا، وقد طُرِحت في البدء في الغرب خاصة عندما انقلب العلماء على الكنيسة، وبالخطأ تطرح عندنا تحت ما يسمى بالعلمانية

أحيانًـا، وأنـا أراهـا قضيـة مفتعلة لا تمـت لنا بصلـة.. فعلاقـة الإسلام بالعلم علاقة تكامـل وهـذا مـا سيرد فيما بعد، المهم أن هذه الإشـكالية القديمة وقع في مصيدتها معظـم المنظريـن الغربيين وعلى رأسـهم المفكِّر الوضعي «سـان سـيمون» الذي يعد مـن أكبر المفكِّريـن الذيـن عرفتهـم أوروبـا في الـعصر الحديث.

وأنا أذكر هنا «سـان سـيمون» لأنه طرح عليه تلميذه «أوجسـت كونت» السـؤال نفسـه.. وكان سـيمون يحتضر، وكان السـؤال من قسمَين أحدهما يقول:

- لماذا لم تعـطِ نفسـك إجـازة حتـى الآن؟ والآخـر كان كيـف تـرى علاقـة الدين بالعلم؟

ففكر سيمون وهو على فراش الموت، ثم قال:

- ربمـا آخـذ إجـازة أبديـة (يقصـد إجـازة المـوت) بعـد أن أجيبـك عـن سـؤالك الثـاني.. أمـا موقفـي مـن العلـم والديـن أو موقفـي من الدين بشـكل محـدد.. فأنا أختلـف جـدًا مع رجال الدين المسـيحي.. وليس مع الديـن، وأن هجومي الذي أبليت عمـري فيـه كان هجومًـا على رجـال الكنيسـة الذيـن ينصبـون أنفسـهم آلهـة وليس مـع الديـن.. فالديـن لازم للإنسـان، والعلم لازم لمسـتقبله. هذا ما قاله «سـيمون».. وكان على فـراش المـوت، لأنـه بعـد أن أجـاب عـن هذا السـؤال أخذ إجازتـه الأبدية بالفعـل، فالديـن هـو جوهر الإنسـان ومرجعيته، والعلم وسـيلة الإنسـان في تحقيق تطلعاتـه المسـتقبلية، وبالتـالي هـو وسـيلة لإسـعاد البشريـة؛ لـذا علينا أن نسـتعرض الخيـارات التاليـة والتـي طُرِحـت حول علاقـة العلـم بالدين وهي:

خيـار أن الديـن سـابق للعلم، فهو معـروف أولًا للبشرية فالأنبياء سـبقوا العلماء، بعـد ذلـك ظهـرت الحـركات العلميـة التـي أخـذت طابعًـا متميـزًا في الحضـارة المعـاصرة إنطلاقًـا مـن عصر النهضـة إلى ظهـور المـدارس الحديثـة، أي أن العلـم بالنسـبة للبشريـة أشـبه بالوليـد الجديـد، وأن هـذا العلـم قـدَّمَ للبشريـة معـارف جديـدة عظيمـة، فكلنـا يذكـر حكايـة جاليليـو وكرويـة الأرض والاضطهـاد الـذي واجهـه مـن قبـل رجـال الديـن المسـيحي.

وهـذا، إلى حـد مـا، شيء جميـل مـن العلـم لـو جـاز لنـا أن نقـول ذلـك، أمـا العلـم الـذي تصـادم مـع الديـن فهـو مـا أُسـميه بعلـمِ الكفـر؛ وهـي التخصصـات

التـي أُسِّسـت لتقويـض الديـن والانتهـاء منـه (تصفيته)، فهـم ينظـرون للدين على أنـه سـحر، وهـذا يتضـح مـن دراسـات رائـد علـم الاجـتماع الغـربي (دور كايـم) وتايلـور وبـل، وهـم مجموعة من العلماء أضاعـوا وقتهم في محاولـة تصفية الدين فضاعـوا، فهـم يريـدون أن يثبتـوا أن الديـن فعـل اجتماعـي، والتاريخ شـهد بأنهم أفلسـوا، لأنهـم أفلسـوا بالفعـل، واسـتثنى منهـم عـالم النفـس الكـبير (يونـج) الذي تتلمـذت عليـه، ويعـد عميـدًا؛ بـل مـن أكبر عمـداء السـيكولوجيا (علـم النفـس) في القـرن العشريـن، ويشـهد لـه أنه تجـاوز (فرويد)، فقد طرح فلسـفة الأديـان ودافع فيهـا عـن الأديان. وكان لـه موقف مخالف لموقف (فرويد) الـذي كتب كتابًا خطيرًا ضـد الأديـان أسماه (عُصـاب الأنبيـاء) اتهمهـم فيـه بأنهـم مصابـون بالجنون.

الغريب أن فرويد نفسـه مات مصابًا بالعصاب؛ بل وانتهت حياته بشـكل مريع. ونيتشـه الـذي انتهـت حياتـه - أيضًـا - بالجنـون، والأمثلـة كـثيرة، إلَّا أن الثابـت أن بعـض التخصصـات العلميـة أرادت أن تصفي حسـابًا مـع الدين (يقصـد الاضطهاد الـذي تعرضـوا لـه مـن قبـل رجـال الديـن المسـيحي)، فـأرادوا أن يتصيـدوا مآخـذ على الديـن؛ لكنهـم سرعـان ما انقلبـوا على أنفسـهم، فنظرية (دور كايم) الأشـكال المبدئيـة للأحيـاء سرعـان مـا انهـارت، رغـم أنـه حـاول كـثيرًا أن يلف ويـدور حول الديـن في محاولـة لضربـه، والديـن المعني هنـا كل المعتقـدات الدينية.

وهنـا نجـد روعـة الديـن الإسلامـي، الذي لم يسـتطع واحـد منهم أن ينـال منه، وهـي حقيقـة لا تحتـاج إلى دفـاع مـن مـثلي، فليس في الإسلام مـا يدفع الإنسـان للشـعور باليـأس أو القلـق أو الشـعور بالأزمة، فالإسلام هو الديـن الكامل، ليس لأنه خاتـم الرسـالات فحسـب، ولكنـه الدين الصحيـح الذي لم يصبـه أي تحريف؛ لذلك فإننـا نرفـض هـذا الخيار تمامًـا، فالدين لا يتصـارع مع العلم، ولا يسـعى لأن يحل محلـه، وهـذه حقيقة في الديـن الإسلامي.

هل العلم يطمح أن يحل محل الدين؟

الحقيقـة أنهـا محاولـة عمرها أربعة قرون، فشـل فيهـا العلم فـشلاً زريعًا. وآخر مـا يؤكِّـد ذلـك انهيـار دولـة كبرى، مثـل روسـيا التـي قالـت: «إن الديـن أفيـون الشـعوب»، وانطلقـت وراء الأيديلوجيـة الاشتراكية العلمية فانهـارت معها، المهم أننا شـاهدنا بأعيننـا هـذا النمـوذج الذي رفع شـعار الـنصر النهائي للـعمال، وهو ينهار

كإمبراطورية كبرى، لازلت أذكر كيف أمسك زعيم روسي شهير بنعله في أحد اجتماعات هيئة الأمم المتحدة، وهو يهدد قائلاً:

- لدينا ما يكفي الأرض عشر مرات.

المهم أن ما آلت إليه دولة كبرى مثل روسيا هو نتيجة حتمية لفكرة مغلوطة هي فكرة أن يحل العلم محل الدين، وهي فكرة مرفوضة، تمامًا، في عقيدتنا الإسلامية، وفي العديد من مؤلفاتي كنت أبرز جوانب العظمة التي اتسمت بها عقيدتنا دون غيرها من الأديان: فالإسلام ليست لديه مشكلة البتة مع العلم بالعكس تمامًا فهو جاء ليدعو إلى العلم، ويرفع من قدر العلماء، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:191]، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]. فليست في الإسلام هذه الفكرة المغلوطة، ولا يقبل أن يحل العلم محل الدين، فهي فكرة غير موجودة نهائيًا في الإسلام، فالعلم في الإسلام ركيزة أساسية يرتكز عليها بالعقل والتدبر، وهو موقف متميِّز، لأن الإسلام أشمل وأعم من العلم فهو الرسالة السماوية الكاملة، فيكفي أنه لم يتعرض إلى تحريف أو تغيير، كما تعرضت له الأديان الأخرى؛ لذلك جاءت (علوم الكفر)، التي أشرت إليها؛ لتحاول أن تبتلع الدين، وتلغيه من حياة البشر تحت شعار أوجست كونت رائد المدرسة الواقعية الذي قال: إن الإنسان عندما هبط على الأرض وقع عليها فحدث له نوع من الدوار، فطلب المساعدة، ومن هنا فعليه أن يلغي كل ما هو ميثافيزيقي حتى لو كان ذلك الشيء «دين»، ونجد هذه الفكرة واضحة لدى مفكِّر مجنون مثل (شابنهور) الذي ابتدع فكرة البديل للآلة، أو الإنسان الخارق، فجعل من الإنسان إلهًا للإنسان، وهي فكرة ظهرت جلية عند «هتلر» فقد آمن بها، واعتنقها، وجعلها مذهبه في إذلال الناس والطغيان حتى انتهى نهايته التي تعرفونها. أما الإسلام فهو يهذب الإنسان، ويقول له: «﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾.. فالإسلام يحذر الإنسان من أن يطغى، فالطغيان للمسلم

يلغـي العلـم، والإسلام يدعـو للعلـم».

- هـل يلجـأ العلـم لتدعيـم ذاتـه وتركيزهـا عـن طريـق الدين حتـى يبرهن على مصداقيته؟

سـؤال أو خيـار ظهـر مؤخـرًا مع الهـزات الروحيـة العنيفـة التي فجرتهـا الثورة العلميـة في القـرن العشريـن، وهـو خيـار جـاء مـع اندفـاع العلـم وانحرافـه وراء تحقيـق أهـداف قـد تـؤدي إلى حيرتـه، لذلك وقـف بابـا الفاتيكان مؤخـرًا ليخطب في جمـع مـن العـلماء، ليقول:

«آن الآوان للعـلماء أن يحتكموا للكتب المقدسـة، لأن بهـا قوانين تحكم اتجاهات العلـم، وعليهـم أن يأخـذوا رأي (رجـال الديـن)، لأن التقـدم العلمـي قـد يؤدي إلى خـراب الأرض، وظهـرت بـوادره في التلـوث الـذي أصـاب البيئـة في كل شيء، إضافـة إلى تجـاوزات التجـارب المعمليـة التـي بـدأت تنـال مـن إنسـانية الإنسـان وقيمـه الأخلاقيـة تحـت دعوى التقـدم العلمـي.. ».

وأذكـر وأنـا في فرنسـا أيـام حكـم (ديجـول) أنـه قـام مـرة بزيـارة أحـد عـلماء النفـس الـذي كان يجـري بحوثًـا في مجال وظائـف المخ على بعض القـردة.. بهدف توجيـه العقـل.. فتوقـف ديجـول أمـام القـردة المحبوسـة في أقفاصهـا، وهـو يتطلع للعـالم الـذي يشرح لـه هدفـه مـن تجاربـه، وكيـف أنـه بهـذه البحـوث سـيصل إلى نتائـج غير مسـبوقة عـن تطويـع المـخ الـبشري.. فقـال ديجول:

- هـذا هـراء وطغيـان أيهـا العـالم؛ إنك تريـد السـيطرة على فطرة الخلـق، وهو مـا لا يتفق مـع المبادئ المسـيحية.

وأمر ديجول بإغلاق هذا المعمل.. بوازع ديني.

والإسلام ينظر للعلم على أنه وسـيلة من وسـائل إسـعاد الإنسـان في إطار القيم الروحيـة الغنيـة التـي يدعـوه إليها.. أما هل يسـتند الدين إلى العلـم التركيز ذاته؟

فهـذا أمـر مرفـوض، تمامًـا، لأن الدين أعم وأشـمل كما قلـت، ولا يحتاج الدين لعـالم مـن العـلماء ليقـول إن الديـن الإسلامي صحيـح، وإن ما جاء بـه يتفق مع ما وصلنـا إليـه نحـن في المعمل. الدين أشـمل وأعم، وليس في حاجـة إلى ذلك مطلقًا، فالعلـم متـغير، وأحيانًـا تتعارض النظريـات والنتائج، فعلم القرن التاسـع عشر غير

الـذي عرفنـا في القـرن العشريـن والـذي نعيشـه الآن، ونحن في العقـد الأخير من القـرن العشريـن، فالتـغير في العلـم وارد؛ بـل هـو القاعـدة، فمن يُؤكِّد لنـا أن هذا العلـم الـذي نعرفـه، الآن، لـن يتـغير في القرن القـادم، لذلك من الخطـأ أن يندفع عـالم مـن العـلماء ليقول لنا لقـد وصلت إلى فهم قاطـع لبعض الآيـات القرآنية من خلال تجاربي وبحـوثي المعملية.

وإجمالاً مـن الخطـأ أن يُطـرح العلم بديلاً للدين، أو الدين بـديلاً للعلم، فالدين هو جوهر الإنسـان ومرجعيته، والعلم وسـيلة لتطلعاته المسـتقبلية من الوسائل.

قالهـا وهـو ينظـر إلينـا في سرور الـذي يـرى تصديقًـا على ما يقول في دهشـة مـن الإعجـاب الشـديد، ثـم قـال في حزم: ومـاذا بقي؟

فقلت من دون تردد:

- أن يتوافـق العلـم مـع الديـن. وهـو الخيـار الخامـس الـذي ذكرتـه، حضرتكم، في مسـتهل الحديـث. فقـال في تـؤده:

نعـم أن يتوافـق العلـم مـع الديـن، وهـو التوافـق الرائـع الـذي يظهـر جليًـا في الإسلام، وهـو توافـق أراه مطروحًـا بشـكل رائـع على القـرن القـادم بقـوة، وأعتقـد أنـه سيكسـب الجولـة؛ بـل إننـي متأكِّـد مـن ذلك...

وهكـذا كان لقـائي بالبروفيسـور رشـدي فـكار لحظـةً لا تُشـبه سـواها؛ لقـاءً اسـتثنائيًا تـرك في داخلي رجّـة فكريـة مـا تـزال أصداؤهـا تتردّد حتـى اليـوم. لم يكـن مجـرَّد حديـثٍ عابـرٍ بين عـالم وتلميـذٍ متعطّـشٍ للمعرفـة؛ بـل كان اصطدامًا بين وعـيٍ يتشـكّل ووعـيٍ اكتمـل. شـعرتُ كأننـي أقـف على حافـة اكتشـافٍ جديـدٍ للإنسـان وللعقـل، اكتشـافٍ يعيـد ترتيـب الأسـئلة التـي كنـتُ أظنّهـا قـد هـدأت في أعماقي.

منـذ تلـك اللحظـة، تـغيّر مسـار قـراءاتي، وانفتـح بصري على آفـاقٍ لم أكـن أتصوّرهـا مـن قبـل. تعلَّمـت أن الفكـر ليـس تـراكمًا مـن المعلومـات؛ بل رحلـة وعيٍ شـاقّة نحـو جوهـر الأشـياء، وأن الفلسـفة لا تنفصـل عـن نبـض الحيـاة؛ بـل هـيَ طريقتهـا في سـؤال الوجـود عـن معنـاه.

كان ذلـك اللقـاء بدايـة طريـقٍ طويـلٍ مـن التأمُّـل في علاقـة الإنسـان بالحياة،

وفي أثـر العقـل حين يُسـتنار بالمعرفـة، وكيـف يمكـن لفكـرٍ واحـدٍ أن يوقـظ فينـا إحساسًـا أعمـق بالبشريـة، ويعيـد تعريف معنـى أن نكـون... أن نعيـش... وأن نفكّر.

وأعترف اليـوم، بعـد مـرور الأعـوام، أن مـا زرعـه ذلـك اللقـاء في داخلي لم يكـن مجـرَّد إعجـابٍ بعالِـم كـبير؛ بـل كان امتنانًـا صامتًـا لإنسـانٍ منحنـي مفاتيـح الرؤيـة، وفتـح أمامـي أبـوابً الفكـر على مصاريعها. ومن يومهـا، أدركتُ أن أعظـم الهدايا التي يمنحهـا لنـا القـدر هـي أن نلتقي بمن يُعيـد ترتيب عقولنا، ويوقظ فينا شـغف السـؤال.

ولم تقـتصر لقـاءاتي على العـلماء الدولـيين؛ بل امتـدت إلى نخبة من الأسـاتذة العـرب والقطـريين، منهـم: الأسـتاذ الدكتـور عبدالعـال مبـاشر، والأسـتاذ الدكتـور عبدالعزيـز البيومـي، والأسـتاذ الدكتـور يسري صالـح، والدكتـور عبدالله راشـد الكبـيسي، والدكتـور إبراهيـم صالـح النعيمـي، والدكتـور إبراهيـم القصـاص. كانوا جميعًـا مـن أصحـاب التخصصـات العلميـة الرفيعـة، وكان حضورهـم وإسـهامهم بمثابـة اسـتنهاض للهمـم العلميـة في أوسـاط الشـباب، الذيـن وجـدوا في هـذه الـنماذج قـدوة حيّـة، وعمقـوا مـن التوجـه العلمـي بينهـم.

وإلى جانـب ذلـك، كنـتُ أغطـي أخبـار المؤتمـرات والنـدوات العلميـة، وأربـط بين أنشـطة النـادي وبرنامـج المجلـة العلميـة الإذاعيـة، ليظـل التواصل مـع المجتمع مسـتمرًا عبر أكثر مـن وسـيط. وهكـذا أمسى اسـمي في تلـك المرحلـة مرتبطًـا بكل مـا هـو علمـي، داخل الجامعـة وخارجها، في المدرسـة والمخيم الكشـفي، وفي المجلة والبرنامـج الإذاعي.

لقـد كانـت مجلـة المنتـدى العلمـي بالنسـبة لي أكثر مـن مجـرَّد إصـدار دوري؛ كانـت فضـاءً معرفيًـا جامعًـا، ربـط بين النـادي والمجتمـع، وبين قطـر والعـالم، وأسـهمت في ترسـيخ صـورة النـادي العلمي كمـنبر رائد لـنشر الثقافـة العلمية بين الشباب.

ومـع مـرور الوقـت، تطوّر النـادي العلمي، ولقـي دعمًا كبيرًا من وزارة الشـباب والرياضـة، فانفصـل عـن وزارة التربيـة والتعليـم، وبـدأ يأخـذ منحًـى جديـدًا في إطـار اتحـاد نوادي العلـوم العربية. خُصص لـه مبنى دائم، واجتـذب روّاد النوادي ممـن أكملـوا دراسـاتهم ولا يزالـون مرتبـطين بـه. وتكـوّن مجلـس إدارة للنـادي،

وتم استدعائي، آنذاك، للعمل على وضع إستراتيجيته وتطويرها، ليواكب دوريه العلمي والتربوي المتنامين، وليصبح بحق أحد أبرز المراكز العلمية الشبابية في قطر والمنطقة.

لم تكن تجربة النادي العلمي مجرَّد مرحلة عابرة في مسيرة مهنية أو نشاط تربوي روتيني؛ بل كانت نافذة أوسع على معنى الحياة حين نضع العلم في خدمة الشباب، وحين نرى العقول الصغيرة تكبر وتزهر أمام أعيننا. كنت أرى في كل طالب يحمل مجهرًا أو يسأل عن نبات بري ملامح المستقبل، وأسمع في أصواتهم وقع خطوات جيلٍ جديد يشق طريقه نحو المعرفة.

واليوم، بعد عقود من الزمن، أدرك أن ما بدأناه في تلك المجالس المتواضعة لم يكن مجرَّد مشروع شبابي؛ بل كان محاولة مبكرة لصياغة هويَّة علمية لهذا الوطن. فالعلم لا يعيش في المعامل وحدها؛ بل في القلوب التي تتعطش للمعرفة، وفي الأيادي الصغيرة التي تجرّب وتصنع، وفي الأساتذة الذين يؤمنون أن بذرة صغيرة قد تنمو لتصبح شجرة وارفة الظلال.

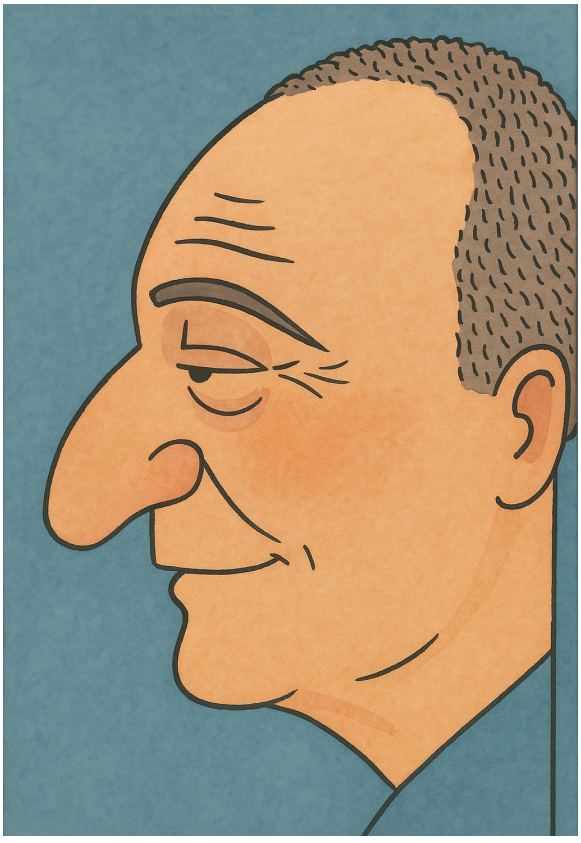
هكذا يبقى النادي العلمي بالنسبة ليّ أكثر من مؤسَّسة؛ هو ذاكرة شخصية وجماعية، حكاية جيل تعلَّم أن المعرفة ليست ترفًا؛ بل طريقًا إلى بناء الذات والوطن. وعندما أستعيد تلك السنوات، أشعر أنني كنت جزءًا من رحلة أكبر مني، رحلة ما تزال تمتد في وجدان كل من مرّ من هناك، ليظل النادي العلمي شاهدًا على زمن صدق فيه الحلم، فصار حقيقة.

مجلة أخبار الأسبوع

دعاني الأخ سنان المسلماني (شفاه الله)، الذي تقلّد منصب نائب رئيس تحرير مجلة أخبار الأسبوع منذ عام 1988م، إلى الكتابة في المجلة التي كانت تصدر أسبوعيًا عن مؤسَّسة علي بن علي. كنت أعرف سنان منذ أيام دراسته في جامعة قطر، وكان شاعرًا ومسرحيًا وفنَّانًا تشكيليًا، منغمسًا في الشأن الثقافي، محبًّا لشعر الحداثة. لبّيت دعوته بحماس، فانضممت إلى كتّاب المجلة، وخصّصت لها مقالات شبه أسبوعية أتناول فيها قضايا علمية مبسطة، وملفات بيئية، وعروضًا لكتب علمية، وخاصة إصدارات عالم المعرفة الكويتية. كما نشرت عددًا من القصص القصيرة التي كانت تسيطر على كل شغفي آنذاك.

كان لنا موعد ثابت مساء كل سبت عند السادسة، حيث نلتقي في مكتب سنان وهو مكتب إدارة المجلة في مبنى مؤسَّسة علي بن علي في شارع الكهرباء عند التقاء شارع الريان. هناك، كنّا نحصل على نسخة مجانية من المجلة، ونستلم مكافأة الشهر، ثم ينفتح اللقاء على نقاشات ثرية في أجواء ثقافية قلّما تتكرر. كان المكان أشبه بمنتدى مصغّر، يلتقي فيه كتّاب ومثقفون وأصدقاء تجمعهم المحبة والهمّ المشترك.

من أبرز الوجوه التي اعتادت حضور هذا اللقاء الأخ أحمد عاشير، الذي شكّل مع حسين أحمد وسنان المسلماني ثلاثيًا دائمًا، أكنّ لهم جميعًا بالغ الاحترام. وكان بيننا، أيضًا، الفنَّان الكبير جودة خليفة ــ يرحمه الله ــ صاحب القلب الدافئ والحضور المشرق، الذي كان يشيع بيننا جوًا من البهجة بضحكاته المجلجلة التي كانت تُسمّع نصف الدوحة. كان عاشقًا للمقاهي، يحفظ ذكرياتها كما يحفظ الفنَّان ملامح لوحاته. ولطالما أمتعنا برواية طرائف ومواقف عايشها، فيما كانت أناملة ترسم بورتريهات لشخصية الأسبوع، عادةً ما تكون شخصية سياسية أو عامة بارزة. وقد امتاز بقدرته على إبراز الملامح الجوهرية للشخصية كأنها تضاريس حجرية تنطق بالحياة.



◉ بورتريه للفنَّان جودة خليفة - رسم زهدي

أذكر أنه جاء من مصر إلى قطر، وأقام خمس أو ست سنوات دون أن يسافر في إجازة واحدة. قال لي يومًا: «لا أريد أن أركب الطائرة مرة ثانية عائدًا إلى مصر، سأجعل وجودي في قطر زيارة ذهاب وعودة». وحين عاد إلى مصر، زرته في أول إجازة لي، فاحتفى بي واصطحبني في جولة مشيًا على الأقدام من ميدان التحرير إلى أزقة السيدة زينب والأوبرا، يشرح لي جماليات العمارة وخطوط لوحات الشوارع. كان يحمل قلبًا جميلاً وأفقًا واسعًا بحجم الأرض.

وكان من روّاد الملتقى - أيضًا - المترجم والمثقف الراحل طلعت الشايب، المنفتح على الآداب العالمية، الذي نقل إلينا من لغاتها وتياراتها الفكرية ما أضاء نقاشاتنا. كما حضر معنا الإعلامي والمثقف نزار عابدين، الذي كتب في القصة القصيرة وكان مشغولاً بقضايا فكرية متعدِّدة، إلى جانب الكاتب نبيل خالد

الأغـا بدراسـاته الجادة عن فلسـطين والحضـارة الإسلامية. ولم تخـلُ اللقاءات من وجـوه أخـرى تتنـاوب على الحضـور، لتغدو تلك الجلسـات الأسـبوعية ثـروة فكرية ووجدانيـة لـكل مـن شـارك فيها.

غير أنّ رحلـة أخبـار الأسـبوع توقفـت في منتصـف التسـعينيات، فتفـرّق الجمـع وسـلك كلٌّ منّـا طريقـه. انتقـل سـنان إلى العمـل في جريـدة الوطـن، وتوجّـه حـسين أحمـد إلى السـلك الدبلومـاسي سـفيرًا؛ لكـن العقـد انفـرط، والمـكان الـذي جمعنـا أضحـى جـزءًا مـن الماضي المسـتحيل، خاصـة بعـد إزالـة المبنـى. ومع ذلـك، ظلّت في مكتبتـي أعـداد مـن المجلة أحتفـظ بها بعناية، لاسـيما تلك التـي نشرت فيها مقالاتي.

مـن بين مـا كتبـت فيها سلسـلة ماذا حدث؟ التي جاءت بأسـلوب مبسّـط وأدبي، وجذبـت اهـتمام القـرّاء. تناولت عناويـن مثل: ماذا حدث في قرص الشـمس؟ ماذا حـدث لمنـاخ الأرض؟ مـاذا حـدث للأوزون؟ مـاذا حـدث في قمّـة الأرض؟، وغيرها مـن الموضوعـات التـي فتحـت نافـذة للعلـم بلغـة يفهمهـا القـارئ غير المتخصـص فتجـذب اهتمامـه، وبالفعـل تجـاوب معهـا الناس ووجـدوا فيها معرفـة ومتعة.

وعندمـا أُغلقـت أخبـار الأسـبوع، لم يكن ذلك مجرَّد إسـدال سـتار على مطبوعة ثقافيـة؛ بـل كان كأنّ مصباحًـا انطفـأ في زاوية مـن أرواحنا. أصابنـا وجوم طويل، امتـدّ لأكثر مـن عشريـن عامًـا، ظلّت فيـه الذاكـرة تبحث عـن ذلك الـدفء الذي كان يجمعنـا مسـاء كل سـبت. كانـت المجلـة بالنسـبة إلينـا أكثر من صفحـات تُطبع؛ كانـت بيتًـا نلـوذ بـه، ومرفأً نرسـو عنـده، ومكانًـا يفتح أبوابـه للعلم، وللفـن وللأدب وللضحـكات. ومنـذ رحيلهـا، بقيـت أعدادهـا القديمـة في مكتبتـي مثل رسـائل حبّ مـن زمـن بعيـد، كلما تصفحتهـا عـادت إليّ الوجوه والأصـوات، وعاد ذلـك الحنين الـذي لا يزول.

تبقّـى في مكتبتـي أعـداد مـن المجلـة لا سـيما تلك التـي تضمنت كتابـات لي، تلك الكتابـات التـي أتنـاول فيهـا القضايـا العلمية بأسـلوب أدبي ميسر، أذكر منها سلسـلة مـاذا حـدث؟، وتضمنـت العناويـن التاليـة: مـاذا حـدث في قـرص الشـمس؟، مـاذا حـدث لمنـاخ الأرض؟، ومـاذا حـدث للأوزون؟، وماذا حدث في قمـة الأرض؟، هكذا.. ولقـد حـازت هـذه السلسـلة على اهـتمام النـاس لكونها تقدم بشـكل مبسـط للغاية.

كتارا... الحي الثقافي

منذ أكثر من عشرين عامًا وأنا أتعقّب اسم قطر في الخرائط الأوروبية القديمة. كنت أفتش عن حضوره بين خطوط البحر ورموز الجغرافيا، فأجده مكتوبًا باللاتينية Catara. لم يكن الاسم بالنسبة لي مجرَّد إشارة على الورق؛ بل نافذة تُطل على التاريخ، وصوتًا خافتًا يرافقني في رحلة البحث عن هويَّة المكان.



◉ خريطة بطليموس للجزيرة العربية، ويظهر فيها اسم قطر باللغة اللاتينية Catara

وحين تحوّل هذا الاسم إلى عنوان لحيّ ثقافي نابض في قلب الدوحة، شعرت أن ما كنت أطارده في الخرائط قد خرج من الورق ليتجسّد في الواقع. عندها أيقنت أن كتارا لم تعد مجرَّد اسم في الماضي؛ بل أصبحت معلمًا في الحاضر، وجسرًا إلى المستقبل.

يحمل اسم كتارا في ذاته عمقًا تاريخيًا يمتد إلى أكثر من ألفي عام. فقد سجله بطليموس في كتابه (الجغرافيا) الكبير سنة 150م، ليظهر فيما بعد في خرائطه الشهيرة، حيث برزت شبه الجزيرة القطرية تحت مسمّى Catara، جنوب غرب مدينة الجرهاء على ساحل الخط. وأُعيد طبع هذه الخرائط عام

1477م (882 هـ)، لتؤكِّد حضور قطر في الوعي الجغرافي العالمي المبكر.

ظل الاسم يتردَّد في أعمال الجغرافيين والمؤرِّخين، وورد في أطلس تاريخ الإسلام بوصفه أحد الأسماء المحدّدة لشعوب الجزيرة العربية. ثم عاد للظهور بصيغته الحديثة Katara في خرائط أوروبية مع بدايات القرن الثامن عشر. ومنذ ذلك الحين بقي الاسم حاضًرا في المدونات الجغرافية، شاهدًا على عمق الوجود القطري في التاريخ.

أما صلتي باسم كتارا فقد بدأت مبكرًا، حين كنت أجمع الخرائط القديمة للجزيرة العربية والخليج في المكتبة التراثية (مكتبة الشيخ حسن)، وكنت أحرص، دائمًا، على أن يكون اسم قطر متواجدًا فيها. لم يكن الأمر مجرَّد اقتناء أو جمع؛ بل كان بحثًا عن صورة قطر في ذاكرة العالم الكاروتوجرافية. ولهذا، حين طُرحت فكرة اختيار اسم للحي الثقافي، كان طبيعيًا أن أقدّم إفادة مختصرة تعود بالاسم إلى تلك الجذور. وعندما تم اختيار اسم كتارا من بين المقترحات المقدّمة آنذاك، شعرت أن لي فيه نصيب المعايشة والاقتراح معًا.

في خيال الزمن البعيد، كنت أرى قطر كقارب ينساب بي في مراكب الذكريات، أجدّف بين أمواج تاريخها العريق، وأغرف من ينابيع معارفها ما يثري روحي ويملأ مكتبتي بنفائس لا تقدر بثمن. كانت البلاد تبدو لي آنذاك بحرًا من الحكمة، كل موجة فيه تحكي سيرة الأجداد وكل نسمة تحمل عبقًا من أصالة المكان.

ثم جاء زمن التأسيس؛ زمن البدايات المضيئة، حيث أخذت أنسج بين يديّ مكتبةً تتغذى على تراث هذه الأرض المباركة، كأنني أجمع لآلئ الذاكرة حبة حبة، وأحرسها من الضياع لتظل حاضرة لمن يأتي بعدي.

وفي منعطفات رحلة العمل، أطلّ عليَّ حلم جديد عبر دعوة كريمة من الدكتور محمود رمضان، تحمل في طياتها رجاء أن أكون شريكًا في مشروع كبير يتنفس بين يديّ ويمنحني فرصة أوسع لأخدم المعرفة. ثم تلاقت تلك الدعوة مع رغبة حارة من الأستاذ أحمد المسند لأمدّ له يد العون.

كنت آنذاك أرى مشروع الحي الثقافي (كتارا) لا بوصفه مباني جميلة وحدائق

مطلة على البحر؛ بل كحلم ثقافي كبير يليق بتاريخ قطر، ويمنح حاضرها بُعدًا إنسانيًا ومعرفيًا. كنت أرى فيه فضاءً يُعيد وصل ما انقطع، ويجعل من الفنون والكتب والذاكرة المشتركة بيتًا واحدًا يتنفس بحرية ويحتضن الجميع.

هناك، في ذلك اللقاء المصيري، شعرت بأن علاقتي بالتراث لم تعد مجرَّد معرفة أو حرفة؛ بل صارت إيمانًا يتجدَّد كل يوم، وعهدًا مع المكان أن أكون أمينًا على ذاكرته. كان كل مشروع أشارك فيه يضيف طبقة جديدة إلى روحي، ويعلمني أن خدمة التراث ليست عملاً مهنيًا فحسب؛ بل رسالة حب ووفاء.

هكذا مضيت - من طفولة الحلم إلى رجولة المسؤولية - أحمل ما جمعت من كتب ومخطوطات ورؤى، وأغرسها في تربة هذا المكان ليظل حيًا نابضًا، شاهدًا على إخلاص من أحبوه بصدق، وعملوا من أجله بصمت واعتزاز.

لم يبقَ الاسم حبيس الأوراق والخرائط؛ بل تحوّل إلى صرح ثقافي ومعماري فريد. مباني كتارا من الخارج تحتفظ بطابعها التقليدي التراثي، ومن الداخل تنبض بالحداثة والتقنيات المعاصرة، في مزيج يجسّد الحوار بين الماضي والحاضر. إنها ليست جدرانًا وأسقفًا فحسب؛ بل فضاء مفتوح بين البحر والبر، بين الإنسان وبيئته، بين الذاكرة والأفق.

وما يميز كتارا أنها تجمع العالم في مكان واحد: أنماط معمارية متنوعة، وطرقات تأخذنا في جولات مبهرة، ومطاعم تقدم أطعمة من مختلف القارات، وأسواق تحتضن ألوان التراث، ومسارح تستضيف الفنون من الشرق والغرب. لقد تعمّقت علاقتي بالمكان من خلال إدارة البحوث وإدارة التاريخ القطري، اللتين تبنتا عددًا من الكتب التي قمت بتحريرها وإنتاجها. كما شاركت في ندوات ومحاضرات احتضنها الحي، جُمعت فيما بعد في كتب أصدرتها دار نشر كتارا، لتبقى شاهدة على تلك اللحظات التي جمعتني بالمكان.

وفي قلب كتارا يقف المسرح الروماني، أيقونة الحي ورمزه الأكبر. هناك يتجسّد اللقاء بين الثقافات، ويعود التاريخ ليحيا بروح جديدة. إنه القلب الذي يضخ الإبداع والجمال في المكان، فيبقى نابضًا بالحياة.

والحقيقة إنني كنت أرى الحي الثقافي (كتارا) منذ بداياته حلمًا يتجاوز حدود

المباني والمسارح والمعارض، ليصبح فضاءً حيًّا يجمع الفنون والآداب والذاكرة الثقافية لقطر والخليج. هناك، تعلَّمت أن الثقافة ليست واجهة للتزيين؛ بل مشروع وطني عميق يعيد وصل الإنسان بجذوره ويصوغ أفق المستقبل.

وفي مرحلةٍ لاحقة، دعتني الدكتورة نادية المضاحكة، مديرة إدارة البحوث والدراسات، إلى التعاون معها في تنظيم عددٍ من الندوات العلمية ضمن الموسم الثقافي لكتارا. وقد أثمرت تلك الندوات عن إصدار سلسلة من الكتب أُنيطت إليَّ مهمة تحريرها والإشراف على إنتاجها، فصغتها بعناية وأعدت إخراجها بروح متجدِّدة، حتى غدا ذلك الأسلوب هو الهويَّة المميّزة لمنشورات كتارا التي تفخر بها اليوم.

ومن بين تلك التجارب التي أعتز بها، جاء عملي محررًا لكتاب «القلاع والحصون في قطر» الذي فتح لي نافذة على التاريخ الأثري والمعماري للبلاد، وكتاب «قطر وتراثها البحري» الذي شاركت في إنجازه مع الزميل العزيز إبراهيم فؤاد والأستاذ إبراهيم المهندي، وكان تجربة استثنائية جمعت بين البحث الميداني والرواية التاريخية والصور الوثائقية النادرة. كما سعدت بتحرير كتاب «الحمام» للأستاذ علي الكواري، وهو موسوعة متفردة عن الحمام الزاجل، عالمه وتاريخه وأساليبه، فكان عملاً يوثق جانبًا طريفًا وعميقًا من الهوايات التراثية في الخليج، ومن بين الأعمال التي ظلت عالقة في الذاكرة، كتاب «الأحجار الكريمة» للأستاذ عبد الرحمن المناعي. لم يكن الكتاب مجرَّد صفحات تُسطَّر فيها معارف عن المعادن والأحجار؛ بل كان نافذة على عالم يزاوج بين جمال الطبيعة وعمق التراث. قرأته فوجدت فيه حضور الباحث العاشق لتراث وطنه، والخبير الذي يمسك بيد القارئ ليعرّفه بأسرار كانت تلمع في الذاكرة الشعبية كما تلمع في أسواق الذهب والأحجار.

لقد جاء هذا الكتاب ليؤكِّد أن الثقافة القطرية ليست فقط نصوصًا في التاريخ أو فنونًا على خشبة المسرح؛ بل هي، أيضًا، ذاكرة الأشياء؛ ذاكرة الحلي التي زينت النساء، والخرز الذي عبر القوافل، والأحجار التي شكّلت جزءًا من حياة الناس اليومية. كان المناعي في كتابه يكتب بحبر المعرفة؛ لكنه، في الوقت نفسه، يكتب بلغة العاطفة التي تحفظ للتراث بريقه.

كلما قلبت صفحاته شعرت أنني لا أقرأ مادة علمية فحسب؛ بل أتنفس هواءً من زمن آخر، زمنٍ يحضر فيه الجمال والرمز، ويجتمع فيه العلم بالشعور. وهكذا صار الكتاب بالنسبة لي واحدًا من تلك العلامات التي تؤكِّد أن قطر، في سعيها لبناء حاضرها، لم تغفل عن صون ماضيها، حتى في تفاصيل تبدو صغيرة؛ لكنها تختزن حياة كاملة.

لم تكن هذه الكتب مجرَّد عناوين عملت عليها؛ بل كانت رحلات معرفية أغنت فهمي للهويَّة القطرية، وعمّقت علاقتي بالباحثين والمبدعين، وأشعرتني أنني أشارك في صياغة ملامح ذاكرة وطنية نابضة بالحياة.

إن كتارا بالنسبة لي ليست مجرَّد حي ثقافي، ولا مجرَّد اسم قديم خرج من خرائط بطليموس.

إنها تجربة شخصية ووجدانية عميقة: أثّرت فيّ وأثّرت فيها. كل زيارة لها هي عودة إلى بيت له جدران من الذاكرة وأسقف من المستقبل. ولهذا ستظل كتارا علامة بارزة في مسيرتي، مثلما هي معلم حي في مسيرة قطر، عاصمة للثقافة على شاطئ الخليج.

مجلة أسواق الخليج

كانت الدوحة في منتصف الثمانينيات مدينة تنمو على مهل، يختلط فيها عبق البحر برائحة الورق والحبر، وتتشكَّل في مقاهيها ومجالسها دوائر من حوار لا ينقطع حول الأدب والفكر والسياسة. كانت المجلات والصحف نافذة للناس على العالم، تُقرأ بشغف في الصباح، وتُتداول في البيوت والمكاتب، وتُعلق أخبارها على الجدران كأنها رسائل يومية من زمن يتغير بسرعة. وسط هذا الحراك الثقافي والصحفي، وجدت نفسي أقترب شيئًا فشيئًا من الإعلام العلمي، أبحث له عن موطئ قدم بين زحام الكلمات.

في تلك الأجواء، تلقيت دعوة من الأستاذ محمد سالم الكواري، رئيس تحرير مجلة أسواق الخليج. وهي مجلة أسبوعية متخصصة في الاقتصاد والتجارة، تصدر عن دار النبأ للصحافة والطباعة والنشر. ابتسمت يومها وقلت له صريحًا: «يا أبا سالم، أنا بعيد عن الاقتصاد وشؤونه، ما يشغلني هو العلوم والتكنولوجيا». فرد عليَّ قائلاً: «ونحن أيضًا نهتم بالعلم والتكنولوجيا، فلتكتب إذن وستجد مكانك بيننا». قلت له: «إذًا سأكتب ما يمكن أن نسميه بين بين».

ومن تلك اللحظة، فتحت لي المجلة بابًا جديدًا للتجربة والبحث. اخترت أن أكتب تحت عنوان رئيس يبتعد عن السياسة وضجيجها، فكانت زاويتي الأسبوعية بعنوان: (بين بين وأشياء أخرى). لم تكن مقالاتي تقارير جامدة؛ بل محاولات صادقة لتبسيط المعقّد وتفكيك اللغة الاصطلاحية التي قد تُشعر القارئ أنها تتحدَّى استيعابه. كنت أؤمن أن اللغة إذا جفَّت نفر منها الناس، وإذا تزيَّنت بلمسات الأدب عادوا إليها بشغف؛ لذلك سعيت أن أجعل المادة العلمية «مادة متأدبة»، تتوشح بالصور والمعاني، دون أن تُفرّط في الحقيقة العلمية أو تبتعد عن دقّة المصطلح.

كنت أقرأ عن موضوع علمي جديد، ثم أكتبه كما فهمته وتذوقته، أصوغه في صورة مشهد أو حكاية، أجعل العلم فيه قريبًا من الحياة اليومية، يدخل البيوت والقلوب بسهولة. وكنت أبحث عن عناوين تجذب القارئ إلى المائدة: العلم في العسل، أو العلم في المطبخ، أو غيرها من العناوين التي توحي بأن

المعرفة يمكن أن تكون حلوة المذاق، قريبة من تفاصيل يومه. وبهذه الطريقة شعرت أنني أضع العلم على طاولة أنيقة، وأقول للقارئ: تفضل، هذا لك، ليس بعيدًا عنك كما تظن.

ومع الوقت، وجدت أن هذه التجربة لاقت صدى واسعًا لدى القراء. كانوا ينتظرون المقالة من أسبوع إلى أسبوع كما لو كانت موعدًا ثابتًا يجددون به علاقتهم بالمعرفة. بعضهم كتب لي يقول: «قرأنا مقالك ولم نشعر أننا أمام مادة علمية؛ بل أمام حديث ودود». عندها أدركت أنني وجدت خطّي الخاص في الكتابة، وأن ما أكتبه ليس مجرَّد مقالات متناثرة في مجلة اقتصادية؛ بل نواة لمشروع أكبر.

تجمعت تلك المقالات عبر سنوات، تراثا صغيرًا أعتز به؛ لكنه ظلّ متفرقًا بين أعداد الصحف والمجلات. وظلت في داخلي رغبة قائمة، حلم لا يغيب: أن أجمع هذا المتفرق في كتاب واحد، ليكون متاحًا لأبناء اليوم وغد، يطالعونه دفعة واحدة بدل أن يظل مبعثرًا في الأرشيف. وقد تحقق بعض ذلك لاحقًا في كتابي العلم والحياة؛ لكنه سيظل دائمًا شاهدًا على أن الكلمة إذا خرجت صادقة وجدت طريقها، وأن العلم إذا لبس ثوب الأدب صار أقرب وأجمل.

كانت المجلة تتلقى دعمًا كريمًا من الدولة، فذلك الدعم كان بمثابة شريان حياة يمدّها بالقوة لتستمر وتزدهر. وحين انقطع هذا الشريان، خفت صوتها شيئًا فشيئًا، حتى توقفت عن الصدور. يومها أحسست أن نافذة أُغلقت فجأة، وأن صفحة من صفحات الحراك الثقافي في الدوحة قد طُويت بصمت؛ لكنها لم تُمحَ من الذاكرة. فقد بقيت تلك التجربة حيّة في وجداني، تحمل نغمها الخاص، وتذكِّرني بأن ما يُكتب بصدق يظلّ يتردَّد في القلوب، حتى لو صمتت المجلات وتوقفت المطابع.

لقد علَّمتني تلك التجربة أن العلم إذا لم يتأدب يصبح قاسيًا على القلوب، وإذا لم يصدق يصبح غريبًا عن الناس. أما إذا تسربت إليه روح الأدب ووشحته لمسة صدق، فإنه يتحوّل إلى حياة.

الأعراس القطرية

كانت الأعراس القطرية نافذتي الأولى على روح المجتمع، على دفئه وبساطته وكرمه. هناك، تحت سقف الخيمة، كان الفرح له طعم آخر. يجتمع الرجال في مكانهم، والنساء لهن تجمعهن في البيوت، لكلٍ مساحته وحضوره، وكل شيء يبدو منظَّماً كأنه لوحة متقنة.

في الدوحة كان من واجبنا أن نجامل أهل البلد الذين أحاطونا بمودة صافية. معظمهم كانوا زملاء لنا في الجامعة: طلابًا، وأعضاء هيئة تدريس، وإداريين. كانوا يدعوننا لمناسباتهم الاجتماعية، فنشاركهم أفراحهم، ونقف إلى جوارهم في أحزانهم، ونستقبل معهم العائد من حج أو دراسة وكأنه واحد منّا.

القطريون يسافرون ويعودون وكأنهم لم يغادروا البلد أصلاً. سفرهم جزء من حياتهم اليومية. أما نحن المصريين فكان للسفر عندنا طقوسه وهيبته؛ نودّع ونتأهب ونحتفي بالذهاب والعودة كأنه حدث استثنائي.

عندما تصلني بطاقة الدعوة لحفل زفاف - بطاقة أنيقة مزخرفة بخط جميل، غالبًا ما يخطها أحد الأساتذة - أشعر بفرح خفي، وأتفق مع الزملاء أن نذهب معًا. وكان من عادة أهل قطر أن الدعوات الموجهة للرجال تأتي منفصلة عن دعوات النساء، ولا يُذكر فيها اسم الزوجة صونًا لحرمة النساء، بينما يكتب الاسم في دعوات النساء فقط. كان هذا جزءًا من تحشم المجتمع القطري وتقديره لمكانة المرأة.

كنّا نتواعد نحن المصريين أن نذهب معًا، لنكسر شعور الغربة ونجد أنسًا ورفقة في الطريق والجلوس. كنّا نعتبر المناسبة فرصة لتمتين الصداقات، نتبادل الأحاديث ونستعيد الذكريات.

وعندما نصل إلى مكان العرس، غالبًا ما نجد خيمة واسعة مزدانة بالثريات ومكيّفة الهواء، وأمامها ساحة رحبة مفروشة بالسجاد، معدّة لرقصة العرضة التي يؤديها شباب العائلة. هؤلاء الفتية -أكثرهم دون الخامسة والعشرين- يرقصون وكأنهم يحتفلون لأنفسهم، بعضهم لم يتزوج بعد فيشارك كأنه يتفاءل بعرسه القادم.

ندخل الخيمة من بابها الرئيسي فنجد ممرًا يقودنا مباشرة إلى حيث يقف العريس، إلى جانبه والده أو أخوه الأكبر أو من ينوب عنه، وأحيانًا يقف الجد أيضًا. يستقبلون المهنئين بوجه بشوش متعطر بالعود والعنبر. في الشتاء يرتدون البشت الأسود الثقيل، وفي الصيف البشت السكري الخفيف. نهنئ العريس ووالده، نلتقط صورة تذكارية، ثم نأخذ مكاننا بين صفوف المقاعد إلاَّ إذا أصر صاحب العرس أن نجلس بالقرب منه.

وكنّا - نحن أصحاب «البدل الأفرنجية» - نجلس معًا، وبالقرب منّا ضيوف آخرون من دول عربية شقيقة، نتبادل أطراف الحديث: من أين أتيت؟ أين تعمل؟ ومتى جئت إلى قطر؟ وكيف حال العائلة؟ هذه اللحظات كانت تصنع جسورًا صغيرة بيننا وبين الآخرين، تجعلنا نشعر أننا جزء من المجتمع لا غرباء عنه .

نظل جالسين حتى صلاة العشاء التي تُقام جماعة داخل الخيمة. بعدها تُرص الموائد على الأرض أو على الطاولات، وتُقدَّم الصواني بما لذّ وطاب. طعام يبهج العين قبل أن يبهج النفس. كنّا في شبابنا نلبي الدعوة بحماس، أما مع مرور السنوات فقد صرنا نعتذر أحيانًا عن المشاركة؛ لكن موائد أهل قطر لا تخذل أحدًا. تُعِدّ لما هو أكثر من الحاضرين، لأنهم يعرفون أن ثمة من سيأتي من غير المدعوين، فيجد نصيبه من الطعام وكأنه ضيف الرحمن. وكان ذلك الطعام ليس كأي طعام؛ بل طعام فاخر، مطبوخ بعناية، مغموس بكرم القوم وطيبة قلوبهم.

ولم تزل هذه الطقوس حاضرة إلى وقت قريب، وإن كان بعض الناس قد فضّل إقامة الأعراس في قاعات الفنادق الفخمة، وكان ذلك علامة على تحول المجتمع وازدهاره.

أما الأعراس في الفنادق، فقد كانت تقام في قاعات الفنادق حيث يلتقي التقليد بالحداثة. الفرح هو الفرح؛ لكن كل شيء يبدو بريقه مختلفًا. كنّا نعتبر الذهاب إلى هذه الأعراس فرصة لنعيش أجواء الفنادق الكبرى؛ الشيراتون، فندق الخليج، وفندق الواحة كانت أيقونات تلك الحقبة.



◉ الصورة لفندق الواحة، شرق الدوحة، عام 1965م، أرشيف مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية

مؤخـرًا، زادت الدولـة فأكرمت أهلهـا بأن بنت لهم مجمعات حديثة للمناسـبات، فيهـا قاعـات فسـيحة أجمل من قاعـات الفنـادق، مجهزة على أعلى مسـتوى، ولكل قاعـة اسـم صاحـب العـرس مكتـوب على بابهـا. أحيانًـا كنـا ننتقـل مـن قاعـة إلى أخـرى لنهنـئ أكثر مـن عريس في أمسـية واحدة.

في تلـك القاعـات كان التوثيـق حـاضًرا بقـوة: نصطف بجـوار العريـس ووالده، تُلتقـط لنـا صـور تذكاريـة، وتـدور كاميرا الفيديـو الكـبيرة لتوثـق كل شيء. أحيانًـا كانـت تُعـرض صورنـا فـورًا على شاشـة كـبيرة بالبروجيكتـور، فنرى أنفسـنا ونحـن ندخـل ونصافـح ونخرج، وكأننا نشـارك في مشـهد سـينمائي لا يُـنسى. وكان المصوّر غالبًـا رجلاً مصريًـا نعرفـه، فنشـعر بألفـة معـه ونوصيـه أن يعطينـا الصـور - ولا يفعـل أبـدًا؛ لكنـه يبتسـم ويعدنا كل مـرة. !

أجمـل مـا في هـذه المناسـبات أنـك قـد تصـادف صديقًـا لم تـره منـذ سـنوات، فتتجـدَّد الصحبـة والابتسـامة، وتعـود الألفـة القديمـة وكأنهـا لم تغـب يومًـا.

في مجلس العزاء القطري

العـزاء في قطـر كان وجـه المجتمـع الآخر، الوجـه المجبول على الصبر والسـكينة والتسـليم لقضـاء اللـه. هنـاك تعلَّمـت درسًـا عميقًـا في معنـى الرضـا، ورأيـت كيف يمكـن للحـزن أن يكـون صامتًا وجليلًا، في الوقت نفسـه.

عندمـا يصلنـا خبر وفاة أحـد المعارف أو زملائنا أو أقاربهـم، كنّا نتهيأ في هدوء ونذهـب إلى المسـجد حيـث تقـام صلاة الجنـازة. غالبًا ما تكون في مقبرة مسـيمير. ندخـل المسـجد فنجـد الصفـوف مصطفّـة في نظـام وهيبـة، والوجـوه يعلوها حزن صامـت، مسـحة وقـار أكثر منهـا جزعًـا. نـصلي الفريضة، ثـم نـصلي على المتوفى، وبعدهـا نمضي في موكـب مهيـب إلى المقبرة.

المقابـر هنـاك بسـيطة متشـابهة، كأنهـا لوحـة هندسـية مرسـومة بعنايـة: ارتفاع بسـيط مـن التراب، ورقـم معـدني صـغير يعلـوه، والقبـور مصطفّـة في خطـوط متعامـدة على مسـاحة واسـعة تمتـد أمـام الـبصر. هنـا لا تعـرف فـقيرًا ولا غنيًـا، لا مقـيماً ولا مواطنًـا، الجميـع سـواء. مشـهد يذكّـرك بعدالـة الآخـرة، ويعيـد ترتيب المعـاني في داخلـك.

بعـد انتهـاء الدفـن -وهـم يسـمونه «الدَّفّـان»- يذهـب أهـل الفقيـد ليـغيّروا ثيابهـم، ومنهـم مـن يجـدِّد وضـوءه اسـتعدادًا لاسـتقبال المعزيـن. يتوجَّـه الجميـع إلى مجلـس واسـع أو سرادق كـبير مفـروش بالسـجاد، تفـوح فيـه رائحـة القهـوة العربيـة والهيـل. يجلـس أهـل المتـوفى في صـف واحـد، يواجهـون الداخـلين الذين يصافحونهـم واحـدًا واحـدًا، ثـم يجلسـون دقائـق في صمـت قبـل أن ينصرفـوا. لا نـواح، ولا تلاوة مرتلـة عبر مـكبرات الصـوت، فـكل شيء عندهـم بين العبـد وربه، في هـدوء يبعـث الطمأنينـة ويضاعـف مـن أثـر الموقـف في القلـب.

وفي ليلـة العـزاء، يقـدِّم أهـل الفقيـد طعامًـا سـخيًا للحاضرين. تُـرصّ الصواني بالذبائـح، فيـأكل المعـزون وأهل الميت الذين قضـوا اليوم كله في إجـراءات الدفن. كـرم الضيافـة لا يغيـب حتـى في لحظة الفقد؛ بـل يصبح جزءًا من طقس المواسـاة. كانت تلك المشـاهد عظيمة في بسـاطتها، تعلّمك أن الحزن يمكن أن يُعاش بكرامة، وأن الضيافـة يمكـن أن تكـون فعل إيمان، لا مجرَّد عـادة اجتماعية.

هكـذا جمعتنـي الحيـاة بمشـهدين متقابلين: فـرح في الخيام وقاعـات الفنادق، وحـزن في المقابـر والمجالـس. وفي كل مشـهد كنـت أتعلَّـم شـيئًا جديـدًا عـن قطـر وأهلهـا، عـن كرمهـم، وصبرهم، وعن بسـاطة العيـش حين تقترن بالعـزة والكرامة.

لقـد منحتنـي هذه المشـاركات إحساسًـا أعمق بالانـتماء، وجعلتنـي أكثر قربًا من طلابي وزملائي في الجامعـة، أقـرأ شـخصياتهم بـعين أوسـع، وأتفهّـم خلفياتهـم الاجتماعيـة والثقافيـة بشـكل أفضل، فحضـور مثل هذه المناسـبات، أفراحًا كانت أو أتراحًـا، كان يمنحنـي شـعورًا بالمودة والاحترام المتبادل، ويؤكِّد لي أن الغربة ليسـت دائمًـا جـدارًا؛ بـل قد تكـون جسرًا يصـل بين قلبين.

جهود قطرية في الحفاظ على الحياة الفطرية

منذ السبعينيات وأنا أراقب، بعيونٍ يملؤها الإعجاب، تفاعلَ القطريين مع بيئتهم، وكيف كان وعيهم البيئي ينمو في صمتٍ، دون ضجيجٍ أو شعارات. كان الحسُّ البيئي عندهم فطريًا، نابعًا من صميم الحياة الصحراوية، ومن فهمٍ عميقٍ لقيمة البقاء في وجه القسوة والندرة. رأيتهم يحرصون على حماية النباتات البرية من الرعي الجائر، ويصونون الروضَ والسهول كما يصونون ذاكرتهم، يجمعون البذور ويزرعونها في مواسم أخرى، ويتركون للحياة أن تدور في دورتها الطبيعية بلا تدخّلٍ جائر. كانت رحلات المقناص عندهم ليست للصيد وحده؛ بل كانت رحلات محبةٍ ومعرفة؛ يجمعون فيها النباتات والحيوانات ليؤنسوها ويؤنسوا بها، يحفظونها من الانقراض كأنهم يحرسون سرَّ الله في المخلوقات.

فقد عُرف الشيخ جاسم بن حمد بن عبد الله آل ثاني بشغفه برحلات القنص التي كانت جزءًا أصيلاً من تراث قطر والبادية. لم يكن القنص عنده مجرَّد هواية؛ بل ممارسة تنطوي على معرفة دقيقة ببيئة الصحراء وطبائع كائناتها. وقد اشتهر الشيخ جاسم بصيده الماهر لحيوان المها العربي، أو ما يُعرف محليًا بـ الوضيحي، وهو من أندر الحيوانات التي كادت تنقرض من شبه الجزيرة العربية.

وإدراكًا منه لقيمته البيئية ورمزيته الثقافية، كان الشيخ جاسم أول من سعى إلى حماية هذا الحيوان والحفاظ على سلالته قبل أن تنشأ الجمعيات الرسمية المعنية بالمحافظة على الحياة البرية بسنوات طويلة. فكان سابقًا لعصره في وعيه البيئي، ومؤمنًا بأن المها يمثل روح الصحراء، وجمال توازنها الطبيعي، فحافظ عليه وصانه ليبقى رمزًا للبيئة القطرية الأصيلة.



◉ صورة من إحدى المحميات القطرية

لقد كان من حظي أن أتعرف إلى الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني، الرجل الذي جمع بين حنين الماضي وبصيرة المستقبل. عرفته من خلال أحاديثه ورؤيته في جمع الطيور والحيوانات النادرة لتعيش في موئلٍ آمنٍ، أخذ هذا الاهتمام من والده الذي أسس هذه المحمية لتحظى فيها الحيوانات النادرة بالرعاية والعناية البيطرية والعلمية. وعندما زرت مزرعة الوَبْرَة التي يشرف عليها، شعرت أنني أمام تجربةٍ تتجاوز حدود الهواية. كانت الوبرة مشروعًا علميًا بيئيًا بكل معنى الكلمة، تجتمع فيها أنواع الطيور والغزلان والمها والوعل في بيئةٍ منظَّمةٍ تسودها السكينة والنظام. تابعت ما كُتب عنها في المجلات العالمية المتخصصة مثل (Zoo Yearbook)، وقرأت التحقيق الذي نشرته مجلة العربي الكويتية، وكيف أشادت منظَّمتا اليونيب واليونسكو بجهود القائمين على المزرعة ومنحتاها جائزةً دوليةً في الحفاظ على الأنواع المهددة بالانقراض. هناك أدركت أن ما يفعله الشيخ حسن لم يكن ترفًا أو هواية؛ بل رسالةَ حياةٍ تتجاوز حدود المكان والزمان.

في سهول قطر ورمالها الممتدة نحو الشمال الغربي والجنوب الشرقي، ما زال وقع الصحراء يحتفظ بصدى القدماء، حيث تنساب الحياة البرية في انسجام مع القحط والريح والفراغ الجميل الذي تتنفس فيه الكائنات حريتها. ومن هنا بدأت رؤية الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني، الذي جمع بين شغف الصيد ومعرفة البيئة ووعيٍ مبكر بضرورة حفظ التنوع الطبيعي في شبه الجزيرة العربية. ففي مقابلة معه مع مجلة العربي الكويتية عام 1988م، قال الشيخ حسن: «لقد نشأتُ في بيئةٍ تمتد بين الرمال والبحر، في بيتٍ كان مفتوحًا لكل الزائرين والمهتمين بالحياة البرية، وفيه بدأت أتعرف على أنواع الغزلان والمها، وأسمائها القديمة التي ورثناها عن الآباء والأجداد». فنحن نُسمي المها البيضاء الوضيحي، وهي التي تتميَّز بجمالها وقرونها الطويلة الملتوية كالسيفين، ولونها الأبيض الذي يشوبه ظلٌّ رمليٌّ في الصيف. وأحيانًا تُعرف أيضًا باسم (الأدكس)، وهي كلمة استخدمها العلماء الأوروبيون من أصلٍ لاتيني، وتعني «الحيوان الأبيض». ويتابع في حديثه عن الغزلان: «الغزال العربي يمتاز بجسمه الرشيق وطول ساقيه وسرعته في الجري، ولون جلده المائل إلى الحمرة الفاتحة. أما الغزال الجبلي، الذي نراه في مناطق الهضاب، فهو أصغر حجمًا وأكثر

حـذرًا وذكاءً، يعـرف طريـق الماء مـن الريـح، ويختـار ظل الصخور ليسـتظلّ بها في قيـظ النهار».

ثـم ينتقـل الشـيخ حسـن إلى الحديـث عـن الأسماء القديمـة التـي كان يسـمعها مـن البـدو والرعـاة، فيقول:

«في شمال الصحـراء الـكبرى، يُعـرف الغزال باسـم (BARA)، وهو لفظ قريب مـن كلمـة (البرّ)، أي الأرض الواسـعة، وهـو وصـف دقيـق لحياتـه في البريـة. أمـا في اللهجـة العربيـة القديمـة، فننطقها (بِـرَعْ)، ويُخفّفها بعضهـم لتصبح (برا). وفي الجزيـرة العربيـة القديمة، كانت الكلمة نفسـها تُطلق على الغـزال وعلى الظبي على حـد سـواء». ويختم حديثـه قائلاً:

«اهتمامـي بالحيوانـات البريـة لم يكن لمجـرَّد الصيد؛ بل كان بحثًا مسـتمرًا عن أصولهـا، وعـن كيفيـة تكيّفها مع البيئة العربية القاسـية. كنـت أراقبها في الصحراء، أتعلَّـم مـن سـلوكها وصبرهـا، وأدرك أن هـذه المخلوقـات تحمـل في جيناتهـا قصـة الصحـراء كلهـا، مـن الجفاف إلى المطـر، ومن الفنـاء إلى البقاء».



◉ الغزال أحد أهم حيوانات محمية الوبرة

وفي الغرافة زرتُ الشيخ علي بن عبدالله بن ثاني بصحبة الشيخ حسن، وكان لقاؤه كاشفًا عن جانبٍ آخر من هذا الوعي البيئي القطري. دعاني إلى جولةٍ في حديقة منزله، فوجدت نفسي أمام مركزٍ علميٍّ بيطريٍّ لتربية الصقور وتفريخها، يضاهي في تجهيزاته مراكزَ الأبحاث العالمية التي تتولاها عادةً الدول. كان كل شيء منظَّمًا بعنايةٍ مدهشة، يجمع بين التراث والعلم، بين الشغف والدقة. وحين لمح الشيخ علي دهشتي، ابتسم وقال: «تعال إلى أم حيش، لترى الأصل والاتساع». وبعد أيامٍ كنت هناك، في رأس أم حيش بالقرب من دخان، أمام مزرعةٍ تمتد كواحةٍ من العناية والعلم، فيها الخيول العربية الأصيلة والصقور والحباري من سلالاتٍ متعددة، وفيها مرافق حديثة للرعاية والتكاثر. وقفت متأمِّلًا وأنا أقول في نفسي: هؤلاء الرجال يعملون في صمتٍ موازٍ لجهود الدولة، يزرعون ويربّون ويحفظون وجه قطر الجميل، وجهها الرحيم والعالم والوفيّ لبيئتها.



◉ المؤلف مع سعادة الشيخ علي بن عبدالله بن ثاني، في معامل التفقيس - أم حيش

ولعلّ ما سمعناه لاحقًا من تصريحات الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني، صاحب محمية أم حيش، يؤكّد امتداد تلك الرؤية التي شهدتها بعيني قبل عقود. فقد أوضح في حديثه لوكالة الأنباء القطرية أن المحمية تأسست عام 1950م على يد الشيخ عبدالله بن ثاني بن جاسم آل ثاني، رحمه الله، وتضم الغزلان والحبارى ومجموعةً من الطيور إلى جانب الصقور. وأشار إلى أن جهودهم استمرت عبر السنين في تفريخ طيور الحبارى والقطا والكروان وإطلاقها في براري قطر لتتكاثر، بعد أن كانت من الأنواع النادرة التي اندثرت وانقرضت. وأكّد أن المشاركة الدائمة للمحمية في معرض سهيل الدولي للصيد والصقور تجسّد هذا الاهتمام المتجذّر، إذ تواصل أم حيش دورها في حفظ التراث وإحياء الأنواع المهددة، وفي ربط الشغف بالصيد بالوعي بالحياة واستمرارها.

أما زيارتي إلى جزيرة حالول فكانت مغامرةً من نوعٍ آخر. كانت زيارةً رسميةً حكومية، أقلتنا فيها طائرةُ (هليكوبتر)، إلى الجزيرة التي تقع على بُعد تسعين كيلومترًا تقريبًا من سواحل قطر في قلب الخليج. كنت مكلفًا بإجراء مسحٍ للحياة الفطرية النباتية، ولم أكن أتوقع أن أجد ما وجدته هناك. كانت الجزيرة تبدو من الأعلى صخريةً قاحلة؛ لكن ما إن هبطنا حتى انكشفت أمامي حياةٌ كاملةٌ تنبض في صمت. رأيت نباتاتٍ صغيرةً تتشبث بين الصخور، وغزلانًا وقطعانًا من المها الوضيحي ترعى بطمأنينة، تتحرك بخفةٍ على سطح الجزيرة وهي تلتقط الكلأ الذي يزين الأرض الجافة بخيوطٍ من الحياة. قطعت الجزيرة من أولها إلى آخرها وأنا مأخوذٌ بالفكرة: أن تكون هناك محمياتٌ طبيعيةٌ للأنواع المهدَّدة بالانقراض في أماكن نائية يصعب الوصول إليها، حيث تحرس الطبيعة نفسها بنفسها. يومها، أيقنت أن الشيخ أحمد بن علي آل ثاني -حاكم قطر آنذاك- كان يمتلك رؤيةً بعيدةً حين جعل من حالول جزيرةً آمنةً للحياة البرية، تحيط بها المياه من كل جانب، فتمنح الكائنات عزلةً كريمةً تحميها من الخطر.

وبفضل هذه الجهود تعزّز النظام الحيوي في الجزيرة، فازداد الغطاء

النباتي الأخضر، وتنوّعت المناظر الطبيعية من النباتات والشجيرات التي أصبحت عنصر جذبٍ للطيور المهاجرة. وأذكر أنني كنت أتابع بفضولٍ نموَّ الحياة هناك؛ فقد تحولت الجزيرة إلى موطنٍ لقطيعٍ من الماعز الجبلي الذي كان يُقدَّر عدده بنحو ثمانين رأسًا حين بدأت التجربة في ستينيات القرن الماضي. ومع مرور السنين، تناقص العدد الطبيعي بفعل التوزيع على المحميات الأخرى؛ لكن ظلت الفكرة حيّةً في بيئةٍ تحرسها الرؤية أكثر مما يحرسها السور. كما شهدت الجزيرة تكاثر أنواعٍ عديدة من الطيور الجارحة وطيور البحر والشاطئ والحقول والصحارى، إلى جانب حياةٍ بحريةٍ غنيةٍ بعشرات الأصناف من الأسماك والشعاب المرجانية. كنت أرى في ذلك درسًا بليغًا في معنى التوازن، وكيف يمكن ليدٍ بشريةٍ رحيمة أن تعيد للطبيعة توازنها المفقود.

وفي تلك الرحلة، أيضًا، لفت نظري اهتمامهم بالسلاحف البحرية التي تتخذ من الشواطئ الثلاثة المخصصة لها موضعًا للأعشاش في شهري مارس وأبريل. كان المشهد يدهشني: كائنات تعود في موعدها كل عام، كأنها تعرف أن هناك من ينتظرها، يرعاها، ويؤمن بدورتها المقدسة في الحياة. ومع اتساع الرقعة الخضراء وتشجير المساحات، رأيت بأم عيني آلاف الأشجار التي غُرست عبر العقود، بعضها مقاومٌ للملوحة، وبعضها أُدخل لإغناء الغطاء النباتي وتجميل الجزيرة. يومها أحسست أني لا أرى جزيرةً فقط؛ بل أرى فكرةً تُثمر، وجهدًا طويلاً يتنفس خضرةً وأملاً.

وحين أستعيد اليوم تلك المشاهد - الوبرة وأم حيش وحالول - أشعر أنني لم أكن مجرَّد شاهدٍ على تجارب بيئية؛ بل على روحٍ قطريةٍ تعرف كيف تصون الحياة. كان أولئك الرجال يعملون في صمت، يزرعون الأمل في رمالٍ عطشى، ويربّون الطيرَ والظبيَ كما يربّي الإنسان فكرةً نبيلةً في قلبه. لم ينتظروا تكريمًا ولا شهرة؛ كانوا يعرفون بالفطرة أن الرحمة أعلى من الصيد، وأن حماية كائنٍ صغيرٍ عبادةٌ من نوعٍ آخر.

الآن، وأنا أكتب هذه السطور في هدوء السبعين، أرى أن ما فعلوه لم يكن مجرَّد مبادرةٍ بيئية؛ بل بيانًا أخلاقيًا عن معنى الاستخلاف في

الأرض: أن تُعمّرها بالعلم، وأن تحميها بالعطف، وأن ترى في كل مخلوقٍ مرآةً لوجودك الإنساني. لقد علَّمتني تلك الوجوه وتلك الرحلات أن البيئة ليست غطاءً أخضر نحافظ عليه؛ بل ذاكرةً وهويَّةً، امتدادَ الإنسان في الطبيعة وصدى الطبيعة في روحه. من يعتني بها إنما يعتني بنفسه، ومن يتركها تذبل يسمح لروحه أن تجف. ما تزال الطيور التي رأيتها تحلّق في ذاكرتي، وما يزال الغزال يركض في وعيي الحرّ، كأنه يذكّرني أن الإنسان لا يُقاس بما يملك؛ بل بما يُبقي حيًّا.

تلك هي قطر التي عرفتها - بلدٌ يصون الحياة، لأن الحياة عنده ليست موردًا... بل معنى.

البيئة تجمعنا

حين أعود بذاكرتي إلى ما يقارب ستةً وأربعين عامًا في قطر، أجد أن اسم الدكتور سيف علي الحجري محفور في مساري كرفيق درب طويل، بدأنا معًا من بيت واحد هو جامعة قطر، في تخصصَين متلازمَين: الجيولوجيا والبيولوجيا. كنّا نسير في طريقَين متوازيَين، يلتقيان كلما نادتنا الأرض، وتتفرّق بنا الاهتمامات حينًا آخر؛ لكن البيئة ظلّت، دائمًا، جسر اللقاء الذي لا ينهار. هو ابن الجيولوجيا، يقرأ الأرض وصخورها ومياهها العميقة، وأنا قادم من عالم الأحياء أتعقّب الحياة في نباتاتها وطيورها وبحارها. واكتشفنا منذ البدايات أن العلوم لا تتباعد حين تتوحّد الرسالة.

وفي هذه المسيرة كان الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني حاضرًا بعمق؛ رجلًا لم يكتفِ بالرعاية الرمزية والمادية؛ بل انطلق من حبٍّ أصيل للحياة الفطرية. فقد أدار محمية الوبرة وعرف عن قرب هشاشة النظام البيئي واحتياجاته، وأدرك كيف يمكن للوعي أن يحمي هذا الموئل الطبيعي ويعيد له توازنه. كان الشيخ حسن فاهمًا لثقافة مجتمعه، قارئًا للنظام البيئي في تفاعلاته المعقدة، محبًّا للطبيعة كما يحب الكلمة والمعرفة. ما يجعلنا نستفيد منه هو وموروثه البيئي المتراكم من معرفته بسلوك البدو الذين احتكّ بهم في رحلات القنص؛ لذلك تجده عالمًا بحياة البادية وحياة البحر في آن واحد، ملمًّا بأنواع الكلأ وبيوت الشعر وحياة الإبل، وينقل لنا معارفهم. ولم يبخل يومًا بدعم الجهود المخلصة، يساند كل مشروع يهدف إلى نشر الوعي، ويشجّع كل مبادرة تبني جسور المحبة بين الإنسان والأرض. وحيث يكون حاضرًا تشعر أن الطريق أمامك مفتوح، وأن الحلم قابل للتحقق.

كان يردِّد علينا أنه تعلَّم من أبناء البادية درسًا بليغًا في حب الأرض ورعايتها. أولئك الذين عاشوا على حواف القسوة وسط الصحراء الشحيحة كانوا أعرف الناس بنبضها؛ يقرؤون السماء كما تُقرأ الكتب، ويعرفون متى يبشّر الوسمي بالخضرة، وأي ريح تحمل المطر وأيها يثير الغبار. لا يرهقون الأرض برعيٍ دائم؛ بل ينتقلون معها حيث ينبت الكلأ، فيمنحونها زمنًا لتستريح وتستعيد عافيتها.

يُقدّسون الماء فلا يهدرون قطرة؛ يغطّون الآبار ويحرسونها، ويشربون بقدر الحاجة ليبقى المورد لمن يأتي بعدهم. لا يقطعون الشجر الأخضر إلَّا اضطرارًا، ويشعلون النار بعيدًا عن نباتٍ غضٍّ أو غصنٍ حيّ. حتى مخلفاتهم تعود إلى الطبيعة بلا أذى؛ فجِلد الذبيحة يصبح وعاء، والعظم وقودًا، وما بقي للحيوان أو يذوب في الرمل.

كانت البيئة عندهم خلقًا ووصية؛ تنبع من دين ينهى عن تلويث الماء وقطع الشجر عبثًا، ومن أعرافٍ تفرض احترام المكان. لذلك ظلّت الصحراء رغم قسوتها صديقة لهم، تُطعمهم وتظلّهم وتُسلِّمهم للأجيال القادمة أرضًا لا تزال قادرة على العطاء.

وإلى جانب الدكتور سيف والشيخ حسن، وجوه ما زالت حاضرة في الذاكرة وإن غيّبها الموت أو فرّقتها الأيام. أذكر صديقنا الراحل الدكتور إبراهيم القصاص -رحمه الله- أحد أوائل من بدأوا معنا العمل البيئي، بعقله المتقد وروحه العملية. كان ذا علم راسخ وبصيرة نافذة، يقرأ تضاريس الأرض من خلال صور الأقمار الاصطناعية، ويهبط إلى الميدان بعين الخبير. صحبنا في خطواتنا الأولى ونحن نخطط لبرامج التوعية ونرسم خرائط النباتات والمناطق الحساسة بيئيًا. كان حضوره يضيف بعدًا علميًا رصينًا، وروحه العملية تمدّنا بطاقة العمل والأمل.

وأذكر الأستاذ محمد هاشم، شيخ المثقفين العرب في قطر، الرجل الذي حمل رسالة التعليم للمكفوفين بلغة برايل، ثم انضم، لاحقًا، إلى جهودنا في حماية البيئة، ليجمع بين رسالة إنسانية ورسالة بيئية في وقت واحد. كنّا أصدقاء وأعزاء وزملاء عمل وفكر وثقافة؛ جمعتنا الخيام البيئية في البراري، والمنابر الإعلامية، ومؤتمرات الداخل، والخارج. كانت البيئة، في ظلها الوريف، تسعنا جميعًا وتذيب الفوارق بين تخصصاتنا وأعمارنا وتجاربنا.

ومن أجمل التجارب التي صنعت نسيج هذه الرفقة برنامج «أنت والبيئة» في الإذاعة، حيث كنت أعدّه وأقدّمه ليستمع إليه الناس في بيوتهم، وكان الدكتور سيف ضيفًا محببًا يطلّ بين الحين والآخر. ثم جاءت مغامرة «لكل ربيع زهرة»، حلم أردناه أن يربط الأجيال بالطبيعة؛ وضعنا خطته معًا، نحمل عبء إنجاحه سنة بعد سنة. نصطحب الطلاب في معسكرات برية، نعلّمهم أسماء نباتات قطر،

ونغـرس فيهـم سـلوكًا إيجابيًا واحترامًـا للأرض: أن يتركوا المـكان نظيفًا، ويحافظوا على النبتـة الصـغيرة، ويشـعروا أنهـم جـزء مـن هـذا النظـام الحـي. وفي الخيمـة الرمضانيـة كنّـا نربـط الإيمـان بالبيئـة، نحـاور المجتمـع بـروح العطاء والمسـؤولية، ونفتـح أبـواب الحـوار ليصبح حـب الأرض عبادة وسـلوكًا.

كما عشـنا مشـاريع عمليـة كبرى، مثـل: زراعـة نبـات القـرم على سـواحل قطر؛ هنـاك التقـت الجيولوجيـا التـي يتقنهـا الدكتـور سـيف بعلـم الأحيـاء الـذي أحمله، فعملنـا معًـا لترميـم السـواحل وحماية التنوع البحـري. وكنت أكتـب في نشرة البيئة الصـادرة عـن مركـز أصدقـاء البيئـة، أدوّن الأخبـار والمبـادرات، وألقـي الضوء في برنامجـي الإذاعـي على أهـم أخبـار المركـز وأصدقائـه. كان شـعوري، دائمًـا، أننـي أشـارك في كتابـة تاريـخ أخضر لهـذه البلاد.

وعلى الجانـب الآخـر، كانـت لي علاقـات وثيقـة مـع اللجنـة الدائمـة لحمايـة البيئـة؛ كتابـةً ومتابعـةً وتـواصلاً، فإعـداد برنامـج «أنـت والبيئـة» كان يسـتدعي، دائمًـا، أن ألتقـي بأصحـاب القرار السـياسي في مجال البيئة في مختلف مؤسَّسـات الدولـة. ومـن باب أولى أن أذهب إلى المؤسَّسـة الرسـمية، ألتقـي بخبرائها وعلمائها والقـائمين عليهـا. ومنـذ أن كان الأخ عبـد العزيز المدفع يعمل في هـذه اللجنة كنت أتـردَّد عليـه لأخـذ الجديد مـن الأخبار.

وانضـمَّ فـيما بعـد إلى اللجنـة أحـد التلاميـذ النجباء الذيـن عرفْتُهـم في جامعة قطـر، وهـو الأسـتاذ أحمـد حـسين، الـذي كان معنيًّا بـالإعلام البيئـي ويشرف على نشرة اللجنـة، فكانـت لي معه مشـاركات ومسـاهمات متعـدِّدة. وحرصت كذلك على الالتقـاء بالرجـل الـذي يقـف على رأس هذه اللجنة، الأسـتاذ خالد بـن غانم العلي؛ فقـد عـاد لتـوّه من الولايـات المتحدة بعد أن حصـل على درجة الماجسـتير في علوم الـغلاف الجـوي، وبـدأت معرفتـي بـه في تلـك الـفترة. كان خالد يجمـع بين أصالة أبنـاء قطـر وعلمـه في مجال الـغلاف الجوي، وحبّـه لعمله وفهمه الواسـع لمتغيّرات البيئـة، فدعـم برنامـج «أنـت والبيئـة» ودعوتـه إلى تسـجيل لقـاء أو لقاءيـن معـه، تحـدّث فيـهما حديثًـا مـهمًّا أضاء جوانـب من فهمـه العميـق للبيئة والوعـي البيئي الـذي كنّا نحمل رسـالته.

وحين انتقـل مـن موقعـه في اللجنـة إلى العمـل في مجـالات أوسـع، اسـتمرّت

علاقتنا، فقد جذبته، لاحقًا، إلى منطقة التاريخ القطري؛ اهتم بتاريخ بلده وبدأ يكتب فيه، كما تخصّص في دراسات التاريخ، لا سيّما بعد أن اجتمعنا في مكان واحد هو مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية. هناك خرجنا معًا من علم البيئة إلى «البيئة الكبرى» - بيئة المكان والتاريخ والتراث - وسجلنا ذاكرة العمل البيئي نفسه. هكذا أخذنا زورق البيئة وأبحرنا على شواطئ شبه الجزيرة، وترجّلنا على برّها، وسرنا في أرجائها، نرصد كل ما نستطيع أن نرصده، ونجمع شذرات الماضي والحاضر لنصوغ حكاية وطن يحب أرضه ويحميها.

ولم يكن الشيخ حسن يكتفي بما أنجزناه؛ بل كان دائم البحث عن آفاق جديدة لتطوير العمل البيئي ورفعه إلى مستويات أعمق من الوعي والمعرفة. ذات يوم حدثني برغبة رئاسة مؤسَّسة قطر في أن نربط البيئة بالثقافة القرآنية، فاقترحت أن نستضيف أستاذي الدكتور كمال الدين حسن البتانوني فهو الأجدر بهذه المهمة، لكونه قام بأهم منجز تجاه البيئة القطرية عندما أصدر كتابين عن بيئة وحياة النبات في قطر، ولقد أثنى على المقترح الشيخ حسن وقال إنه أفضل من يتولَّى المشروع، ويجعل من البيئة رسالة إنسانية وروحية في آن واحد. وفاتحت الدكتور كمال فاستقبل الفكرة بسعادة غامرة؛ إذ شعر أن العمل البيئي يمكن أن يلتقي مع الإيمان والثقافة، ويجد له في القلوب مكانًا أعمق من مجرَّد الوعي العلمي.

وفي ذلك الأفق المتسع جاءت خطوة أخرى لافتة؛ فقد جاء الدكتور كمال بدعوة من الشيخ حسن؛ لينضم، لاحقًا، إلى مؤسَّسة قطر، ويؤسِّس مشروعًا فريدًا هو الحديقة القرآنية. هناك أظهر سعة علمه ورحابة فكره؛ إذ استطاع أن يرصد بدقة أسماء النباتات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ثم يعمل على جمعها في مكان واحد، لتتحوَّل إلى حديقة معرفة تربط العلم بالإيمان، وتمنح الزائر فرصة أن يرى بأم عينيه ما حمله النص القرآني من إشارات إلى الخلق والنماء والتنوّع. كان ذلك المشروع امتدادًا لفلسفته في جعل البيئة كتابًا مفتوحًا يتلاقى فيه البحث العلمي مع الروح والمعنى ونظَّم مؤتمرًا علميًّا.

ما زلت أذكر تلك اللحظة التي التقت فيها البيئة بالوحي، والعلم بالإيمان. كنت قد قطعت شوطًا طويلاً في طريق البيئة مع صديقي الدكتور سيف علي

الحجـري، حتـى جـاء يـوم أخـذني فيـه إلى حلـم جديـد؛ حلـم أن تتحـول الكلمات المباركـة في كتـاب اللـه إلى واقـع حـيّ يُـرى ويُلمـس ويُشـاهد. كان ذلـك بدايـة الحديـث عـن الحديقـة القرآنية.

كنـتُ يومهـا أشـعر أن كل مـا عملنـا لأجلـه في برامـج التوعيـة وحمايـة الطبيعة سـيفتح الآن بابًـا أوسـع؛ بابًـا يقـود النـاس إلى البيئـة مـن قلـب القـرآن نفسـه. اسـتطاع الدكتـور كمال الديـن حسـن البتانـوني أن يضع القاعدة العلميـة؛ فقد كان موسـوعيًّا، يعـرف كيـف يرصد أسماء النباتـات في القرآن الكريـم ويصوغها معرفةً حيـةً لا تبقـى حبيسـة الكتب.

في ذلـك المؤتمـر العلمـي الـذي سـبق تـدشين المشروع، جلسـت بين الحضـور وأنـا أرى فكـرة كانت هامسـة في أحاديثنـا تتحول إلى مشروع يتحـدث عنه العلماء والـخبراء. تحـدث الدكتـور سـيف عـن الحديقـة كأنهـا ابنٌ مـن أبناء هـذا الوطن؛ قـال إن الفخـر كل الفخـر أن يكـون في قطـر مـكان يجمـع بين الإيمـان والعلـم، ويربـط النـاس بالنبـات كما جـاء ذكـره في كتـاب اللـه، ويغـرس في النفـوس أن القـرآن كتـاب حياة لا كتاب تلاوة فحسـب. كنت أتابع كلماته وأرى فيها كل سـنوات العمـل الميـداني والـصبر والحلم.

ثـم تحـدث الدكتـور كمال الديـن البتانـوني، بصوتـه القـوي وعمـق معرفتـه بالنبـات، لـيشرح للحضـور كيـف أن القرآن أشـار إلى التنـوع والنمـو والإحياء، وأن هـذه الحديقـة سـتكون كتابًـا مفتوحًا يربط كل تلـك المعاني بالـعين والقلب والعقل. شرح كيـف جُمعـت النباتـات واحـدة تلـو الأخـرى، كيـف تهيـأ لهـا المـكان والمنـاخ، وكيـف سيسـتطيع الزائـر أن يلمـس بصًرا مـا يقـرؤه لسـانًا في آيـات اللـه.

بالنسـبة لي لم يكـن المؤتمـر مجـرَّد مناسـبة رسـمية؛ كان نقطـة اكـتمال لمـسيرة بـدأت في الصحـراء ومعسـكرات لـكل ربيـع زهـرة، فقدمـت ورقـة علميـة عرضـت فيهـا لتاريـخ الحدائـق في الإسلام. شـعرت أن كل تلـك الخطى قـادت إلى هنا؛ إلى مسـاحة يلتقـي فيهـا الماضي والمسـتقبل، البادية والحـاضرة، العلـم والدين.

وأنـا أجلـس بين العـلماء والمهتـمين، تذكـرت مـا كان يـردده الشـيخ حسـن دائمًا عـن أن حمايـة البيئـة ليسـت عـملاً تقنيًـا فقـط؛ بـل حبًـا أصـيلاً للحيـاة الفطريـة

ومعرفة بجذورنا وسلوك أسلافنا. ورأيت في مشروع الحديقة القرآنية صورة حيّة لتلك الفلسفة؛ علم دقيق، وإيمان عميق، ورسالة موجهة للأجيال.

خرجت من المؤتمر يومها وقلبي عامر بسكينة واعتزاز. رأيت البيئة التي كانت حلم شبابنا تتحول إلى ثقافة راسخة، وتكتسي برداء القرآن الكريم. كان شعوري أن الرحلة لم تنتهِ بعد؛ لكنها بلغت شاطئًا عزيزًا؛ شاطئ المعنى. وما زلت أرى في كل زائر للحديقة وفي كل طفل يقرأ اسم شجرة ذُكرت في القرآن، ثم يلمسها بيده، ثم ينحني يشمّ رائحتها، ثم يبتسم - أرى في ذلك امتدادًا لرسالتنا ولحلمٍ بدأناه قبل عقود

وهكذا يبقى الشيخ حسن الداعم الكبير والرؤية الحاضنة لكل جهد يبذل في مجال حماية البيئة. وأذكر - أيضًا - أولئك الرفاق - إبراهيم القصاص، محمد هاشم، وغيرهم - يضيئون الذاكرة كلما استدعيت بدايات الطريق. واليوم، وأنا أكتب في سبعيني، أشعر أن ما جمعناه تحت ظل البيئة لم يكن عملاً عابرًا؛ بل حياة كاملة من الصداقة والمعرفة والبناء المشترك. لقد صارت البيئة بيتنا الكبير الذي وسِعَ أحلامنا وأسماءنا وأجيالاً جديدة ستواصل المسير.

الرياضة كخيار وطني

لم أعش البدايات الأولى للرياضة في قطر في ستينيات القرن الماضي؛ لكنني حين جئت إلى الدوحة في عام 1979، كانت الملامح قد ارتسمت، والروح الرياضية بدأت تكبر في صدور الشباب. في شوارع المدينة البسيطة آنذاك، وفي ملاعبها الناشئة، كنت ألمح بذور شغف تحلم بما هو أبعد من حدودها.

كانوا يحدثونني عن استاد الدوحة، أيقونة الستينيات، وعن المنتخب الذي خاض أولى مبارياته الدولية في عام 1970 أمام البحرين. كنت أستمع إليهم وكأنني ألتحق بركب حكاية بدأت قبلي؛ لكنني صرت جزءًا منها منذ اللحظة الأولى. كانت الرياضة يومها أكثر من مباريات كرة؛ كانت طموح وطنٍ صغير في حجمه، كبير في أحلامه.

مع هذا الحراك شعرت بأن الثقافة يمكن أن تجد موطئ قدم إلى جانب الرياضة، فالكثير من الأندية الرياضية كانت - أيضًا - منابر ثقافية في الصيف، تستقطب طلاب المدارس بأنشطة متنوعة. كان الشبان بحاجة إلى تجديد أجواء الترفيه والمعرفة، وهناك وجدتُ فرصة لأقدِّم محاضرات عن البيئة القطرية، فكانت البداية نحو نشر الوعي البيئي بين شباب الأندية. تعرفتُ في تلك المرحلة إلى الكابتن محمد مختار، الذي كان مسؤولاً عن النشاط الرياضي في النادي الأهلي. دعاني لأشاركهم بتقديم محاضرات، وتطورت التجربة لنخرج مع الشباب في رحلات استطلاعية إلى البيئة القطرية؛ نتعرّف على عناصرها ومكوِّناتها، ونغرس فيهم حب المكان وإدراك قيمته. كانت تلك التجربة سريعة؛ لكنها عميقة الأثر، إذ جمعت بين الرياضة والمعرفة بطريقة جذابة. وكانت هناك أنشطة مماثلة في أندية أخرى، مثل: السد، والريان، وكل نادٍ كان يسعى للتميّز واجتذاب المزيد من الأعضاء ومحبي الرياضة. كانت الرياضة بوابة طبيعية لرعاية الشباب وتنويع اهتماماتهم، فغدت الأندية مراكز جذبٍ اجتماعي وثقافي. ومع مرور الوقت تطوّر العمل الرياضي عامًا بعد آخر، خصوصًا مع استمرار دورات الخليج واشتداد المنافسة بين الأندية والمنتخبات الخليجية. كنت ألاحظ كيف ارتفع مستوى الوعي الرياضي، حتى أصبحت الكرة الساحرة تجذب الجماهير والممارسين على نطاق واسع. ومع توسع الحلم بدأ الطموح القطري

يتجه إلى تنظيم دورات إقليمية ودولية كبرى. في تلك الفترة ظهرت اللجنة الأولمبية القطرية والاتحادات الرياضية المتخصصة، وبدأت الرياضة القطرية تتنوّع بعيدًا عن حصرها في كرة القدم؛ برزت ألعاب، مثل: العدو، ورفع الأثقال، والسباحة، وكمال الأجسام، والرماية، والبولينغ، وغير ذلك. وأفرز المجتمع أبطالاً حملوا الميداليات الدولية، مما زاد الثقة في القدرة على تمثيل قطر عالميًا. فقد فازت قطر بتنظيم الدورة الرابعة لكأس الخليج العربي، وهي بطولة أُقيمت في السبعينيات من القرن الماضي، حيث استضافت قطر النسخة الرابعة عام 1976. كان ذلك حدثًا مهمًا جدًا في تاريخها الرياضي، وأسهم في ترسيخ حضورها على خريطة كرة القدم الخليجية، وفي تعزيز مكانتها كدولة قادرة على تنظيم بطولات ناجحة. لذلك كان هذا الزخم الكبير من حب هذه اللعبة، وأذكر الحماس الكبير الذي كان يرافق التعليق على المباريات بصوت المعلّق القطري محمد نوح، ذلك الصوت الذي أشعل حماس الجماهير وأضفى على المباريات نكهة خاصة، والمعلق يوسف سيف الذي كان بتعليقه يمنحنا خيالاً جميلاً. كما أذكر الشباب الذي كان يذهب ليشجّع فريقه ويقف وراءه بحماس صادق يملأ المدرجات حياة وحيوية.

وعندما تولّى الأستاذ صلاح بن غانم العلي حقيبة وزارة الشباب والرياضة ثم وزارة الشباب والرياضة والثقافة، كان مهتمًّا - أيضًا - بالنشاط الثقافي داخل التجمعات الشبابية، في إدراك منه بأن الثقافة إطار أوسع يظلل ويدعم النشاط الرياضي. ومع الوقت جمع بين الحقيبتَين في صيغة واحدة، وجعل من العمل الثقافي متلازمًا مع العمل الرياضي، ومن العمل الرياضي داعمًا للعمل الثقافي. كان ذلك كلّه يصب في إشاعة روح الانتماء وتعميق عناصر الهويَّة الوطنية وفق فهم وإدراك حقيقيين لدور الرياضة والثقافة في بناء المجتمع. وكان هذا الزخم الرياضي فرصة مهمة في أعمالنا في مكتبة التراث العربي والإسلامي؛ إذ تم اختيار المكتبة لتكون إحدى الوجهات الثقافية الرئيسة لاستقبال ضيوف بعض الفعاليات الرياضية الكبرى. وجدتُ في هذا التكليف فرصة ثمينة لأبرز دور المكتبة ومقتنياتها، فقررت تحويل جزء كبير من الطابق الأول إلى معرض دائم ــ مؤقت آنذاك ــ يعرّف بتاريخ قطر العميق ويُظهر ثراءها الحضاري. أطلقت على هذا الفضاء اسم «قطر في القلب والتاريخ»، وكان بمثابة نافذة

تعـرض للـزوار كل مـا لدينـا مـن مصـادر ومخطوطات وصـور ووثائق تـحكي سيرة هـذا البلـد ومكانتـه. جـاء هـذا العمـل ضمـن مرحلـة التعـاون مـع مؤسَّسـة قطـر وهيئـة المتاحـف في قطـر. واسـتثمرت هـذه الفرصـة لأطلـب ميزانية خاصـة لدعم المجموعـات، وتحسين مسـتوى العـرض، ورفع كفـاءة الأمان في المكتبـة، إلى جانب اقتنـاء أجهـزة جديـدة وإدخـال تحسـينات معماريـة وتقنيـة على المبنـى نفسـه. كان ذلـك كلـه ثمـرة هـذه المناسـبات الرياضيـة الـكبرى، التـي لم تُعـرّف العـالم بقدرة قطـر الرياضيـة فحسـب؛ بـل دعمـت - أيضًـا - مشروعنـا الثقـافي، وفتحـت آفاقًـا جديـدة للتطويـر. وكان حديثـي مـع الفريـق المنظِّـم منصبًّـا على الليـالي العربيـة؛ فتوقّفنـا عنـد قصـة السـندباد بمـا فيها من أسـفار ومغامـرات تقـرّب بين البلدان، وتفتـح جسـورًا رمزيـة بين الشرق والغرب في هذا التراث الأدبي الإنسـاني الخيالي الجميـل. وقـد وجـد المخـرج في هـذه الفكرة مـادة مُلهمـة فاعتمدها كتيمة رئيسـية لحفـل الافتتـاح، ليغـدو الحـدث الريـاضي محاطًا بـروح الحكاية العربية وسـحرها، ويظهـر للعـالم صـورة قطر التـي تلتقي فيها الأصالـة بالتجـدّد، والماضي بالحاضر. كما فـازت قطـر بتنظيـم الـدورة الخامسـة عشرة للألعـاب الآسـيوية عـام 2006، وهـو حـدث ريـاضي ضخـم متعـدد المجـالات يجمـع رياضيي قـارة آسـيا، ومعروف أن هـذه الـدورة تُنظَّـم كل أربـع سـنوات تحـت إشراف اللجنـة الأولمبيـة الأسـيوية والدوليـة. وقـد مثّـل هـذا الحـدث نقلـة نوعيـة جعلـت قطـر تـقترب أكثر ــ بفضل نجاحهـا في التنظيـم ــ من الفوز باسـتضافة مونديـال 2022 الـذي كان قمة ذروة الأحـداث الرياضيـة، وعكس بجلاء كم اسـتطاع هـذا البلد أن يرفع اسـمه عاليًا في المحافـل العالميـة. وفي هـذا المجال سـطعت أسماء ووجـوه خدمـت الرياضة وبذلت كل جهـد لكي تكـون قطـر في مقدّمـة الـدول العربية التـي حملت رايـة التميّز على مسـتوى العـالم. لا أنسى روّاد العمـل الريـاضي الكبار، ولسـتُ هنـا أحصر الذاكرة؛ لكـن أذكـر الأسـتاذ سـلطان السـويدي، والأسـتاذ محمـد بـن همام ــ وهو سـميي ـ وطالـب بلان، وسـيف الحجـري، ومبـارك عنبر، ومنصـور مفتاح إلى فهـد الكواري وغيرهـم مـن أسماء قدّمت للرياضة طـوال فترة مهمة من تاريـخ العمل الرياضي. ثـم جـاءت روح الشـباب الجديـد بإمكانات أوسـع وفكر إستراتيجي شـارك فيه من قمـة الدولـة سـمو الأمير وسـمو الأمير الوالـد، وسـعادة الشـيخ جاسـم بـن حمـد، وسـعادة الشـيخ جوعان، وسـعادة الشـيخ محمد بن حمـد، وأسماء كـثيرة يعرفها كل

مـن تابع هـذه الحركـة الرياضيـة المباركة.

ولا أنسى شـخصية سـعادة الشـيخ الدكتـور محمـد بـن عيـد آل ثـاني، الرئيـس السـابق للهيئـة العامـة للشـباب والرياضـة. رجـل عـاش تفاصيـل البدايـات، ورافق مـسيرة التحـول، فكان شـاهدًا ومشـاركًا في أن تصبح قطـر مركزًا عالميًـا للرياضة.

ومـع تقـدّم السـنوات، بـدت الرؤيـة أوضـح: ففـي رؤيـة قطـر الوطنيـة 2030، حضرت الرياضـة كخيـار إستراتيجـي لبنـاء مجتمـع صحـي ومتـوازن. كنـت أتابـع الإنجـازات، مـن بنـاء الاسـتادات الحديثـة إلى اسـتضافة البطـولات الـكبرى، حتى جـاء الحـدث الأبـرز: كأس العـالم لكـرة القـدم 2022.

حينهـا أدركـت أن مـا كان حـلمًا في السـتينيات والسـبعينيات صـار واقعًـا في القـرن الجديـد. لم تعـد قطـر مجـرَّد مضيـف؛ بـل أصبحت عنوانًـا عالميًا لقـدرة بلد صـغير على أن يترك بصمـة كـبيرة في الذاكـرة الرياضيـة للبشريـة.

ولم يكـن ذلـك كلـه ممكنًا لولا أن المجتمع والحكومـة مضيا معًا في هذا الطريق، منـذ أيـام الشـيخ خليفة بـن حمد آل ثـاني الذي فتح أبـواب النمـو والتحديث، ومع توجـه خليجـي عام جعل الرياضـة عنصًرا أصيلاً مـن الهويَّة والانتماء.

تلـك السـنوات صنعـت بدايـاتي في قطـر؛ حيـث التقـت الثقافـة بالرياضـة في فضـاء واحـد. شـعرت أن توجيـه الشـباب نحـو المعرفـة والبيئـة والتاريـخ يمكـن أن يبـدأ مـن الملاعـب، وأن كـرة القـدم والأنشـطة الرياضيـة ليسـت بعيـدة عـن بنـاء هويَّـة وطنيـة واعيـة؛ بـل قـد تكـون أحـد أجمل جسـورها.

الشاعر الدبلوماسي الدكتور حسن النعمة

عرفتُ الدكتور حسن النعمة في عدد من المناسبات الثقافية، وأخصُّ منها مجلس الشيخ عبد الرحمن بن سعود، بين كوكبة من نخبة المجتمع ووجوهه اللامعة. لم يكن حضوره صاخبًا، فهو قليل الكلام؛ لكنه إذا تكلّم، نطق بالحكمة، وأصاب المعنى، وترك في النفوس أثرًا لا يُنسى. تراه حاضرًا بهدوئه واتزانه، لا يكثر من القول؛ لكنه إذا قال نطق بالكلمة الجامعة، والقول الفصل.

الدكتور حسن النعمة دبلوماسي، لا بمعنى السلك الدبلوماسي الذي غادره؛ بل بمعنى أعمق: دبلوماسي في الحياة، في التعامل، في الإنسانية. لقد تحول إلى مؤسَّسة قائمة بذاتها، تنشر قيم التوازن، والرقي، والاحترام.

وهو، إلى جانب كل ذلك، عاشقٌ للغة العربية، شديد الغيرة عليها، حتى إن حديثه اليومي يكاد يكون درسًا في الفصاحة والبيان. أما شعره، فهو شعر جزيل، رصين، مملوء بجواهر اللغة، يُذكّرك بكبار شعراء العربية من أمثال: أبي تمام، والبحتري، وأبي العلاء المعري.

وما يميز شخصيته وشعره أنه قوميّ عربيّ، يؤمن بوحدة الأمة، ويعبرّ عنها بإحساس الشاعر ومسؤولية المفكِّر. وشعره - في كثير من صوره - يذكِّرني بشعر الدكتور إبراهيم ناجي؛ فكلاهما حمل قلبًا نابضًا، وعاطفة جياشة، وميلاً إلى الرقة الممزوجة بالحكمة.

ومن عذب ما أنشد شعرًا، تلك القصائد التي لحّنها ابن قطر الراحل عبدالعزيز ناصر، فغدت أغنيات خالدة في الوجدان القطري. ويكفي أن نستشهد بأبيات من إحدى قصائده الجميلة:

صُنتُ فؤادي أن يشطَّ عن الهوى وصُنتُ لسانًا يعرفُ الفضلَ والحَدَا

وعلّمتُ نفسي الصبرَ منذَ طفولتي فصبري على المحبوب أورثني السعدا

قصائد تحمل روحًا أصيلة، وتغنّي للفضيلة، وتعكس نفسًا تربّت على القيم، وتهذّبت بالحبّ الصادق والوفاء.

فهو، وبشعره، لا يعبرّ عن ذاته فحسب؛ بل يُوثّق مشاعرنا نحن، ويوقظ

فينا طاقات الحب الكامنة، ويمنحنا لغة للبوح نبحث عنها في لحظات الصدق والنقاء.

كما أنه ذوّاق للموسيقى، يفهمها ويحبها، ويعيشها كفنّ عالٍ لا يقلّ عن الشعر رفعةً وبهاء. هو علامة في ذوقه، ومُحبّ في إحساسه، يجمع بين العقل والوجدان.

درس في جامعة القاهرة في ستينيات القرن الماضي، على أيدي أساتذة من جهابذة الأدب والفلسفة، فنهل من معينهم، وتشكّلت شخصيته الفكرية والثقافية في ذلك المناخ العربي الزاخر بالحوار، والمعرفة، وروح التنوير.

ليس حضوره مقتصرًا على قطر؛ بل له في كل بلد عربي مكان ومكانة. يسافر، فيترك خلفه أثرًا طيبًا، ويبني علاقة ودّ لا تنقطع. فهو شخصية محبة، مجاملة، يدخل القلوب ببساطته وإنسانيته، ويظل فيها بما يغرسه من أثر كريم.

أيها الحكيم الشاعر، أيها الصديق الوفي والوجه الثقافي المضيء، لك التحية، ولَك في القلب محبة، وفي العقل تقدير، وفي الذاكرة حضور دائم. وأغبطك، والله، على هذا الحب الذي تحصده في قلوب الناس... فهو ثمرتك... وهو قصيدتك الأجمل.

نخلة الفنان يوسف أحمد ... تطرح فنًّا



منذ نصف قرن ويوسف أحمد في حالة بحث لا تهدأ، في رحلة فنية لا تعرف السكون أو التقليد. فهو فنَّان يشبه العالم في مختبره؛ لا يرضى أن يكرر ما سبق أن خطه، ولا أن يقف عند تجربة واحدة.

على مدى خمسين عامًا من التجريب، ظل يفتّش عن قيمة أصيلة جديدة، عن ملمح لم يُكتشف بعد، عن فكرة «مجنونة» يشتبك معها لتشكّل إضافة صادقة للفن وللهويَّة معًا.

يوسف أحمد ابن المكان قبل أن يكون صديق الريشة واللون والموسيقى. نبت من أرض قطر، من الرمل والبحر والسماء، وصادق النخلة التي تطلّ بسعفها من خلف الأسوار، رفيقة بصره منذ الطفولة، تلهمه الحكايات والخيالات، وتلوّح له بخضرتها كل صباح حتى أصبحت رمزًا لارتباطه بالأرض التي احتضنته والخير الذي ينعم به. اللون الأخضر، لون النخلة، لم يكن مجرَّد عنصر بصري في

لوحاتـه؛ بـل جسرًا يصـل بينـه وبين جـذور الأرض وبين جـدران البيـوت والقصور، يعيـده إلى أصالتـه كلما ابتعدت المسـافات.



◉ الفنان يوسف أحمد مع بعض لوحاته

ولأنـه «مجنـون ورق» - كما يصـف نفسـه - لم يكتـفِ بالبحـث عـن الـورق في المتاحـف والمكتبـات والأسـواق حـول العـالم، مـن اليابـان إلى النيبـال، ومـن الهنـد إلى إندونيسـيا وتايلاند. كان يلتقط الورق ويتحسّـس ملمسـه ويشـتمّ رائحته ويقتنيه بحـبّ، فالـورق كان في قطـر نـادرًا عزيـزًا. غير أن رحلـة البحـث الطويلـة انتهـت بسـؤال بسـيط أضـاء عقله:

لماذا لا أصنع ورقًا من نخيل قطر؟

هنـا بـدأت الحكايـة. النخلـة التـي تقـف على بـاب بيتـه لم تعـد مجـرَّد شـجرة تظلـل المدخـل، وتتراقـص بسـعفها فـوق رأسـه وغترتـه؛ بـل صـارت شريكـة حيـاة، كائنًـا يبادلـه التحية، صباحًا ومسـاءً، ويحمـل السر. اقترب منها هذه المرة، تحسّـس جذعهـا وأوراقهـا، وقـال لنفسـه: «لِـمَ لا؟» فأقـام في بيتـه معـملاً صـغيرًا، وأخـذ يجـرّب ويعيـد التجريـب، يطبـخ العجينة مرة بعد أخرى، مثل عالم يسـعى لاكتشـاف سر جديـد. ومـع أول ورقـة خرجـت مـن بين يديـه، يـروي يوسـف أحمـد اللحظـة قـائلاً: «تنطـت مـن الفـرح». كانـت تلـك الورقـة الأولى إعلان مـيلاد مشروع

سيضيف للنخلة قيمة إضافية لم يعرفها الناس من قبل.

لم تكن التجربة مجرَّد تمرين تقني؛ بل مغامرة وجدانية وفكرية. أصّر يوسف أحمد أن يخرج الورق نسيجًا له رائحة قطرية خاصة، نسيجًا يليق أن يكون حاملاً لهويَّة المكان الذي خرج منه. ثم جاء السؤال الحائر: كيف نحول هذا الورق إلى فن؟ كيف نكتب به قصة قطرية؟ كيف نجعله مادة لرسم أفكارنا وقصصنا على صفحات المستقبل؟

ومع المعرض الذي يقدّمه اليوم، تتحقق الرؤية. كل عمل فني هنا ليس مجرَّد لوحة؛ بل امتدادًا للنخلة نفسها؛ سعفها تحوّل إلى عجينة، والعجينة تحوّلت إلى ورق، والورق تحوّل إلى فن. وكأن النخلة تواصل عطاءها حتى بعد أن تُقطع، وكأنها تقول لنا: أنا لا أموت، أنا أعود في صورة جديدة.

يوسف أحمد لم يتوقف عند الورق؛ بل يعلن اليوم أنه يعمل على إنتاج حبر من نخيل قطر ليكتمل المشروع، فيصبح للنخلة ورق وحبر، نصّ ولون، حياة متواصلة. إنّه لا يقدّم تجربة فنية فحسب؛ بل موقفًا فلسفيًا: أن الفن الحقيقي لا يولد إلَّا من الأرض التي نعيش عليها، من ثقافتنا، من مكونات هويتنا.



◉ بعض لوحات الفنان يوسف أحمد

إن معرض «ورق نخل قطر» ليس مجرَّد عرض لأوراق وأعمال؛ بل هو تحية للنخلة، تحية لرمز الحياة والكرم الذي يتوسط شعار الدولة، تحية للأرض التي أنبتت هذا الفنَّان، وأمدّته باللون والملمس والخيال. وهو، أيضًا، رسالة لكل فنَّان: أن الهويَّة لا تُستورد؛ بل تُستنبَت كما يُستنبَت النخيل، وتُروى بالتجريب والصبر حتى تثمر فنًّا، له جذر، وله ظلّ، وله طعم الوطن.

وأقف أنا - محمد همام فكري - أمام هذه التجربة بانحياز كامل لهذا الجهد الذي لم يكتفِ بالبحث عن الجمال؛ بل أعاد تعريف العلاقة بين الفنَّان وبيئته. لقد جعل من النخلة - رمز العطاء والكرم - شريكًا في الإبداع، ومن الورق شهادة حب للأرض التي أنبتته. كل ورقة هنا تحكي قصة قطرية بامتياز، وكل عمل يفتح لنا بابًا على مستقبل يكون فيه الفن ابنًا أصيلاً للبيئة والهويَّة.

سكيك الجسرة



◉ لوحة فنية تبين محلات الجسرة قديمًا

في رحلتي مع قطر، لم تكن المعالم مجرَّد مبانٍ أو مؤسَّسات أو فضاءات ثقافية؛ بل كانت عوالم متشابكة صنعت وجداني: من قاعات جامعة قطر التي فتحت لي أبواب العمر الجديد، إلى أروقة النادي العلمي حيث انطلقت الطاقات الشابة في اكتشاف أسرار الطبيعة، ومن فضاءات كتارا التي جمعت الماضي بالحاضر، وصولاً إلى ريشة فنَّان تعيد صياغة المكان في لوحات نابضة بالحنين.

وإذا كان العلم قد شكّل لي مدخلاً إلى المعرفة، فإن الفن التشكيلي حملني إلى ذاكرة الوجدان. هكذا وجدتني أقف أمام لوحات معرض «سكيك» للفنَّان يوسف أحمد، فأحسست أنني في حضرة بوح بصري يعيدني إلى الجذور.

لأول وهلة، يدرك المرء أن يوسف أحمد يعيش حالة غامرة من الحنين. كأنه يسافر في المكان والزمان معًا، يستدعي صورًا من عمر مضى، ويغمرها بمشاعره الصادقة. استحضر تراب سكيك الفرجان وجدرانها المتراصة في صمت، أبوابها الموصدة، نوافذها المخبئة للأسرار... جميعها مكسوّة بمسحة وقار الماضي، بألوانه

الباهتة وظلاله التي لا تخطئها العين.

في رحلته هذه، لم يسمح لنا الفنَّان بدخول البيوت؛ بل اكتفى بأن يقف بنا عند أول السكيك ثم يتركنا. هناك، نستعين بخيالنا لنكمل المشهد؛ نشتبك بما في ذاكرتنا نحن، ونتشارك معه حنينه. نمشي في طرقات ملتوية لا نعرف لها نهاية، يحيط بنا سكون يشبه الأفق، بحر كالسّماء وسماء كالبحر. ولأن الماضي بلا صوت، غاب الناس عن اللوحات، كأنهم خرجوا للغوص ولم يعودوا، ولم يبقَ منهم سوى أثر: غصن سدر متدلٍ، أو نخلة تنحني على جدار.

يوسف أحمد - في هذا المعرض - عاشق للمكان في ماضيه، أو للماضي في مكانه. فإذا دخل بنا السوق، فتح أبواب الدكاكين، وأرانا تفاصيل أخفاها عنّا في البيوت: بضائع مكدسة أمام الأبواب، وأفكار الناس مرسومة على اللافتات القديمة: دكان الوحدة العربية، مكتبة العرب، مقهى الأمة العربية، خضروات الأحرار.... تلك الأسماء لم تكن مجرَّد عناوين لمحلات؛ بل مرايا لأحلام الناس وثقافتهم في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، حين كان المد القومي العربي يملأ الوجدان ويشدّ اللغة والفكر معًا نحو الهويَّة.

إنه معرض يختزن ذاكرة مجتمع بأكمله، هو مجتمع الجسرة الذي نشأ فيه الفنَّان، ولا يزال أبناؤه يحملون نوستالجيا خاصة لتلك الأيام: للكتاتيب، للعب في الطرقات، للنقش على الجدران، ولكل طقوس البدايات؛ لكنها تبقى ظلالاً في الذاكرة، بينما الحقيقة اليوم واقع جديد مفعم بالحيوية والسرعة والرفاه والتحضر.

شكرًا ليوسف أحمد... فقد أعادنا بريشته إلى تلك السكيك التي حملتنا يومًا، وما تزال تحملنا في الذاكرة.

شواطئ قطر



◉ سيارتي عام 1988

لم تكن حياتي في قطر كلّها عملاً ولا انشغالاً بالمشروعات الثقافية كما قد يظن من عرفوني هناك. فالعمر علّمني أن البيت أولاً، وأن للأسرة حقًّا لا يُهمل. كنت، وسط الغربة، أعيش بين رغبة في الانغماس فيما أحبّ وبين شعور داخلي يذكّرني بأن هؤلاء الصغار يكبرون بسرعة، وأن زوجتي تنتظر أن أخلع عن كتفي أثقال الأسبوع لنعيش معًا لحظات عادية؛ لكنها لا تُعوَّض.

هكذا صارت نهايات الأسبوع لنا ولأصدقاء يشبهوننا. نتواعد ببساطة: «إلى البحر غدًا؟» فنردّ: «على بركة الله». يبدأ الصخب الجميل منذ الصباح؛ زوجتي، التي لم تتذمَّر يومًا من عناء الغربة، تتحوَّل إلى ربانة البيت: تُعدّ ما لذّ وطاب، تقطّع الفاكهة بعينٍ محبة، تجهز السندويشات وهي تحفظ أذواق الصغار، وتملأ

الترمس بالشاي الذي صار رفيقنا الأمين، حتى إذا مالت الشمس نحو الغروب وجدنا في أكوابه دفء الوطن. كم أحببت تلك الطقوس، وكم خفّفت عني وطأة البعد.

ومن جانبي، كنت معنيًّا بالإعداد للرحلة وتجهيز كل ما يجعل الطريق آمنًا والمقام مريحًا. أفحص السيارة قبل أن نتحرك؛ أملأ المياه وأتفقد المبرد، أراجع مقياس الزيت، أتحقق من الإطارات، أؤمّن الدواليب جيدًا، وأتأكّد أن كلَّ شيء في مكانه. أضيف أدوات الأمان والإسعافات البسيطة، فلا أترك شيئًا للصدفة. كنت أحرص أن تكون رحلتنا بلا منغصات، وأن أختصر على أسرتي كل تعب الطريق ومفاجآته. حتى التفاصيل الصغيرة - من حبال لتثبيت المظلة إلى أدوات تساعد في تثبيت الجلسة على الرمل - كانت حاضرة في بالي. ربما لم ينتبه أحد لكل ذلك؛ لكني كنت أجد فيها متعة خفية؛ شعور الأب الذي يطمئن لأن كل شيء جاهز ولأن أسرته بين يديه بأمان.

نشدّ الرحال بسيارتين محمّلتين بكل ما يلزم: مظلة شمسية كبيرة، كراسٍ خفيفة، أدوات للشواء، الطعام والفاكهة والعصائر الباردة، وأنا أضيف كتابًا - قد أقرأه أو يكفيني وجوده - وأحمل مسجلًا صغيرًا يرافقنا بأغانٍ محببة وأخبار تبقينا على صلة بالعالم.

تنقلنا بين شواطئ قطر كمن يفتش عن نسائم الألفة: دخان بأفقه المفتوح بلا نهاية، الوكرة بنسيمها الذي يشبه هواء الديار، الخور برحابته وصفاء مياهه، وأحيانًا نكتفي بشاطئ نادي الدوحة القريب. كلها شواطئ بلا حواجز ولا تصاريح؛ نغرس مظلتنا على الرمل، نرتب الجلسة بسياراتنا لنحفظ الخصوصية ونمنح النساء راحتهن، فيما ينطلق الأطفال نحو البحر بضحكات تذيب قسوة الغربة.

كنت أجلس أحيانًا متأمِّلًا هذا المشهد بعين رجل جاوز منتصف العمر، عين تعرف أن الأيام تركض، وأن الطفولة لا تنتظر. أرى أبنائي يركضون في الماء وأسمع صوت زوجتي وهي تناديهم ليأكلوا أو يشربوا. لحظات تصنع وطنًا مؤقتًا وتمنح الغربة قلبًا نابضًا.

ومـع غروب الشـمس، كان الهـدوء يهبط رويدًا. يلين الموج، وتـأتي زوجتي تحمل كوب الشـاي، ابتسـامتها البسـيطة تقول كل شيء دون كلام. هناك، على الرمل، بين رائحـة البحـر ودفء الشـاي، كنـت أشـعر أن كل تعـب الأسـبوع يـذوب، وأن هـذا البيـت الـذي صنعنـاه في الغربـة هـو أغلى ما نملك.

واليـوم، كلما اجتمعـت إلى أبنـائي ورأيتهم يتفقون على الذهاب إلى البحر -تنقل إلى شـواطئ قطـر نفسـها- أجـد أن حديثهـم غير حديثنـا القديـم، واتفاقهـم غير اتفاقنـا. لم يعـد البحـر بالنسـبة لهـم ذاك الفضـاء الطيـب المفتـوح الـذي يحتضننا برمالـه ويتركنـا نقيـم بيوتنـا الصغيرة على الشـاطئ ونشـعل نار الشـواء قـرب الموج وندخـل بسـياراتنا حتـى تلامـس العائلـة الماء. صـاروا الآن يحجـزون عبر الإنترنـت منتجعـات بحريـة، فيهـا كل شيء معـدّ سـلفًا ومحدّد بحدود وأسـوار.

أنظـر إليهـم وإلى أحفادي وهم يخططـون لرحلاتهم الرقمية السريعة، فأبتسـم في داخلي. أعـرف أن مـا زرعنـاه بالأمـس أثمـر فيهـم على نحـو آخـر. ربمـا تـغيَّر شـكل البحـر وتـغيَّرت أدوات الرحلـة؛ لكـن الحـنين إلى الماء، والرغبـة في الاجتماع حـول الفـرح البسـيط، مـا زالـت حـاضرة. البحـر الـذي كان لنـا وطنًـا مؤقتًـا صار لهـم ذاكـرة حيّـة، يحملونهـا في قلوبهـم وهـم يمضـون إلى شـواطئهم الجديدة.

وأنـا اليـوم، وقـد جـاوزت العمـر الـذي تُسـتعاد فيـه الذكريـات أكثر مما تُصنع فيـه التجـارب الجديـدة، أجـد في تلـك الأيـام البسـيطة على شـواطئ قطـر كنزًا لا يُقـدَّر. لم تكـن الـرحلات مجـرَّد نزهـات؛ بـل كانـت جـذورًا صـغيرة زرعناهـا في نفـوس أبنائنـا، فـكبرت معهـم على طريقتهـم، حتـى وإن تـغيّرت التفاصيـل. أدرك أن الحـب لا يُقـاس بالمـكان ولا بـالأدوات؛ بـل بتلك الرغبة الصادقـة في أن نجتمع، أن نصنـع مسـاحة أمـان وسـط الغربـة، وأن نترك للأجيـال القادمة شـيئًا من دفء القلـب وملـح البحـر وذكريـات الشـاي على الرمل.

حديقة حيوانات الدوحة

كان صباح الجمعة يحمل نكهة خاصة. نصحو على أصوات الصغار وهم يلحّون بالسؤال: متى نذهب؟ متى نرى الأسود والقرود؟ نصلي الجمعة ونعود إلى البيت نستعد للخروج؛ زوجتي أميمة تعد حقيبة الطعام، وابنتي رضوى تملأ الترمس بالشاي الذي لا يفارق رحلاتنا، وبدوري أتأكّد أن كلَّ شيء جاهز ليوم نعرف أنه سيكون طويلاً وسعيدًا..

كانت الرحلة نفسها جزءًا من الفرح. نركب السيارة بعد الصلاة، الأطفال في الخلف يتحرَّكون بلهفة، والبيت يودّعنا بضحكة الأم التي تنشغل بآخر الاستعدادات. الطريق إلى الحديقة يومها بدا مغامرة بحد ذاته؛ شريط ضيق من الأسفلت يلتف في الفراغ، وحولنا أراضٍ خالية تمامًا، لا بنايات، لا ازدحام، لا إشارات مرور إلَّا نادرًا. صحراء هادئة تلمع تحت شمس النهار، وسماء واسعة تحرسنا ونحن نتجه إلى أطراف الدوحة.

كم يبدو هذا المشهد مختلفًا حين أمرّ اليوم في الطُرق نفسها! شوارع واسعة متعدِّدة المسارات، جسور وأنفاق، أبراج وأسواق، كل ما كان خاليًا صار مفعمًا بالحياة والعمران. أحيانًا وأنا أقود في هذه الطرق الحديثة أشعر بدهشة طفولية: هنا كنّا نمضي على طريق وحيد لا يحيط به سوى الصمت والرمل، واليوم صار شاهدًا على نهضة كاملة.

وحين نصل إلى بوابة حديقة حيوانات الدوحة، تسبقنا ضحكات الأطفال ودهشتهم. يدخلون إلى عالم لم يعرفوه إلَّا في الكتب. الأسود والنمور والغزلان، الطيور الملونة، القردة التي تثير الضحك. أذكر جيدًا أول مرة وقفنا أمام قفص الأسد؛ كيف تشبّث ابني بثوبي وهو يراقب ذلك الملك المهيب، وكيف التفت إليّ بعينيه المندهشتين يسأل: هو حقيقي؟ ابتسمت وربتُّ على رأسه وقلت: نعم يا بني، هذا ملك الغابة.

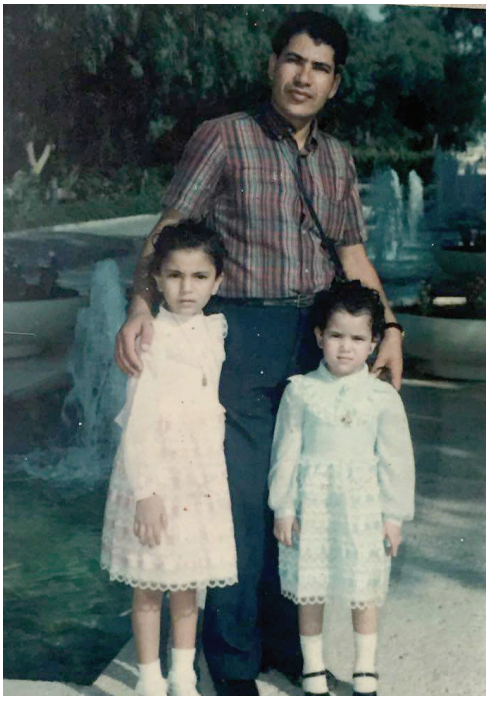
وعند الغزلان، حاولت ابنتي الصغيرة مدّ يدها لتلمس واحدًا منها، ثم تراجعت ضاحكة حين تحرّك بخفة. كم كان جميلاً أن أراها تكتشف

الحـذر والجـرأة في اللحظـة نفسـها. هـذه التفاصيـل البسـيطة صنعـت ذاكرة لا تبهـت: بهجـة الأبـوة، اكتشـاف الأبنـاء، وطمأنينـة أن نكـون معًـا.



◉ جانب من حيوانات المها – أرشيف مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية

بعـد جولاتنـا الطويلة، نبحث عن مسـاحة ظل واسـعة، نـفترش البطانيات، نخرج السندوتشـات، ونصـب الشـاي. هنـاك كنّـا نضحـك ونتبـادل الأحاديـث، ونراقـب الصغـار يركضـون في كل اتجـاه. تلك الأرض الخضراء البسـيطة كانت تسـع قلوبنا. وكانـت الحيـاة كريمـة؛ تذكـرة الدخـول بريـالين للكبـار، والصغـار بلا مقابل. قطر كانـت بلاد الـخير حقًـا، تمنـح الفرح بأبسـط الطرق.





◉ المؤلف وابنتيه رضوى ودينا

الزمـن لا يثبـت على حـال. ذات يـوم سـمعنا أن الحديقة أُغلقت عـام 2012 للصيانة والتطويـر. بـدا وكأن بابًـا مـن طفولتنـا أُغلق. ومع ذلك بقـي الأمل بأن تعـود أجمل مما كانـت. وهـا هـي الأخبـار حملـت وعدًا بمـيلاد حديقـة سـفاري الدوحة: مناطـق تحاكي إفريقيـا وآسـيا وأمريـكا الجنوبيـة، مسـارات مشي وجسـور، تجـارب سـفاري حقيقيـة، مرافـق تعليميـة وترفيهيـة، وحتـى فنـادق صغيرة لعشـاق التجربـة. وفي انتظـار اكتمال الحلـم، بقيـت حديقـة الخـور للعائلات مـأوى للحيوانـات، وملاذًا مؤقتًـا لذكرياتنا.

اليـوم، وأنـا أمـر في تلـك الطرق التي كانـت يومًا مجرَّد شريط ضيق من الأسـفلت، أشـعر بدهشـة وفخـر. لقـد رأيـت الدوحـة تـكبر كما كبرنـا، مـن أرض شـبه خاليـة إلى مدينـة عصريـة متألقـة؛ لكـن قلبـي يظـل ممسـكًا بتلـك الصـور القديمة: أطفـالي وهم يركضـون في فـرح صـافٍ، طريـق طويـل يخلـو مـن العمران، وبسـاطة جمعـة لا تُنسى.

وحين تفتـح الحديقـة أبوابهـا مـن جديد، سـأحمل إليها هـذه الحكايـات وأمضي مع أحفـادي في الطريـق ذاتـه، لأقـول لهم: هنا كنّـا نذهب ونحن نعتقد أننـا نصل إلى آخر الدنيا، بينما كنّا في الحقيقة نقترب من أجمل ذكرياتنا.

شارع الكهرباء



◉ شارع الكهرباء في السبعينيات من القرن الماضي

حين أعود بذاكرتي إلى أيامي الأولى في الدوحة تطل أمامي صورة مشيرب القديمة ذلك الحي الذي كان قلب المدينة النابض قبل أن يولد الكورنيش. كانت مشيرب ترتبط مباشرة بالواجهة البحرية للخليج وتستمد اسمها - مشيرب أي مكان شرب الماء - من الآبار العذبة الباردة التي جاورت سوق واقف وأحيت المكان. ومن بين أحيائها العريقة يبرز شارع الكهرباء، أول شارع وصلت إليه الكهرباء في قطر، شاهدًا على بدايات التحول نحو الحداثة والتجارة المزدهرة في الدوحة العاصمة. كنّا نمشي الشارع من أوله إلى آخره نقرأ أسماء الواجهات الزجاجية المضيئة التي راحت تحل محل الدكاكين القديمة المتواضعة، تختفي معها أسماء مألوفة: بقالة النصر، بقالة الأمانة، خياط الرجال، وذهب الهند، وتطل أسماء أخرى جديدة أكثر حداثة. ومع ذلك كانت الروح ذاتها؛ بهجة السوق وأصالته وحركة الحياة. كان كل ما نبحث عنه نجده هنا في شارع الكهرباء حتى صارت زيارتنا للشارع جزءًا من طقوس الإقامة في الدوحة مساء الخميس والجمعة. فقد كانت الدوحة عن بكرة أبيها تعج بالآسيويين الذين جاءوا من كل

مـكان ليلتقـوا في شـارع مشيرب وينزلقـون إلى شـارع الكهرباء.

أتذكـر يومًـا أردت أن أشتري لأبي هديـة تعجبـه فاسـتعدت في ذاكـرتي حـوارًا قديمًـا معـه؛ كان يقـول لي إنـه يحـب صـوف الإمبريـال خمس خمسـات بوعكزين. فقلـت لنـفسي: نعـم، هـذا صـوف يسـتحقه أبي ولتكن هديتـي الأولى لـه قطعة من هـذا الصـوف. سـألت الـزملاء أيـن أسـتطيع أن أجـد هـذا النـوع، فقالـوا بصـوت واحـد: مـحلات الشـهاب في شـارع الكهربـاء. وهكـذا عزمـت أن أذهب إلى شـارع الكهربـاء لأشتري لـه هـذا الصـوف الـذي يحـب. منـذ ذلـك الـحين صـار محـل الشـهاب عنوانًـا لـكل مـا نحتاجـه مـن أصـواف وأنسـجة فاخـرة، مـاركات عالميـة مضمونـة، ثـم نتوجَّـه إلى الخيـاط فرانسـيس لتفصيـل البـدلات على المقـاس. كان ذلـك أشـبه بطقـس ثابـت لـكل مـن عـاش أو عمـل في قطر، وكانـت النسـاء يجدن مـا لا عين رأت مـن الذهـب والحريـر.

نقطـع الشـارع مـن أولـه مـن جهـة الريـان حيـث فـرن حبيـب وكنّـا نحـرص على خبـزه السـاخن في كل وقـت. وعلى امتـداد الطريـق تتـوالى لافتـات لا تُنسى: أشـهرها دكان الجمهوريـة حيـث الأطعمـة المصرية عنـد عم عبد اللطيـف، وهو من أهـل فلسـطين؛ لكنـه تخصـص في البضائـع والأطعمة المصريـة؛ البسـطرمة، الجبنة الرومـي، الرنجـة، وحتى سـجائر كليوباترا. فإذا دخلت الدكان شـعرت كأنك انتقلت إلى أحـد شـوارع القاهـرة حتـى الروائـح؛ كولونيـا الـشبراويشي والخمس خمسـات باللافنـدر. وقريبًـا منه اسـتوديو الـسلام للتصوير (فـرع الكهربـاء لأن الأصل كان في السـد)، ويواجهـه البيـت الحديـث بواجهتـه الفخمـة ذات الطابـقين ومقتنياتـه الباهظـة من سـاعات وملبوسـات وأجهزة منزليـة وملابس قيمة كالكشـمير الهندي الـذي لا نجـرؤ على اقتنائـه إلَّا وقت السـيل (التنزيلات). عرفـت أن شراء (جاكت) منـه يكفينـي عـن عشر بـدلات عاديـة لجـودة الخامـة وفخامتهـا، ومـا ميَّـز البيـت الحديـث أن إعلانـات التنـزيلات كانـت صادقـة فـعلاً. وكذلـك الحـال مـع محلات ناشـيونال التـي كنّا نهـرع إليها وقت التنزيلات ويمتلئ المـكان في الداخل والخارج بالنـاس مـن أبناء الجاليات العربية والآسـيوية. كانت ثقتنـا في هذه المحلات كبيرة؛ فهـم صادقـون لا يغالـون ولا يوهمـون الزبائـن بأنهـم خفّضـوا بينـما لم يخفضـوا مثـل غيرهم.

وليس بعيدًا عن ناشيونال نجد مطعم بيروت، محطة الجائعين والعابرين، حيث تعبق رائحة الفلافل والفول في الأجواء وتجتمع حول الطاولات وجوه من كل الجنسيات لنأكل بريالات معدودة حتى نشبع. وعندما نخرج من شارع الكهرباء إلى قلب مشيرب، نصل إلى معلم آخر هو ناشونال؛ هذه المحلات الكبيرة ذات السمعة الواسعة والثقة في جودة المعروضات. كان اسم ناشونال علامة مسجلة نقول: اشتريت مسجل ناشونال، تلفزيون ناشونال، مكيف ناشونال... كانت ناشونال ماركة عريقة تضيف إلى المكان رهبة وجودها.

وبين هذه المعالم تنتشر دكاكين صغيرة - محلات وبقالات متواضعة - أشهرها أبوعوني للمأكولات الجاهزة الذي كنّا نستعين به في إعداد الخرفان والذبائح للمأدبات الكبرى، وكذلك سوبر ماركت صيدا الذي كنّا نقصده في شهر رمضان لنشتري منه الكنافة والقطايف، وأيضًا، محلات الصوف والحرير الهندي ونجمة الهند وغيرها من المتاجر التي تركت في الذاكرة أثرًا لا يُمحى.

ومع الطفرة النفطية في خمسينيات القرن الماضي تغيّرت الدوحة من ميناء صغير للتجارة وصيد الأسماك إلى مدينة حديثة؛ لكن شارع الكهرباء ظل قلبًا نابضًا وسط هذا التحول. واليوم، ومع مشروع مشيرب قلب الدوحة، عادت المنطقة لتتزيّن بهويتها الأصيلة، تربط الماضي بالحاضر وتحفظ أرواح الأزقة التي شهدت خطواتنا الأولى. كلما أغمضت عيني أرى نفسي هناك أتمشى في شارع الكهرباء، أتنقل بين المحلات، أستنشق رائحة الخبز والفلافل، أسمع أصوات التجار ونداءات الزبائن، إنها ليست مجرَّد ذاكرة تسوق؛ بل شريط حياة يعيد إليَّ وجوهًا وأيامًا مضت... ويبقى المكان شاهدًا على رحلة مدينة ورحلة عمر.

سوق الحراج

لم يكن سوق الحراج بالنسبة لي مكانًا أذهب إليه طلبًا لقطعة أثاث رخيصة أو جهاز منزلي مستعمل؛ كان أشبه ببوابة أطلّ منها على الحياة. كنت أذهب وفي قلبي شيء من الفضول وشيء من الحنين، وكأنني أفتش عن وجوه البشر قبل أن أفتش عن البضاعة. هناك، حيث يلتقي الغريب بالغريب، وتختلط الألسنة واللهجات، وأرى البنجالي والباكستاني والهندي والمصري والسوري والسوداني، كلٌّ يحمل شيئًا من وطنه وصبره وحيلته. أحدهم يساوم بابتسامة حارة، وآخر يفاوض بجدية صلبة، وثالث يضحك ليخفي حرج حاجته، ورابع يراوغ وكأنه يحارب معركة صغيرة ليظفر بربح يومه.

كان السوق مدرّجًا مفتوحًا للحياة؛ مقاعده من غبار وخشب قديم وأصوات تتداخل كأنها موسيقى فوضوية؛ لكنها صادقة. لا هدأة هنا مثل التي في المراكز التجارية الباردة، لا أضواء زاهية ولا موسيقى مصطنعة؛ بل أصوات حقيقية؛ نداء وبوح وثرثرة وضحكات وشيء من الشجار أحيانًا. رائحة المكان خليط من غبار السنين وخشب الصناديق القديم، ومن أجهزة حملت حكايات بيوت سابقة ثم جاءت تبحث عن حياة جديدة.

في بداياتي كنت أقتني من سوق الحراج قطعًا رخيصة، لأنني كنت أظن أن وجودي في قطر مؤقت، وأن ما يستحق أن أشتريه بقيمته الحقيقية سأشتريه حين أعود إلى وطني. كنت أتعامل مع كل شيء بخفة الغريب العابر، الذي يكتفي بما يسد حاجته، ولا يثقل روحه بأعباء الاستقرار؛ لكنّ الزمن علّمني أن ما نحسبه مؤقتًا قد يصير حياة كاملة. لم أعرف أن قطر ستغدو لي وطنًا، وأن هذه القطع الرخيصة التي حملتها يومًا بلا اكتراث ستصبح شواهد على بداياتي وأيامي الأولى.

وأذكر يومًا بسيطًا؛ لكنه لا يُنسى: كنت أحمل صندوقًا صغيرًا اشتريته من أحد دكاكين الحراج؛ صندوق خشبي متواضع غطّاه الغبار. حين وضعته في بيتي، شعرت بشيء غريب يربطني بالمكان. فجأة لم أكن ضيفًا عابرًا؛ بل صاحب بيت وذاكرة. أدركت يومها أن الوطن قد يولد فجأة في القلب، بصمت وهدوء، لا

يحتاج إعلانًا ولا أوراقًا رسمية، يكفي أن تجد نفسك تحب المكان وتخزّن فيه ذكرياتك.

هكذا غدت قطر لي وطنًا اخترته حين اختارتني الحياة.

لقد علَّمتني تلك الأيام في سوق الحراج أنني أذهب إليه لأفتح نافذةً على الحياة أكثر مما أذهب لأشتري. وهناك ما يُباع لا يُباع في غيره؛ ليس لأنه نادر أو ثمين؛ بل لأنه مشبَع بروح الناس وحكاياتهم. قطعة صغيرة قديمة تشتريها ومعها حكاية مجهولة، وربما صدى ضحكة أو تنهيدة صاحب سابق.

كان الحراج مدرسة غير مكتوبة. درّبني على الإصغاء، على قراءة الوجوه، على تمييز الصدق من المراوغة، وعلى فن الفصال الذي يبدو بسيطًا؛ لكنه امتحان ذكاء وجرأة. هناك يتواضع الغني ويختبر مهارة الكلام، ويجرؤ الفقير ليعرض بضاعته بثقة، وتتعلَّم أنت كيف تبني حوارًا من أجل بضع ريالات؛ لكنك تخرج منه بخبرة لا تقدَّر.

ورغم أن التجارة ظاهر الحكاية، إلَّا أن ما كان يسرق قلبي أعمق بكثير؛ حياة كاملة تتحرك أمام عيني. غرباء جاءوا يطاردون رزقهم أو بداية جديدة، وآخرون يبحثون عن دثار إنساني وسط الزحام. وفي تلك الوجوه والأصوات والأشياء، كنت أجد مادة خصبة لخيالي، غذاءً لقلبي وللكلمات التي لم أكتبها بعد .

وحين أغادر، لا أحمل معي دائمًا شيئًا ملموسًا، أعود في الغالب خفيف اليدين؛ لكن عامر القلب. أعود محمّلاً بما لا يُشترى: قصص، وملامح، وابتسامات، ودهشة. هناك، بين أزقة السوق الضيقة، أيقنت أن الثقافة ليست رفاهية ولا حكرًا على الكتب أو الصالونات؛ بل هي الناس حين يلتقون في مكان واحد، يبيعون ويشترون ويتجادلون ويتبادلون الحياة ببساطتها.

برّ قطر

اسمٌ إذا استمعتَ إليه أخذَك إلى الفضاء الرحب، إلى البيئة البِكر، إلى الحياة الفطرية بما تحتضنه من كائناتٍ حيّة. يفتح لك المعنى أبواب الخيال، ويمتدّ بك نحو الأفق الواسع، حيث كلّ شيءٍ يحتضن الحياة ويستوعبها.

وبرّ قطر هو أصل الاسم؛ فقد كانت قطر بما أحاطتها المياه من جوانب، تشير بامتدادها بين عالمين متقابلين: البحر والبرّ. البحرُ بمدّه وصيده وأسراره، والبرُّ بثباته، واتساعه، ودفئه. والبرّ هو المؤل، والمستقرّ الذي تنصت فيه الحياة إلى نفسها وتستقيم عليه خطاها.

لقد ارتبط برّ قطر بفصلي الخريف والربيع وصفاء الجو، وباخضرار الروضات، وانتعاش الكائنات. حتى الإنسان نفسه، حين تهبّ نسائم الربيع، يهجر المدينة ويقصِد البرّ؛ ينصب بيوت الشَّعر، ويوقد النار، ويجلس يتأمَّل هذا الفضاء الفسيح الذي يعيد إليه صفاءه الأول. هناك يتتبَّع الكائنات الحيّة في تنقّلها، ويراقب الأرض وهي تهبُ عطاياها: الفقع الذي يشقّ التربة بندرةٍ وشوق، والجراوة وسواها من نباتاتٍ برّيةٍ تفوح بعطر المطر، ليس لطعمها مثيل، لأنها تُثمر من رحم الطبيعة لا من يد الإنسان.

في البرّ تنتشر الخيام كأنها خريطة متناغمة بين الإنسان والمكان؛ تصنع من الرمال والهواء لوحةً لا يرسمها إلَّا من عاد إلى ذاته. فحين تضيق المدينة بزحامها وآلتها وضجيجها، يفرّ الإنسان إلى البرّ ليجد فيه اتساع الحياة الأولى. وهكذا يبقى برّ قطر - منذ فجر الوعي وحتى اليوم - المأوى الأبدي للإنسان، ومتنفّس الروح، وسجلّها الذي لا تكتبه الكلمات؛ بل تسكنه الذكريات.

أما أنا، فقد جئت من بيئةٍ حضريةٍ مزدحمةٍ بالأسمنت والضجيج، لأجد نفسي أمام بيئةٍ مفتوحةٍ على الحياة - بحرٌ من الصحراء، وشطآنه مياه. هناك تماهى البرّ والبحر في مشهدي الداخلي، وكأن الطبيعة بأكملها قررت أن تفتح لي صدرها، لأتأمَّل معنى الاتساع بعد ضيق، ومعنى البساطة بعد تعقيد. في البرّ، لا يُقاس الزمن بالساعات؛ بل بخفوت الضوء وامتداد الظلّ وتبدّل الريح. كلُّ لحظةٍ فيه تذكيرٌ بأننا عابرون في زمنٍ لا يُختصر في المدن ولا في الأبنية؛ بل

في هـذا التواصـل الصـافي بين الإنسـان والطبيعة.

البرّ يعنـي الروضـات، والروضات هي مكامن الحياة في أرض قطر، فيها تنبض الأرض وتتنفـس الكائنـات. في كنفها تعيش الطيور والحشرات والزواحف، وتتشـابك الجـذور في صمـتٍ جميـل، لتصنـع عـوالم متناغمـة متعايشـة، تفيـض بالحيـاة مـع أولى زخّـات المطـر. فـإذا نـزل الغيـث، تفجّـرت الأرض بعطائهـا، وخرجـت من بين حنايـا التربـة ومـن جـذور الأشـجار أنفـاسٌ دافئـة مـن حياةٍ جديـدة. هنـاك تنبت العوسـج بشـوكه الحارس، وتمدّ السَّـلَم ظلاله الخفيفة على الرمال، وتتسـامق السَّمُر بجذعهـا الصلـب كأنهـا شـاهدةٌ على صبر المـكان وثباتـه. تتآلـف هذه الأشـجار في صمـتٍ نبيـل، لتمنـح البرّ ملامحـه، ولتكون مـأوى للطيـور، وظلًّا للإنسـان، وعلامةً على أن الحيـاة -وإن بـدت قاسـية- لا تنقطـع مـا دامت الجـذور حيّة.

لم تمـر فترةٌ طويلـة حتـى وجدنا أنفسـنا نـسير بخُطى القطـريين، أولئك الذين يحملـون في قلوبهـم عشـقًا فطريًـا لـلبرّ. كنّـا نراهـم يُهرعـون كلما لاح في الأفـق موسـم المطـر، كأن نـداء الأرض يناديهـم، فهرعنـا نحـن - أيضًـا - خلفهـم، نحمـل شـغف الاكتشـاف ذاتـه، وننصـب خيمتنـا الصـغيرة في بقعـةٍ مـن الرمـل، أو نمـدّ مظلتنـا تحـت ظـلّ السَّـمُر أو العوسـج، نشـاركهم دفء المـكان وصفـاء اللحظـة. هنـاك، في ذلـك الفضـاء البكـر، تفاعل أبناؤنـا مع البيئـة الفطريـة الجميلة كما لو كانـوا يعـودون إلى أصلهـم الأول؛ يلهـون بين الأعشـاب البرّيـة، ويتتبعـون الطيور، ويسـتمعون إلى حكايـات البرّ التـي ترويهـا الريـح عند المسـاء. كانت تلـك التجارب البسـيطة تـزرع فيهـم حـب الأرض، وتعلّمهـم أن الوطن لا يُقاس بالـولادة فقط؛ بل بالمشـاركة والعيـش فيـه، وبالانـتماء إلى روحه.

نعـم، هـذا وطـنٌ لنـا جميعًـا - وطـنٌ يتّسـع بقلوبه قبـل حـدوده، وبصحاريه قبل مدنه.

حين أعـود مـن البرّ إلى المدينـة، يبقـى شيءٌ مـن الرمـل عالقًـا في خطـواتي، ورائحـة النـار في ثيـابي، وصـوت الريـح في سـمعي؛ كأن البرّ لا يغـادرني أبـدًا.

ربمـا لأنّ البرّ في قطـر ليـس مكانًا يُزار؛ بل حالة تُسـتعاد - عودةٌ إلى البدايات، إلى نقـاء الوجـود الأول، إلى الإنسـان كما خُلِـق قبـل أن تضيّـق عليـه الحضـارة أنفاسه.

نباتات قطرية

كلما أغمضتُ عيني وعدتُ إلى بداياتي في قطر، أرى الصحراء أوَّل ما يستقبلني من الذاكرة؛ ذلك الامتداد الهائل الذي ظننته في شبابي فراغًا، فإذا به يمتلئ بالمعاني كلما توغلتُ فيه أكثر. كانت الصحراء أوَّل مدرسة دخلتها دون أوراق ولا معلم، ومع ذلك تعلَّمت فيها دروسي الأعمق: معنى البقاء، وصبر النبات، ورائحة المطر حين يغافل الرمل، وكيف يمكن للهدوء أن يكون لغة كاملة لا تحتاج إلى كلمات. لم أكن أدرك يومها أن خطواتي الأولى بين الحصى والرمل ستفتح لي أبوابًا لا تنتهي، وأن الأعشاب الصغيرة التي كنت أنحني عليها لأتعرّف إليها ستقودني إلى اكتشافات أكبر من النبات نفسه... اكتشافات تخصني أنا. كانت تلك البدايات أشبه برحلة كبرى في حياتي؛ رحلة لم تدرّسني علم النبات فحسب؛ بل درّستني شيئًا من حكمة الأرض، ومن صبرها، ومن قدرتها على أن تخبئ الجمال في أشد المواضع قسوة. ومن هناك بدأت الحكاية.

تفتح الصحراء ذراعيها في قطر، حصويّة رمليّة، قاسية الملامح أحيانًا؛ لكنها في نظري كانت، دائمًا، مكانًا دافئًا، يتجمّل بين وهج شمس الصيف واعتدال شتاء يلفح بالخفة والبرودة. هذه الأرض التي تبدو جامدة وصامتة من بعيد، تخفي في أعماقها حياة لا يدركها إلَّا من يصبر عليها ويصغي لوشوشتها الخافتة. كنت كلما اقتربت منها أكثر، اكتشفت أن القسوة ليست سوى ستارٍ رقيق يخفي جمالاً آخر... جمال الصبر.

ورغم قلّة المساحات الخصبة، عرف القطريون كيف يخلقون من محيطهم معجزات صغيرة؛ نخيلاً ينهض في وسط القفار، وحدائق منزلية خضراء تلمع وسط الرمل، وبقعًا نباتية تشبه الابتسامة في وجه الصحراء. ومع الزمن، ابتكر الناس وسائل عيشهم برًّا وبحرًا، وصانوا بيئتهم وتفاعلوا معها، حتى غدت جزءًا من وجدانهم ومكوّنًا أصيلاً من هويتهم.

وفي هذه الصحراء التي قد تبدو خالية للناظر العابر، تنبض الحياة بطريقتها الخاصة. فقد سُجّل في قطر ما يفوق ثلاثمئة نوع من النباتات البرية، تعلّم بعضها أن يعيش على الندى القليل، وبعضها اختار الروضات حين تمتلئ تربتها

بالطين بعد المطر، وبعضها وقف شامخًا، مثل: السمر والسنط، يظلّل الرمال كأنه يحيطها بأمان. ومع أوَّل خيط من المطر، كنت أرى الأرض تنبسط وكأنها تستعيد شبابها؛ أزهار زرقاء وصفراء وبيضاء وبنفسجية تتفتح دفعة واحدة، فتتحول القسوة إلى بهجة نابضة.

الصحراء لا تكشف أسرارها كلها فوق سطحها؛ فهي تخبئ كنوزها في الأعماق لمن ينتظر. ومع مواسم الأمطار، يخرج الفقع، الكمأة الصحراوية، الملتصقة بنبات الرقروق، كأن الأرض تمنحها لمن يجيد قراءة صمتها. وعلى السطح، تتفتح شوكة الصحراء بزهورها البرتقالية، لتقول إن حتى الأشواك قادرة على أن تصنع جمالاً لا يُنسى.

وحين التحقت بجامعة قطر، كانت أولى مهامي أن نؤسس معشبة نباتية تحفظ شيئًا من هذا العالم الصامت - أن نمسك بروح الأرض ونخلّدها في أوراق، وكأننا نحتفظ بظلّ الصحراء في زجاجة. وكان أجمل ما قُدّر لي أن أعمل تحت يد أستاذي الراحل كمال الدين البتانوني، رحمه الله؛ الرجل الذي أحبّ النباتات... وأحبّته. كان يرى في كل نبتة شخصية لها مزاج ورحلة، ويعلّمني أن النبات ليس مجرَّد عيّنة تُجفف وتُلصق في دفتر؛ بل روح صغيرة تحمل تاريخًا وذاكرة. وكلما انحنى على ساق أو ورقة، كنت أشعر أنني أمام حكيم يصغي لسرّ الأرض.

وفي رحلاتي الميدانية، كنت أخرج كما يخرج الإنسان لزيارة أصدقاء قدامى. أبحث عن الجِثجاث أوَّلاً، ذلك النبت الخجول الذي يكشف أن المطر مرّ من هنا، ثم عن العكرش الذي يثبت جذوره في السبخات كأنه يقول إن البقاء قرار. وكان المرخ يذكّرني بشيخ وقور، قليل الأوراق عظيم الفائدة، يحمل سرّ النار الأولى. والسدرة كانت تمنحني طمأنينة لا تُنسى؛ ظلّها، ثمرها، وذاكرتها جعلت منها أمًّا من أمهات الصحراء. والغاف بجذوره العميقة كان يهمس لي، دائمًا، بأن الحياة تُطلب من الأعماق، لا من السطح.

وفي الأراضي المالحة، كان الرمث يقف بصبرٍ لا يتزعزع، والحمّاض يترك في الفم نكهة طفولة عابرة، والأرطى تنحني للريح ولا تنكسر، والنُويد والحبن والثمام يحيون المكان بعد أوَّل قطرات المطر، والشِّفلح يلمع بزهرة بيضاء تزيّن

شوكه، والعرفج الذهبي والحنظل المرّ والهرم الذي تعشقه الإبل... كلها فصول من كتابٍ واحد: كتاب الصحراء التي لا تقول شيئًا مباشرًا؛ لكنها تقول كل شيء لمن يفهم.

وعندما كنت أعود إلى المعشبة محمّلاً بعينات جديدة، كنت أدرك أنني لا أحمل نباتًا؛ بل أحمل لحظة من عمر المكان، وأنني أكتب تاريخًا آخر لقطر؛ تاريخًا يبدأ بنبتة صغيرة تشق الرمل لتقول إن الحياة أقوى من التصحر.

وظلت النخلة أمامي، دائمًا، رمزًا لهذا الصمود. تغوص جذورها أفقيًا وعموديًا، تحتمل الملوحة والحرارة، وتبقى منتصبة مهما اشتدّت الرياح. رأيت فيها صورة الإنسان القطري: ثابتٌ، كريم، وواسع الجذور. ثمارها كانت سخاءً بلا حدود، وجذوعها وسعفها وخوصها دخلت في كل تفاصيل الحياة. وعندما رأيت الفنَّان يوسف أحمد يصنع من سعف النخيل ورقًا يكتب عليه العالم، أدركت أن النخلة ليست مجرَّد شجرة... بل ذاكرة وامتداد وروح.

أما السدرة، فكانت في نظري شجرة السكينة. ثابتة، غير متكلّفة، تمنح ظلاً وملاذًا وتترك للطيور أن تبني أعشاشها في أمان. وحين أصبحت رمزًا لمؤسَّسات كبرى في قطر، شعرت أن المكان يكرّم شجرته كما يكرّم أجداده.

واليوم، وأنا أستعيد تلك السنوات التي قضيتها بين الرمل والنبات، أعرف أنني لم أكن أدرس الفلورا القطرية بقدر ما كنت أقرأ نفسي بينها. علَّمتني الصحراء أن الحياة ليست وفرة ماء؛ بل وفرة إرادة؛ وأن الجذور الصغيرة التي تُدفن في الرمل قادرة على شقّ أقسى الصخور؛ وأن الأشياء التي تنمو في الصمت، هي غالبًا الأشياء التي تبقى.

ورحم الله أستاذي البتانوني... فقد كان مثل تلك الجذور التي لا تراها العين؛ لكنها تحمل الشجرة كلها. وما زالت الصحراء، كلما أزهرت نبتة وحيدة، تذكّرني به... وكأنه يبتسم لي من بعيد ويقول: **هنا يبدأ العلم... وهنا يبدأ فهم المكان.**

كِشْتة قطرية

في سنوات إقامتي بقطر، كنت أكتشف في كل لقاء مع أصدقائي وجهًا جديدًا من وجوه الحياة: مزيجًا من البساطة والكرم، ومن الحداثة التي لم تنسَ جذورها البدوية. وذات يوم دعاني بعض الرفاق إلى رحلةٍ برّية -كِشْتة قطرية كما يسمّونها - فكانت من تلك التجارب التي لا تُمحى من الذاكرة.

كان ذلك في ضحى يوم شتويٍّ صافٍ؛ الهواء نقيّ كأنه مغسول بندى الفجر، والسماء صافية كمرآةٍ زرقاء لا غيمة فيها. تولّى صديقنا فيصل -الأكثر درايةً بحياة البرّ- كل الاستعدادات بنفسه، فأراحنا من عناء التحضير. جهّز الطعام والخيام والأدوات، فدخلنا الرحلة بخفةٍ وامتنانٍ لذلك السخاء القطري الأصيل.

انطلقنا بسيارات الدفع الرباعي نحو البرّ، تلك المساحات الشاسعة التي يفرّ إليها القطريون كل شتاء من صخب المدينة وضجيجها. هناك، في اتساع الرمل وسكون الأفق، يلتقون بأنفسهم كما يلتقون بأصدقائهم. موسم التخييم يبدأ في منتصف نوفمبر ويمتد أربعة أشهر، وهو عندهم موسم حياةٍ كاملة، يعودون فيه إلى العادات القديمة: نصب بيت الشعر، إشعال النار، إعداد القهوة العربية وشاي الكرك، وإكرام الضيف. في البرّ، كما يقولون، لا تغادر دلة القهوة النار، لأن القهوة رمز الكرم ودفء اللقاء.

كان المكان منبسطًا، يبعد عن المدينة بما يكفي لأن تنسى الإسفلت والضوضاء. نُصبت الخيام، وأوقدنا النار، وبدأت رائحة القهوة والشاي تختلط برائحة الرمل الدافئ. جلسنا في دائرةٍ صغيرة، نتبادل الأحاديث والضحك والنكات، وكانت البساطة هي سيدة الجلسة.

أما فيصل، فقد كان يعيش لحظته كما لو أنه يعود إلى زمن أجداده. جاء ومعه صقرٌ مغمض العينين، وضعه على مقربةٍ من جلستنا، ثم أطلق حمامة كانت لديه، وفكّ العصابة عن عيني الصقر. انطلق الطائر في الجوّ كرميةٍ من شوق، دار دورتين سريعتين، ثم انقضّ على فريسته وعاد إلى صاحبه في مشهدٍ يأسر البصر.

ضحك فيصل وقال لي ممازحًا:

«أنـت يـا محمـد صقـر... لكنه صقر لا يـطير، ينتظر أن يأتيه الصيـد!» وانفجرنا ضحـكًا؛ لكنه أردف وهـو يربّت على كتفي:

«أو أن تذهـب لتجمـع الحطـب وتوقِـد النـار لكي نعـدّ اللحم ونطبخـه! عليك في المـرة القادمـة أن تشـاركنا، لأن روح الكِشْـتة أن نقوم جميعًا بـكل شيء. ففي البرّ لا ضيـف ولا مضيف... كلنا ضيـوف على البرّ».

كانـت كلماتـه تحمـل مـن الطرافة قـدرًا من الحكمـة. في البرّ، تسـقط الفوارق، ويسـتعيد الإنسـان فطرتـه الأولى؛ يعمـل، ويضحك، ويتقاسـم كل شيء مع الآخرين.

وبينـما كان عبـد اللـه يحمّـص البنّ على الجمر ويغليه في الدلّـة، انطلقت رائحة القهـوة في الهـواء كأنهـا نشـيدٌ صـغير مـن البهجـة. كان المشـهد كلـه لوحـةً مـن الصفـاء: هـواءٌ نقـي، وسماءٌ زرقـاء، ورمـالٌ تـتلألأ تحـت ضـوء النهـار. في تلـك اللحظـة أحسسـت أننـي لسـت زائـرًا للصحـراء؛ بل جـزءًا منهـا. كل ما فيهـا يتنفس على إيقـاعٍ واحـد: الصقـر، والنبتـة، والريـح، والإنسـان.

أمـا بيـت الشـعر، فبنـاءُه طقـسٌ مـن طقـوس الحيـاة البدويـة التـي لم تفقـد سـحرها. شـدّ الحبـال، تثبيـت الأركان، رفـع الأعمـدة - أعمالٌ فيهـا جهـدٌ وسرور. تبنيـه حيـث تشـاء، وتنقلـه متـى أردت، فتشـعر أنـك تملـك حريـة الأرض. حولنـا نباتـات برّيـة صـغيرة تشـقّ الرمـل لتعلن الحيـاة، وكائنـاتٌ خفية تتعـاون في صمتٍ عجيـب على البقـاء. هنـاك، وسـط هـذا التناغـم المدهـش، تـدرك أن الطبيعـة لا تعـرف الفـوضى؛ بـل نظامًـا أعمـق مـن كل مـا نسـميه نحـن «تـحضّرا».

ولعـل أجمـل مـا في تلـك التجربـة أن القطـريين، برغـم الحداثـة التـي تملأ مدنهـم، مـا زالـوا أوفيـاء لـروح البداوة، يحملـون في قلوبهـم توقًا للفطـرة الأولى، ويجـدون في البرّ اتزانًـا لا تمنحـه الجـدران. في تلـك البيئـة، يلتزمـون بقواعدهـا الصامتـة: لا يتركـون نفاياتهـم، ولا يمسـون حيـاة الكائنات البريـة، لأنهم يرون في الصحـراء بيتًـا للجميع.

الآن، بعـد مـرور كل تلك السـنين، أسـتعيد تلك الكِشْـتة كما تُسـتعاد لحظةُ صفاءٍ نـادرة. لم تكـن رحلـة ترفيهيـة؛ بـل عـودة إلى الفطـرة الأولى. هنـاك، في صمـت الصحـراء ونقـاء هوائهـا، يتـجلّى الدرس الأبسـط والأصدق: أن التناغـم مع الطبيعة

ليس استجمامًا؛ بل اعترافًا بحدود الإنسان أمام عظمة الكون.

في كل مرةٍ أستحضر تلك الصورة - فنجان القهوة، وضحكة الرفاق، وصفاء السماء - أشعر أن الصحراء لم تكن مكانًا نزوره؛ بل مرآةً نرى فيها أنفسنا كما خُلِقنا: طيّبين، متصالحين، وممتنين للحياة.

رمضان في قطر

لم أكن يومًا أظن أن العمر سيمرّ بهذه السرعة، وأن الأيام التي كنّا نعيشها بغير حساب ستتحوّل إلى ذكرياتٍ نعيش بها ومن أجلها. فها هي الحكايات تناثرت كحبات رملٍ في صحراء بعيدة، بعضها لا يزال يلمع تحت شمس الذاكرة، وبعضها غطّاه الغبار؛ لكنه ما يزال حيًّا في القلب.
ومن بين فصول العمر التي لا تُنسى، يبقى رمضان الدوحة فصلاً خاصًا من الوداعة والنور، شهرًا التقيت فيه نفسي من جديد، وتعلَّمت أن الغربة يمكن أن تكون وطنًا، وأن الهدوء قد يكون أجمل أصوات الحياة.

جئتُ من مصر التي كانت تستقبل رمضان بالزينة والأنغام وأصوات المآذن وضجيج الحارات، إلى الدوحة التي تستقبله بالصمت العميق والسكينة الندية. وهناك، وجدتُ رمضان وجهًا آخر؛ أكثر صفاءً، وأقرب إلى القلب. كانت وزارة الأوقاف تدعو كبار القرّاء والدعاة، فتتحول المساجد إلى مدارس إيمانٍ مفتوحة. نحمل في أذهاننا خريطة الدروس، ننتقل من مسجدٍ إلى آخر نستمع إلى الشيوخ والعلماء، وكلٌّ له بصمته الخاصة. وكنتُ أحرص على حضور دروس الشيخ محمد الغزالي، يرحمه الله، أجلس في الصفوف الأولى كأنني أجلس في رحاب التاريخ، وهو يخاطب القلب قبل العقل، ويزرع في النفوس بذور الفهم والإخلاص.

وللدوحة في رمضان نكهة الكرم والحياء. قبل المغرب بوقتٍ قصير، يمرّ أهل الخير على البيوت يوزعون أكياس التمر والعيش في صمتٍ جميل، فلا يُطرق بابٌ بصوتٍ عالٍ؛ بل يُترك الرزق عند العتبة كأن الله أوصله بيدٍ خفية. ذلك الكرم الهادئ الذي لا يطلب شكرًا هو ما جعلني أحب أهل قطر، وأشعر بينهم كأنني في أهلي وبلدي.

وفي ليالي الشهر، كان الدكتور درويش الفار، يرحمه الله، يدعونا إلى إفطارٍ عامرٍ في بيته ليلة السابع والعشرين، حيث تلتقي النعمة بالطهر، والطعام بالدعاء. يجلس العلماء والضيوف، وتتنزل الرحمة على المكان كله. ما زلت أرى في ذاكرتي وجه الدكتور درويش الفار الوادع، وابتسامته التي تجمع بين العلم

والتواضع، كأنها درس آخر من دروس الحياة.

وفي البيت، كان المذياع يصدح بصوتٍ لا يُنسى :الشيخ سعيد محمد نور، يرحمه الله، بتلاوته الرخيمة التي تهزّ القلب دون أن ترفع الصوت. كنتُ أسجّل تلاواته على أشرطةٍ صغيرة، أحتفظ بها كما يحتفظ المرء بصور أحبّته. ذلك الصوت وحده كان يكفي ليملأ البيت بالسكينة.
وحين يدوّي مدفع الإفطار، نلتف حول المائدة، نبدأ بتمرةٍ وماء، ثم نفتح التلفزيون على أدعية صلاح خليفة بصوته الخاشع، يتبعها حديث الشيخ علي الطنطاوي، يرحمه الله، فينهمر صوته الدافئ بالحكمة والعبرة، يجمع بين الدعابة والنور، بين تجربة العالم وتواضع المؤمن. فنستمع ونأكل، ونخرج من المجلس وقد شبع الجسد والروح معًا.

ولأن الحنين لا يغيب، كنّا - نحن أبناء الجالية المصرية - نذهب بعض صلاة العصر إلى شارع الكهرباء، إلى سوبر ماركت صيدا، نشتري الكنافة والقطايف وجوز الهند والمكسرات. نحملها بفرحٍ طفوليّ كأننا نحمل معنا رائحة القاهرة القديمة، نعيد بها شيئًا من طقوسنا، من بيوتنا التي تركناها هناك على ضفة النيل.
كانت تلك المشتريات البسيطة جسرًا من الذاكرة، نمدّه بين مصر وقطر، بين الماضي والحاضر، بين الحنين والرضا.

ثم تأتي الزيارات بعد الإفطار؛ بيتٌ يستقبل بيتًا، وأسرٌ تتبادل الدعوات في محبةٍ صافية، كأن البيوت كلها بيتٌ واحد.

وفي جامع الشيوخ نصلي خلف الشيخ يوسف القرضاوي، يرحمه الله، فيغمرنا صوته بخشوعٍ لا يوصف، ثم نلتقي في الغبقة مع الأصدقاء، نحتسي القهوة، ونتبادل الدعاء والذكريات حتى مطلع الفجر.

وفي الأسواق، كان الازدحام في الجمعيات التعاونية جزءًا من طقوس الشهر، لا يضجر منه أحد. وجوهٌ باسمة، وأيدٍ تحمل أكياس الأرز واللبن، وكأن الكل يسابق الزمن ليبلغ ساعة الإفطار، حتى الزحام كان يحمل نكهة الإيمان.

اليوم تغيّرت المظاهر، وظهرت الخيام الرمضانية في الفنادق وعلى الشواطئ، وتبدّلت الأضواء؛ لكن جوهر رمضان في قطر لم يتبدّل: ما يزال شهر العبادة

والكرم والسكينة.

وحين يعود الشهر، تعود الأصوات في داخلي: صوت الشيخ سعيد محمد نور، وحديث الشيخ علي الطنطاوي، وخطبة الشيخ الغزالي، ووجه الدكتور درويش الفار على مائدة ليلة القدر، ورائحة الكنافة التي تطهى على مواقد شارع الكهرباء.

وأقول لنفسي كلما تذكّرت تلك الليالي: ما أجمل أن يعيش الإنسان في بلدٍ غريبٍ فيجد فيه أهله من جديد، وما أصدق ما يُقال: رمضان لا يُعرَّف بالبلاد؛ بل بالقلوب التي تعرف الله.

كلما أستعيد تلك الليالي من رمضان الدوحة، أدرك أن الغربة ليست في المكان؛ بل في غياب السكينة؛ فالقلوب حين تعمر بذكر الله لا تعرف الفقد، والأرواح حين تأنس بالناس الطيبين لا تبقى غريبة مهما ابتعدت عن أوطانها. لقد علّمني رمضان في قطر أن الإيمان لا يُقاس بكثرة الأصوات؛ بل بصدق النية ودفء القلب.

هناك، عرفت معنى الكرم بلا مباهاة، والعبادة بلا ضجيج، والعلم بلا ادّعاء. وفي تلك البساطة الهادئة كان الجمال كله: جمال الناس، وجمال الزمن، وجمال أن تكون قريبًا من الله وأنت بعيدٌ عن وطنك.

واليوم، بعد أن مرّت السنين، ما زالت تلك الذكريات تتوهّج في داخلي كأنها تضيء عتمة العمر، تذكّرني أن في الاغتراب متسعًا للحنين، وفي الإيمان وطنًا لا يضيع.

الدوحة... مدينة المآذن

الدوحة... مدينة تتنفس الإيمان كما يتنفس البحر، وتستيقظ على صوت الأذان قبل أن يفتح الفجر عينيه. لم تكن المساجد فيها مجرَّد أبنية من حجر وجص؛ بل كانت جزءًا من روح المدينة، تنبض في شوارعها وتمنح عمرانها حياة خفية. في الدوحة، لا تمر زقاقًا إلَّا وتجد مئذنة تطل عليك كوجه مألوف، ولا يسير المرء فيها إلَّا وترافقه همسات التكبير من مسجد قريب. إنها مدينة تصلي كلها، مدينة اختارت أن يكون الدعاء جزءًا من عمرانها، كما يكون البحر جزءًا من أفقها.

أتذكَّر يوم قدومي الأول إلى قطر، حين شدَّ بصري ذلك الحضور اللافت للمساجد في كل زاوية، في الشارع الواحد مسجدان أو ثلاثة، كأن المآذن تتجاور لتنسج سماءً من الذكر. كنت أستمع إلى الأذان يتعانق من الشرق إلى الغرب، في تناغم سماوي يختلط فيه الصوت بالضوء، والروح بالمكان. كنت أقول في نفسي: ما سرّ هذا الامتداد الروحي الذي يملأ المدينة؟ ثم علمت أن أهل قطر قديمًا كانوا إذا بنوا بيتًا، ألحقوا به مجلسًا ومسجدًا؛ فالمجلس للحياة، والمسجد للروح، وكلاهما للناس. وهكذا صار للمجتمع وجهان متكاملان، أحدهما للعيش، والآخر للسكينة، فامتزجت العمارة بالعبادة، وتداخل الجدار بالوجدان.

في تلك السنوات التي عملت فيها على تحرير وإعداد كتاب «مساجد قطر: تاريخها وعمارتها» الذي وضعه الدكتور محمود رمضان، رافقت الكاميرا بين المساجد القديمة، من مسجد الوكرة إلى مساجد الخور، والذخيرة، والرويس، والشمال. كنت ألمس الجدران القديمة بيدي، كأنها ما زالت تحتفظ بحرارة الأكف التي سجدت عليها، وأسمع في صمتها صدى الصلوات الأولى. تلك المساجد كانت لغات من طين وإيمان، تتحدث جميعها بلسان واحد هو الخشوع والجمال. بعضها مفتوح على صحن تغمره الشمس، تحيط به أروقة ظليلة تقي المصلين حرّ النهار، وبعضها يتوجهه محراب بسيط النقش، دقيق الصنعة، يشبه القلب في صفائه.

كانت عمارة المساجد القديمة تنتمي إلى المكان كما ينتمي الظل إلى النخلة. كانت تعرف المناخ، وتخاطب الضوء، وتصادق الريح. نوافذها صغيرة تحفظ البرودة، وجدرانها سميكة تحضن السكون، وزواياها ناعمة كأنها نحتت من نسيم البحر. لم تكن الزخارف تتباهى؛ بل تهمس، ولم يكن الجدار يتفاخر؛ بل يحتضن الداخل إليه برفق كأم تحتضن طفلها. تلك البساطة كانت جمالها، وذلك التواضع كان سرّ فخامتها، فالمعماريون الأوائل لم يدرِّسهم أحد كيف يبدعون، ولكنهم امتلأوا إيمانًا، فخرجت من أيديهم مساجد تشبه الدعاء في صدقه وهدوئه.

ثم جاءت المرحلة الجديدة، حيث دخلت العمارة العصرية إلى روح المسجد، فظهرت تصاميم حديثة تجاوزت النظام التقليدي للقباب والمآذن والمنابر. صار المعمار يميل إلى التبسيط والتجريد، وصار الضوء جزءًا من التصميم، والظل عنصرًا من الجمال. مصممون مسلمون من ثقافات غربية حملوا إلى قطر أفكارًا جديدة، أرادوا أن يمنحوا المساجد ملامح الحاضر دون أن يسلبوها روح الماضي. فصارت القباب أكثر انسيابًا، والمآذن أقل زخرفًا، والواجهات أكثر صفاء. إنها عمارة تبحث عن النور الداخلي، لا عن البريق الخارجي، وتمنح السكون مساحة يليق بها الخشوع.

ورغم هذا التحول، بقيت المساجد القديمة تحمل طاقاتها الروحية العميقة، كأن في جدرانها ذكرى السجود الأول. فهي لا تبهرك بزخرفها؛ بل تخاطبك بخشوعها، ولا تتفاخر بفخامتها؛ بل تنصت لك حين تصلي. إنها عمارة الإيمان قبل أن تكون فنًّا، وذاكرة وطن بنى بالحجر قلبه قبل أن يبني مدنه.

واليوم، وأنا أنظر إلى الدوحة الحديثة، بأبراجها المضيئة وطرقها الواسعة، أرى المآذن القديمة ما زالت تقف بثبات بين الزجاج والحديد، تذكر بأن النهضة بلا روح لا تثمر. في كل مسجد حكاية جد حمل الطين، وأم دعت في صمت، وطفل حفظ آية عند الغروب. في كل مئذنة أذان يتجدَّد، وذاكرة تكتب على صفحة السماء أن الإيمان هو أجمل ما يبنى في الإنسان.

لقد تعلَّمت من مساجد قطر أن العمارة ليست حجارة ترص؛ بل روح تبنى، وأن المدن التي يكثر فيها الأذان لا تشيخ، لأنها تجدِّد نفسها بخيوط الفجر كل يوم. والدوحة، رغم اتساعها وتحديثها، ما تزال مدينة تسمع صوتها الداخلي، مدينة تعرف أن الجمال الحقيقي ليس في ارتفاع الأبراج؛ بل في ارتفاع الدعاء. ففي كل ركن منها مسجد يهمس بذكر الله، وفي كل فجر جديد مئذنة تكتب على صفحة السماء أن العمران يبدأ حين ينهض القلب للصلاة.

المنطقة الصناعية

تعود بي الذاكرة إلى ذلك الحدث الكبير الذي غيَّر ملامح المدينة، حين بدأت الدولة في تخصيص منطقة كاملة للصناعات والورش والأعمال الميكانيكية. كانت تلك بداية المنطقة الصناعية؛ فكرة جريئة خرجت إلى النور في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، حين أدركت الدولة ضرورة تنظيم النشاط الصناعي وحماية الأحياء السكنية من ضوضاء الورش ومخاطرها. في تلك السنوات خصصت الدولة أراضٍ للإيجار بأسعار رمزية، وأحيانًا طرحت قطعًا للبيع بأسعار تشجيعية، تشجيعًا لأصحاب الورش والمشروعات الصغيرة على الانتقال من قلب الدوحة إلى هذه المنطقة الجديدة التي أُريد لها أن تكون مركزًا للنشاط المهني والصناعي. كان الهدف واضحًا: أن تنمو المدينة دون أن تفقد توازنها، وأن يجد كل نشاط مكانه المناسب في الخريطة الجديدة لعمران الوطن.

هناك، بين الشوارع المرقَّمة التي امتدت في خطوط منظَّمة، قامت ورش ومصانع صغيرة ووكالات للسيارات وورش لإصلاحها وبيع قطع غيارها. كانت المنطقة الصناعية مدينة من نوع آخر؛ لا تشبه الأسواق القديمة ولا أحياء السكن؛ بل تضجّ بالحركة والعمل والروائح المختلطة من الوقود والزيوت والدهان. وبينما كانت الوكالات تبيع القطع الأصلية، انتشرت متاجر المستعمل التي تعرض كل ما يمكن أن يعود للحياة بعد أن خدم طويلاً في سيارة أو آلة. وكنّا نحن الزبائن نتحرك بين تلك الدكاكين بحذر وتجربة، نقارن بين الأسعار والجودة، نطلب النصيحة، ونستعين بخبرة من سبقنا في التعامل مع تلك الأسواق الصاخبة.

في المقاهي الصغيرة التي تنتشر بين الورش، كانت جلسات عابرة للحدود. كنّا نجلس إلى جانب إخوة آسيويين من باكستان والهند ونيبال وبنغلاديش، وندعوهم جميعًا بلقبٍ محبب صار شائعًا: «يا رفيق». كانت الكلمة مفتاحًا للحديث، ونغمةً من المودة قبل أي حوار أو طلب. لا أنسى كم حمل هذا النداء من البساطة والإنسانية، وكيف كان يختصر المسافات بيننا وبينهم.

وفي قلب المنطقة الصناعية ارتفع «جامع سارة» بقبته البيضاء ومئذنته التي تُرى من بعيد كعلامة للسكينة في وسط ضجيج الورش والمصانع. كان الخطيب المميَّز يملأ المكان كل جمعة بصوتٍ رخيم يحمل نغمة مختلفة، تجمع بين الوعظ والدفء. وكان كثير من رواد الورش يحرصون على التوقُّف عن العمل وقت الدروس الدينية مساء الخميس بعد صلاة العشاء، احترامًا لذلك الصوت الذي يعيد إلى القلوب طمأنينتها، ويذكّرهم بأن للحياة وجهًا آخر غير الحديد والزيت والدخان.

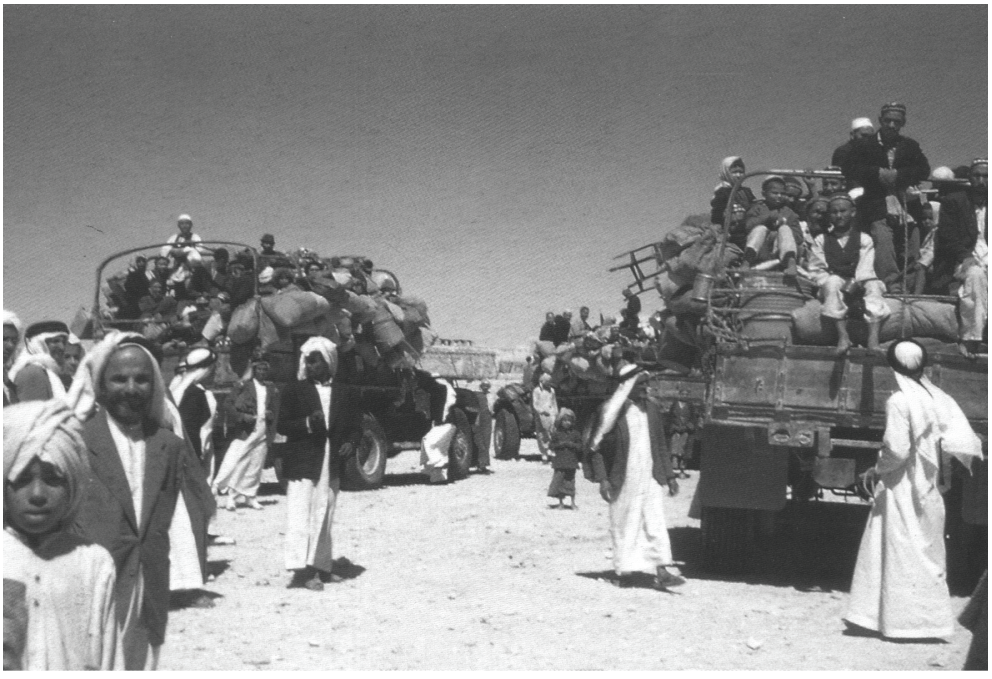
كنا نأتي إلى المنطقة الصناعية عندما تحتاج سياراتنا إلى صيانة، أو حين نقرر شراء سيارة مستعملة من الحراج القريب. كان الحراج - آنذاك - عالمًا واسعًا من الحكايات والمفاجآت؛ فبين السيارات القديمة التي تُعرض هناك تجد ما يغريك بالسعر، وما يخدعك بالمظهر. ولذا كنّا نتشاور دائمًا، ونعتمد على الخبرة الجماعية، لأن بعض الباعة كانوا يخفون العيوب بدهان مؤقت أو بإصلاح سريع لا يصمد أكثر من أيام. وعند العودة، لم يكن الطريق يكتمل دون مرورنا على سوق الخضار والفاكهة القريب من هناك. كانت تلك المحطة الختامية لرحلتنا، نشتري منها ما نحتاجه ونحمل معنا رائحة الأرض والثمار، كجائزة صغيرة في نهاية يومٍ طويل من السعي والمفاوضة والذكريات.

كانت المنطقة الصناعية يومها في قلب البر، على طريق سلوى، في فضاء شاسع لا تحدّه الأبنية ولا تقيه من رياح الصحراء. ومع ذلك، كانت البذرة الأولى لامتداد المدينة نحو الغرب. من هناك بدأ العمران يمدّ أطرافه، والطرقات تتشابك، والورش تتحوّل إلى مصانع، والمساكن البسيطة إلى أحياء كاملة. كانت نقلة نوعية في تاريخ المدينة؛ فتلك المساحة المترامية الأطراف لم تعد أطرافًا؛ بل صارت جزءًا من قلب الدوحة النابض.

واليوم، ونحن في العقد الثالث من الألفية الثالثة، تكاد المنطقة الصناعية تكون دولة صناعية قائمة بذاتها، لا مجرَّد منطقة. فيها من التنظيم والتوسع والتنوع ما يجعلها شاهدًا على رحلة وطنٍ خرج من

الرمال إلى رحابة العالم الحديث. وحين أمرّ بها اليوم، أرى مشهدًا مزدوجًا: أسمع في أذني ضجيج المطارق القديمة، وأرى بعيني أبراجًا ومصانع عملاقة، كأن الزمان جمع بدايته ونهايته في مشهدٍ واحد. وهكذا تبقى المنطقة الصناعية في الذاكرة، لا كحيٍّ من أحياء المدينة؛ بل كعلامة على رحلة التحوّل الكبرى التي شهدناها بأعيننا، وشاركت فيها قلوبنا قبل أيدينا.

الحج من قطر



◉ بداية مسير الحملة

أما وقد ادّخرتُ لأول مرة في حياتي ما يمكّنني من أداء فريضة الحج، فكان لا بدّ من التقدّم بطلبٍ لتأدية الفريضة. وكانت الجامعة تمنح الموظف إجازة حجّ لمدة أربعين يومًا مدفوعة الراتب لمرة واحدة في أثناء فترة خدمته. وتذكّرت وصية أبي حين قال لي: «مادامت أرض قطر هي امتداد لأرض الجزيرة العربية، فعليك بالحج، فهي أرضٌ مباركة».

عزمتُ على الحج أنا وزوجتي. كانت لدينا طفلتان: رضوى ودينا؛ الأولى تعيش معنا في الدوحة، والثانية آثرت البقاء مع جدّتها لأمها في مصر لتخفّف عن أمها عناء رعايتها. وكان علينا أن ندبّر أمر رضوى ذات الثلاث سنوات، فاستضافها زميلي وأخي سعود، لا سيّما أن ابنته هند كانت في عمر ابنتي، وزوجته صديقة زوجتي. فوجدنا فيهم الأهل، ولا زلنا على تواصلٍ أخوي حتى اليوم.

كانت حملات الحج البرّية هي الأكثر انتشارًا بين سكّان الدوحة، وكان المقاولون يسجّلون أسماء الحجاج قبل بداية الحملة بشهرين، مع انتهاء شهر رمضان، الذي كان صومه في ذلك العام موافقًا لشهر يونيو شديد الحرارة. كاد المكيّف المتهالك أن يحترق من شدّة الحرّ، إذ كان يعمل دون انقطاع. وكان كلّ همّي أن أراقبه طوال الوقت حتى لا ينفجر، وعندما تنكسر حرارة الشمس أعطيه فترة راحة إلى صلاة العصر. وقرب أذان المغرب يأتينا الخير، إذ كانت سيارات الديوان الأميري تأتي محمّلة بأكياس التمر والأرز وتوزعها على أبواب البيوت.

ولقرب بيتي من الشارع العمومي، كنت من البيوت المحظوظة. كنت أخرج كلّ يوم لأنتظر قدوم السيارات لأستلم الميرة، فأدخل على زوجتي بهذا الخير الوفير ونحن ندعو للشيخ خليفة بدوام العطاء، كما كان يفعل معنا بعض الميسورين من أبناء قطر الذين يتقرّبون إلى الله عبر أمثالي من متواضعي الحال.

بعد إجازة العيد، ذهبت أنا وزميل لي اسمه شوقي إسماعيل، وكلما ناديته تذكّرت أخي شوقي، ولعلّ ذلك جعله يأخذ مكانة في قلبي. كان قد عقد العزم على تأدية الفريضة هو وزوجته، وكان لديه خمس بنات ويطمع في ابنٍ ذكر، فاستودعهن الله عند زميلٍ لنا كان يرعاهن. ذهبنا إلى الحاجّ إرحمة الكواري -يرحمه الله- لأسجّل اسمي واسم زوجتي، ومن ثمّ أدفع تكاليف الحجّ. وكانت المفاجأة أن ما كان معي من مالٍ لا يكفي تكاليف حجّ اثنين.

استشعر الحاجّ إرحمة الكواري حيرتي وأنا أعدّ النقود ثم أعيد العدّ مراتٍ، فقال لي: «لا عليك، ادفع ما معك، والباقي بعد عودتنا من الحج». فقلت له: «وهل يجوز هذا؟» فقال: «يجوز، ما دمت عزمت فتوكّل على الله، وكلّنا يقصد بيت الله».

وأخذ يشرح لي عن رحلة الحجّ، فهي في «باص بلوبيرد» (Bluebird) مثل باصات المدارس. قال إن من الصعب أن ينقلب هذا الباص العملاق؛ لكنه خشن في المطبات، «قد يفكّك أوصالك؛ لكنه يحافظ على حياتنا». في

(الباص) يجلس الرجال في جانب والنساء في جانب، وتفصل بينهما ستارة. وعندما يأتي وقت النوم ليلاً، نترك الباص كاملاً للنساء ونغلق الأبواب عليهن، بينما ينام الرجال على فرشٍ خفيفٍ في الهواء الطلق تحت السماء.

قال لي: عليك أن تشتري غطاءً وفرشًا وزمزمية ماءٍ وخلافه، فستستغرق رحلتنا ثلاثة أسابيع. طريقنا عبر الهفوف، والحجاج يفضّلون الذهاب للمدينة أولاً والبقاء أسبوعًا للتمتّع بالصلاة في الحرم النبوي، ثم نعود إلى مكة لتأدية الشعائر. قواك الله، عمومًا أنت شاب، وسوف تساعدنافي أثناء الطريق.

تركته بعد أن سلّمني ورقة بتاريخ الرحلة وإيصالاً باستلام نصف التكاليف. كان الرجل بسيطًا وطيبًا، شعرت وكأنه من أهلي - رحمة الله عليه.

خرجت من عنده إلى شركة الاتصالات السلكية واللاسلكية، وكنّا نسميها «الكابل (Cable)»، لأجري مكالمة دولية مع أبي في مصر. وبعد انتظارٍ طويلٍ ردّ سنترال القاهرة ليحوّلني إلى الهاتف، فجاءني صوته الممتلئ بالحنين والشوق والقوة معًا. أخبرته بما نويت، فدعَا لي ببلوغ الأمل، وطمأنته على أمر ابنتي فاطمأنّ، لمعرفته بصديقي سعود، وحملني أمانة الدعاء له.

كان ذلك الصباح من الأيام المشهودة في حياتي. صلّيت الفجر مع زوجتي، وذهبنا بابنتي وحقيبة ملابسها وألعابها إلى بيت سعود لأستودعها الله عنده. سلّمته أغلى ما أملك: ابنتي. كان وداعًا مؤلمًا جديدًا ذكّرني بيوم تركتها في مصر، إذ كانت في عينيها نظرة عتابٍ جديدة. ودّعتها بقبلاتٍ محمومةٍ وعبراتٍ غزيرة، وحزمت أمري وحقائبي إلى فريج بن عمران حيث كان تجمع الحجاج.

كان الحاجّ إرحمة الكواري يتنقّل بيننا بحيوية الشباب، يشرف على حزم الحقائب ويتحقَّق من هويَّة الحجاج وجوازات السفر وبطاقات التطعيم الصحي، وينادي على هذا ويسأل عن ذاك. كان في منتهى النشاط

والحركة، كصاحب عرسٍ يوزّع الفرح. الحجيج بلباسهم ناصع البياض في حالة صفاءٍ وروحانيةٍ تعتلي جباههم، يسلّمون أنفسهم في رضا للحاجّ إرحمة، الذي كان يجلس هذا هنا ويستمع لذاك ويأمر وينهى ويعطي نصائحه للسائق.

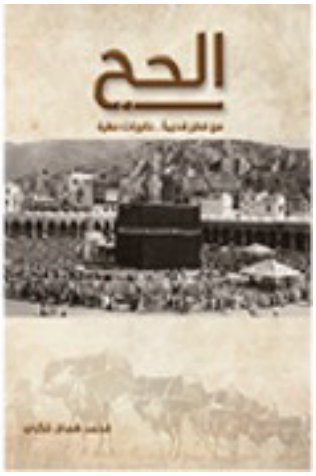
وكان من بين الحجيج كبار سنٍّ من أهل قطر، أبرزهم الحاجّ جاسم، الذي عاملنا بأبوةٍ وحكمةٍ وخبرة. كان لي معه أحاديث طويلة، لا سيّما بعدما علمت أنه حجّ أكثر من مرة، فقلت له هامسًا :«كيف كان الحجّ قديمًا يا حاجّ جاسم؟» فابتسم وقال:

«كانت رحلة الحجّ قديمًا تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر نقضيها في الذهاب والإياب، وفي حالة التعجّل كانت تقتصر على شهرين. وعلى الرغم من المصاعب، إلاَّ أننا كنّا ننسى كلّ ذلك عندما نصل إلى الأماكن المقدّسة».

ثمّ أضاف:

«كان الحجّ مناسبةً للابتهاج والاحتفال، يشارك فيها الأهل والجيران، وتعمّ الفرحة كلّ أحياء وفرجان قطر. كانوا يجهّزون حاجاتهم من طحينٍ وتمرٍ وسمنٍ وأرزّ وشايٍ وقهوةٍ وقِرَب مياهٍ وأعشابٍ طبية للتداوي، فضلاً عن مستلزمات السفر، مثل: أواني الطبخ، والحطب، والهدايا، والعطايا. أما اليوم فكل شيء متوفّر في الطريق، وسترى كيف تتحول محطات البترول في الطريق إلى سوقٍ ومطعمٍ ومقهى. أيامكم سهلة يا بني».

ثمّ أخذ يسرد ذكرياتهم مع القوافل التي كانت تتجمّع قرب مدينة الدوحة من بعد المغرب، حيث تتوافد الجموع من أطراف البلاد، ويأتي معهم المودّعون، ويستمرون في حزم أغراضهم من بعد صلاة العشاء إلى قبيل صلاة الفجر. وبعد الصلاة تبدأ الرحلة برًّا في اتجاه «سلوى»، يقودهم «الدليل» في المقدمة، وهو الذي يعرف الطريق ويتتبع أثر الأرض واتجاه الريح على الرمل (السافي). يسير الحراس بالتناوب على الجانبين طوال الرحلة، وتتوقَّف القافلة للراحة عند موارد الماء، وأحيانًا تسير ليلاً صيفًا لأن الجوّ أبرد.



كانت زوجتي قد اندمجت بدورها مع زميلاتها من الحجيج، واستمتعت بذكريات كبار السنّ، وإن لم تفهم إلَّا القليل بسبب اللهجة. وفي الاستراحات كنت أبادلها الحديث ونحن نتناول المشروبات الباردة، وشددت على يدها قبل أن تشكو لي مشقة الطريق، فقلت لها ما قاله الحاجّ جاسم: «سوف تنسين كل هذا التعب عندما نصل إلى الأماكن المقدّسة، وتُصَلّين في الروضة الشريفة».

وصلنا المدينة بعد ثلاث ليالٍ قضيناها في الطريق. نزلنا في منزلٍ قديم متفرّعٍ من شارع أبي ذرّ الغفاري، وأهمّ معالمه مسجد سيدنا أبي ذرّ. كان البيت عبارة عن حوش كبير محاطٍ بغرفٍ واسعة مزودة بمكيّفاتٍ صحراوية، كل عشرة أشخاص في غرفة؛ الرجال في جناح والنساء في جناحٍ يجمعهم رواق. هكذا قسمنا الحاجّ إرحمة.

ولأن الغرف ليس بها أسّرة، عرفت لماذا طلب مني الحاجّ إرحمة اصطحاب «فرشٍ» معنا. بدأ كلٌّ منّا يختار موضعه ليلقي عليه جسده. تعرفت في الغرفة على رفاقٍ من خيرة من التقيت بهم في حياتي: ممدوح، نظام الدين، ماهر، عدنان، ومعي الزميل الرفيق شوقي إسماعيل وغيرهم. منهم من كان يحفظ القرآن كاملاً دون أن يعرف القراءة والكتابة، وكنت أقرأ في المصحف فيصحح لي غيابيًا بنطقٍ محكم. ومنهم من يهب جهده لخدمة الحجيج.

انضممت إليهم في هذه المهمة؛ كنّا نجلب المياه الباردة من المبردات العامة

في حاويات «كولمان (Coleman)» وندور بها على الحجيج في ساحة الحرم لنسقيهم منها، ومنا من يساعد الحجاج التائهين على العودة إلى ذويهم، ومنا من يعين كبار السنّ على الوصول إلى الحرم النبوي. وهكذا كانت طاقتنا الجسدية والروحية تتدفق طول الوقت.

سررت جدًا عندما التقيت ببعض أبناء قريتنا يحجّون معي في هذا العام؛ التقيت بالأخ المرحوم عبد العزيز صالح عمار، والأخ السيد عبد الواحد الشيخ، وكان بيته قريبًا من بيتنا، فحملته سلامي للوالد والوالدة لطمأنتهما علينا.

وفي جميع روحاتي كانت زوجتي تتعلّق بذراعي أينما ذهبت، وتردّد ما أدعو به. أحيانًا كنّا نتناول وجباتنا في المطاعم، ونعود مسرعين للمسجد للبقاء في الروضة الشريفة، نراقب حمام الحرم، وبعد أن نصلي العشاء والشفع والوتر ننصرف إلى مأوانا، على وعدٍ بلقاءٍ قبل صلاة الفجر. وهكذا مرّت أيامنا السبعة في المدينة: صلاة وقراءة قرآنٍ وخدمة للحجيج، حتى ظهر الحاجّ إرحمة ليطلق صوت النفير: «هلمّوا يا حجاج، وجهتنا مكة المكرمة».

ركبنا الباص ونمنا حتى سمعنا صوت المنادي: كبّروا يا حجاج! فلبّينا جميعًا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك... لبيك.

كان للكعبة جلالٌ وهيبةٌ تُخلعُ لها القلوب، دمعت عيناي حين امتلأت ببصري ببهائها، وأمسكت زوجتي بيدي وتشّبثت بي وهي تتداخل في جنبي، والحجيج يتدفّقون من كل فجٍّ عميق، يتدفقون في موجاتٍ بشريةٍ جارفة. كانوا قد توافدوا جماعاتٍ جماعاتٍ في وقتٍ واحد، وتكبيرهم يزيد القلب خفقانًا، ونحن نطوف طواف القدوم ونسعى ونلبي ونكبّر... ويصغر كل شيء إلاَّ بيت الله.

في ظهيرة يوم السادس من أكتوبر، ونحن في منى في انتظار يوم صعود جبل عرفات، جاء من يقول لنا: هل علمتم؟ لقد اُغتيل الرئيس المصري محمد أنور السادات خلال عرضٍ عسكري أقيم في يوم السادس من أكتوبر عام 1981م. لم أهتزّ لهذا الخبر على الرغم من حبي للسادات، ولعلاقته ببعض أفراد عائلتي، لأن الموقف كان أكبر من كل كلام البشر.

تذكَّرت الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر - رحمه الله عليه - الذي كان موفدًا من بعثة الحج القطرية، يلقي درسًا علينا، وبطريقته المحبّبة يشرح لنا كيف نؤدي الشعائر. وعندما أخبرناه بخبر حادثة المنصّة، قال بهدوء: «كل من عليها فان». ثم أكمل الدرس، وكأن شيئًا لم يكن، وكان ملايين الحجاج يستعدون للتوجّه إلى صعيد عرفات بعد صلاة فجر اليوم التاسع من ذي الحجة، لأداء ركن الحج الأعظم.

صلّينا الفجر في منى ثم انطلقنا بعد الشروق إلى صعيد عرفات، وصلّينا الظهر والعصر في عرفات جمعًا وقصرًا بأذانٍ واحدٍ وإقامتين، وبقينا في عرفات لا نتوقف عن الذكر والدعاء حتى غروب الشمس.

وبعد الغروب نفرنا من عرفات إلى مزدلفة، حيث صلّينا المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، وقضينا ليلتين فيها. أذكر أن التعب قد نال مني حتى أُغمي عليّ وأنا أصليّ. وبعد مزدلفة توجهنا في ساعات الصباح الأولى إلى منى في أول أيام عيد الأضحى لرمي جمرة العقبة وذبح الهدي، ثم الحلق أو التقصير قبل أن نتحلّل من إحرامنا تحلّلاً أصغر.

عقب ذلك توجهنا إلى مكة المكرمة لطواف الإفاضة والسعي بين الصفا والمروة، وتكرر مشهد القدوم ثانية، ولكن الناس كانوا يأتون في فيضٍ عظيم، ثم تحلّلنا تحلّلاً أكبر.

في رحاب الحرم، لم أتمالك نفسي أمام روعة المكان، فتبلّلت وجنتاي بالدموع. وعندما عدت إلى مسكننا جاءني ملاك الشعر يستنهضني، وأخذت أتمتم:

قلبي
يا روعةَ هذا الحُسْن،
يا وهجَ النورِ المنسكبِ على وجهِ المارّة،
يملأُ صدري أريجُ الضوء،
تجذبني نبضاتُ القلوبِ الوجِلة،
نتحلّق حولَ البيت،
أرددُ معهم: يا الله... يا الله...

يا غافرَ ذنبِ العبد،
أتعلّقُ في ظلِّ الكعبة،
أسبقُ خطواتِ الحجاج،
يدفعني شوقُ الناس،
لأخرجَ من ذاتي،
أتمتمُ بالدعوات:
يا الله... يا الله...
يا ربّ البيت،
يا غافرَ الذنبِ،
أختبئُ في قبضتِه،
يتطهّرُ قلبي من ذنبي،
أُشربُ من دمعي،
وأجهش...
يا بيتَ الله،
يا أولَ بيتٍ للناس،
امنحني فيضًا من نورك،
وامنحني صلاةً وقيامًا،
وامنحني سلامًا وأمانًا،
وامنحني زكاةً وصيامًا.

ولأول مرة وجدت نفسي ضيفًا على التلفزيون القطري، حين جاء فريق التصوير يتقدّمه المذيع عبد العزيز السيد، وطلبوا منّا أن نرسل رسائل لطمأنة الأهل في قطر. تمنّيت أن تشاهدني ابنتي حين وقفت أمام عدسات التلفزيون لأقول:

«أنا الحاج محمد همّام فكري المكاوي، من بعثة الحج القطرية، نحمد الله أن أتمّ علينا نعمته بتأدية الفريضة».

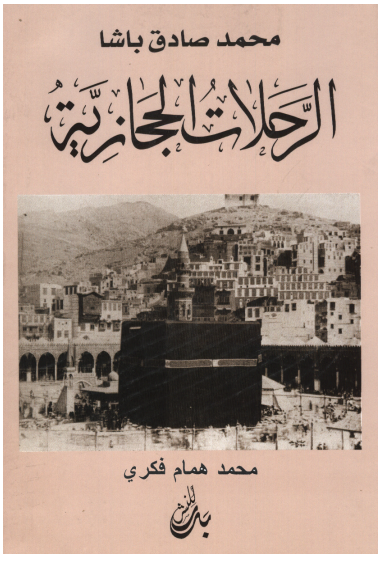
ثم أرسلت سلامًا لمن يشاهدوننا، وخصّصت سموّ أمير البلاد المفدّى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، وولي عهده الأمين الشيخ حمد بن خليفة، ووالدي

وإخوتي وابنتي والأهل والأصدقاء بالسلام؛ لكنهم لم يشاهدوني، فقد كان الإرسال التلفزيوني لا يصل إليهم، ومع ذلك كنت راضيًا، فعلت ذلك بتلقائية صادقة.

وحين عدت إلى الدوحة ظننت أن معظم من جاء للسلام عليّ ربما يكون قد شاهدني في التلفزيون؛ لكنني اكتشفت أن أكثرهم لم يلحظ ذلك، رغم الهدايا التذكارية التي وزّعتها عليهم من مسابح وعطورٍ وبخورٍ وسجاجيد صلاةٍ وصورِ الكعبة المشرفة.

ومنذ ذلك التاريخ تعلَّق قلبي بالكعبة، وصار للحجّ مكانٌ في وجداني لا يزول.

وعندما وقعت بين يديّ كتاباتُ محمد صادق باشا عن الحجّ ورحلته إلى الأراضي الحجازية أميرًا لبعثة الحجّ المصريّة مصاحبًا لكسوة المحمل، لم أتردَّد في إعادة طباعة تلك الكتابات وتحقيقها ونشرها في كتابي الرحلات الحجازية (1999م)، الذي ضمّ مؤلَّفات محمد صادق باشا الثلاثة:
نبذة في استكشاف طريق الأرض الحجازية، ومشعل المحمل، وكوكب الحجّ.



وقد نُشر الكتاب عقب الكشف عن بيع مجموعة صورٍ نادرةٍ للحرمين الشريفين اقتنتها مكتبة الملك عبد العزيز في الرياض، وكان سعرها يفوق كلّ التوقعات، كونها من أوائل الصور التي التقطت للأماكن

المقدسة. شعرتُ بالفخر أن محمد صادق المصري هو أول من صوّر الحرمين، وتمنّيت لو أن مصر أقامت متحفًا يضم جميع أعماله وأعمال المصورين المصريين للحرمين.

ليس كل ما نتمناه ندركه؛ فقد اعتصر قلبي الألم حين علمت أن معظم أعمال محمد صادق – جد الملكة ناريمان – قد تسربت لتُباع في المزادات العالمية، وبعضها خرج من بيوت مصرية عريقة.

وحين تسلَّمت أمانة معرض مجموعة الشيخ حمد بن عبد الله آل ثاني، ورأيت ما يقتنيه من نفائس المخطوطات والصور النادرة للحرمين الشريفين – بعضها لمصورين مصريين، مثل، محمد صادق، وإبراهيم رفعت، وسعودي وغيرهم، شعرتُ أن الأقدار أرادت أن تمتد صلتي بالحجّ والذاكرة البصرية المقدسة على نحوٍ لم أتوقعه. كانت بعض الصور مهداة لشخصيات مصرية بارزة، منهم نجيب الهلالي.

وعندما صدر الكتاب لاقى اهتمامًا كبيرًا ليس في العالم العربي فحسب؛ بل كتبت عنه معظم الصحف العربية، واقتنتْه العديد من المكتبات العالمية، مثل: مكتبة الكونجرس، ومكتبة ألمانيا الوطنية، والمكتبة البريطانية وغيرها.

ثم قمت لاحقًا، بعد مرور نحو خمسةٍ وثلاثين عامًا، بتأليف كتابٍ عن الحجّ بعنوان :«الحج من قطر قديمًا: ذكريات عطرة»، اشتمل على ذكريات بعض أهل قطر، وقد أوليت هذا العمل اهتمامًا خاصًا، إذ تطلَّب جمع المعلومات إجراء مقابلاتٍ مع عددٍ من كبار السنّ والوجهاء الذين تجاوبوا مع أسئلتي.

كانت رحلة الحجّ من أهم المناسبات التي يعيشها أهل قطر سنويًا، وتشكل في حياتهم مناسبةً للابتهاج، ولها في نفوسهم مكانةٌ دينيةٌ سامية، تركت لهم ذكرياتٍ عطرة، بعضها يتعلق بالاستعدادات التي كانت تسبق رحلة الحج، وبعضها يرتبط بذكريات الطريق ومتاعبه والصعاب التي كانوا يواجهونها ذهابًا وإيابًا، حتى يعودوا سالمين إلى أوطانهم وأهليهم،

وكأنهم وُلدوا من جديد، ليعيشوا لحظات الفرح بلقاء الأحبة بعد أن أنعم الله عليهم بتأدية هذه الفريضة العظيمة.

فلطالما حظيت هذه الفريضة باهتمام خاص واستعدادٍ مميَّز، تختلف تفاصيله من زمنٍ إلى آخر، مرورًا بالعصور المتعاقبة وصولاً إلى أيامنا الراهنة.

لذلك كلما عدت بذاكرتي إلى تلك الرحلة البعيدة، شعرت أنني ما زلت هناك، في الطريق إلى الله، ألبّي من جديد، وأسمع هدير القلوب وهي تهتف بالرجاء والخشوع. كان الحج بدايةً لا نهاية، فقد غيّر فيَّ شيئًا لم أستطع وصفه يومها، شيئًا يشبه ميلادًا ثانٍ للروح بعد أن اغتسلت بماء الطهر والدموع.

تعلّمت أن الطريق إلى الله لا يُقاس بالمسافات؛ بل بالنيّة التي تعبر القلب، وأن المشقّة حين تُحاط بالصدق تتحوّل إلى رحمةٍ ولذّةٍ ورضا. هناك، في رحاب البيت العتيق، أدركت أن الإنسان مهما علا أو سافر أو كتب، فإنه يظلّ ناقصًا ما لم ينحنِ أمام خالقه بقلبٍ مملوءٍ بالمحبة والخضوع.

ومنذ ذلك اليوم، صار للحياة معنى أعمق؛ لم تعد الرفاهية في السعة؛ بل في الطمأنينة، ولم يعد الغنى في المال؛ بل في القرب من الله. أدركت أن الدعاء أصدق لغات الوجود، وأن السجود هو الموطن الذي تعود فيه الأرواح إلى أصلها الأول؛ إلى سلامها القديم الذي كانت تعرفه قبل أن تتفرّق في دروب الدنيا.

لقد كان الحج من قطر عام 1981 محطةً مضيئة في عمري، غسلت غبار السنوات، وربطت بيني وبين السماء بعهدٍ جديد.
وما زلت، كلما سمعت الملبين، أغمض عينيّ، فأجد نفسي هناك من جديد... أطوف، وأدعو، وأبكي، كأن الطريق لم ينتهِ بعد، وكأن القلب لم يزل يلبّي:

لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك.

السنتر.. الحياة الراقية



المركز، أو كما كنّا نسميه ببساطة السنتر، كان أول مول مفتوح عرفناه في قطر في أواخر السبعينيات من القرن الماضي. جاء ليقدّم لنا مشهدًا جديدًا من الثراء؛ ثراء في البضائع، وتنوّع في الأنواع والمواد، وتجربة مختلفة في أسلوب البيع والعرض. في تلك المساحة الرحبة، المفعمة بأجواء أوروبية غير مألوفة، أحسسنا بأننا أمام عالمٍ آخر كل شيء في متناول اليد، ولكن السعر ليس كذلك.

كان السنتر يقع بالقرب من فندق رمادا، ويملكه المغفور له -بإذن الله- الشيخ غانم بن علي آل ثاني. وكان وجوده قفزةً حقيقية في الحياة الاجتماعية والثقافية في قطر. لم يكن مجرَّد متجرٍ كبير؛ بل ملتقى نذهب إليه بشغف، نشعر ونحن ندخله كأننا نسافر إلى بلدٍ آخر، نتنفس روحًا جديدة، ونرى وجوهًا غير تلك التي ألفناها في الأسواق الشعبية.

هناك كانت النخبة من الناس يشترون ما لم نكن نعرفه من قبل: الكافيار، والسلمون المدخن، والأجبان الفاخرة، وأنواع الزيتون التي لم نسمع بأسمائها من قبل. كانت الرفوف تمتلئ بما يوحي بالعالم

الخارجي، بما يذكّرنا بأن الدوحة صارت جزءًا من شبكة الحياة الحديثة.

وخلف زجاج واجهات المحلات اللامعة كنّا نرى الملابس الأوروبية ذاتها التي تُعرض في باريس أو لندن، وقد وصلت إلينا، في الوقت نفسه، تقريبًا.

كانت الأزياء النسائية، على وجه الخصوص، تثير اهتمامًا واسعًا، وأحيانًا خلافات زوجية صغيرة لا تخلو من الطرافة: رغبةٌ في الشراء، وتردّد، ثم مساومة تُختتم عادة بابتسامة رضا.

صحيح أن الأسعار كانت أعلى من أي متجرٍ آخر في الدوحة؛ لكنها كانت تختصر علينا المسافات الطويلة التي لم نكن نحلم بقطعها. كنّا نتواعد لنلتقي في السنتر، ونتحين مواسم التنزيلات فيه لنغتنم الفرص. كانت ابتسامات الباعة، وروائح العطور، وأنسام المكان تملؤنا بهجة، وتجعل من السنتر أجمل مكانٍ يمكن أن نذهب إليه في الدوحة - ليس للتسوّق فقط؛ بل لملامسة حياةٍ جديدة بدأت تتفتح أمامنا.

لقد كنّا نجد في السنتر أحدث الأزياء وأجملها؛ لكن الأهم أننا كنّا نجد فيه الذوق. فليس كل ما يُعرض على واجهات المحلات يعني أناقة أو رُقيًّا، غير أن السنتر كان يمنحنا إحساسًا خاصًا بالجمال، يعلّمنا كيف نختار وكيف نُقدّر التفاصيل. كان مكانًا يصقل الذائقة قبل أن يملأ الحقيبة.

ولم يكن التسوق وحده هو ما يجذبنا؛ فقد كانت هناك كافتيريا صغيرة في أحد أركانه، تُعد القهوة برائحةٍ لا تُنسى. كنّا نجلس فيها دقائق معدودة؛ لكنها كانت كفيلة بأن تجعلنا نشعر أننا نعيش مشهدًا من مدينة أوروبية بعيدة.

بقي السنتر في ذاكرتنا رمزًا للرقي في كل شيء: في الذوق، وفي البضائع، وفي الأناقة، وفي التعامل، أيضًا. واليوم، بعدما تغيّر كل شيء، لم يعد السنتر مكانًا نرتاده؛ بل مكانًا نرتاده بالحنين. يعيش في الذاكرة كما يعيش العطر في الثوب لا يُرى؛ لكنه لا يزول.

تذكّرت هذه الخاطرة وأنا أفتح دولاب ملابسي، فأجدني لا أزال أحتفظ ببعض البدل والكرافتات التي اشتريتها من السنتر، رغم أنها غدت صغيرة عليّ. أحتفظ بها لأنها عزيزة عليّ؛ اشتريتها يومًا بمبلغٍ كان كبيرًا نسبيًا؛ لكنها كانت تحمل ذكريات الاختيار وفرح الامتلاك.

ذلك الفرح الذي كان له طعمٌ لا يوازيه شعور - فرحة الزمن القديم، فرحة المذاقات الأولى التي لا تعود. ليبقى السنتر في الذاكرة، ولتَبقَ تلك البدل في الدولاب، على الرغم من أنني لم أعد أرتديها، إلَّا أنني كلما لمستها، عاد إليَّ عبق ذلك الزمن الذي لا يُشترى. كان فرح الماضي بسيطًا مثل قلوبنا آنذاك، صادقًا، طازجًا، لا يحتاج إلى ترتيبٍ أو سببٍ واضح.

فرح يزورنا في التفاصيل الصغيرة: في بدلةٍ جديدة اشتُريت بتعبٍ وفرح، في فنجان قهوة من كافتيريا السنتر، كنّا نفرح على قدر محدودية الدخل؛ لكن فرحنا كان واسعًا مثل الحلم، نعيش به ونحكيه، ونشعر أنه يملأ الأيام نورًا.

أما اليوم، فعلى الرغم من سعة الدخل ووفرة ما نملك، صار الفرح ضيقًا، عابرًا. نشتري ما نشاء، نسافر متى نريد؛ لكن شيئًا ما ينقصنا .. تنقصنا تلك الدهشة الأولى التي كانت تُنعش أرواحنا في أبسط اللحظات. في الماضي، كنّا نفرح لأننا نكتشف الحياة، واليوم نحيا فيها دون أن نكتشفها.

كبرت المدن وتزخرفت الواجهات وكثرت المولات؛ لكن القلب لم يعد يحتفل كما كان. ربما لأن فرح الأمس كان نابعًا من الامتنان، وفرح اليوم أصبح مرهونًا بالمقارنة. هناك كنّا نحمد الله على القليل، وهنا ننسى أن الكثير لا يصنع الفرح ما لم يسكن القلب رضا. وما بين فرح مضى وفرح يتعثّر في الطريق، يبقى الحنين أجمل ما تبقّى لنا منَ الفرح، ذلكَ الذي لا يُشترى، ولا يُخطّط له؛ بل يأتي في لحظةٍ صافية، تمامًا كما كان يأتي زمان.

كافتريات ومطاعم

عندما جئنا إلى الدوحة، وحتى أواخر القرن العشرين، لم تكن المدينة تعرف المطاعم بمعناها الذي نعرفه اليوم. كانت المطاعم محدودة العدد، وبعضها يخص جاليات بعينها، مثل المطعم الصومالي أو الهندي أو الإيراني. ولم تكن تُعرف بتسمية «رستورانت» كما هو شائع الآن؛ بل كانت أقرب إلى ما كنّا نسميه الكافيتريات، وهي مقاهٍ صغيرة تقدّم السندوتشات الخفيفة مثل الفلافل والبيض بالطماطم أو البيض بالفلفل أو سندوتش الصالونا أو الجبن بالمربى والشباتي، ومعها الشاي أو الكرك.

أما المطاعم التي تقدّم وجبات كاملة أو بوفيهات مفتوحة فكانت حكرًا على الفنادق، ولم تكن ثقافة الأكل في المطاعم قد عُرفت بعد في المجتمع القطري؛ إذ لم يكن من المعتاد أن تجتمع العائلات في الأماكن العامة لتناول الطعام. كان الأكل في البيت هو الأصل، والبيت هو المائدة والملتقى، أما الخارج فمكانٌ لعملٍ أو لمشوار، لا لتناول الطعام.

ونحن المصريين، أيضًا، الذين كنّا نعيش هنا، لم نكن نُحبّذ الأكل في الخارج، فالمطاعم القليلة لم تكن تتفق مع ذائقتنا في المأكولات ولا مع عاداتنا في إعدادها، إلى أن بدأت المطاعم الغربية تغزو أسواق الدوحة رويدًا رويدًا. أذكر مطعم وينبي، ثم مطعمًا أمريكيًا يقدم السندوتشات السريعة والبرغر، تلاه مطعم كنتاكي فرايد تشيكن. وكنّا نرى هذه المطاعم الأوروبية آنذاك رمزًا للحداثة والتحضّر؛ بل إذا أردت أن تكرم ضيفًا فتصطحبه إلى مطعم كنتاكي. وصارت أعياد الميلاد تُقام هناك، وأصبح للأطفال طقس جديد من الفرح داخل صندوق من الدجاج المقلي.

كنّا نعود بعد الاحتفال إلى بيوتنا، إلى مطابخنا وروائحنا القديمة، حيث طعام البيت هو طعام الهويَّة. كنّا نطهو المحشي والمكرونة بالبشاميل، ونعد الفتة في الأعياد مع اللحم، أما الطعام اليومي فكان الأرز بالشعيرية ومعه خضار أو خضاران من البامية والملوخية والقلقاس

والمسقعة، وكلها أكلات مصرية بامتياز، نضيف إليها المخللات التي نصنعها بأيدينا في البيت: اللفت والفلفل والبنجر، بطريقتنا التي تحفظ الطعم والرائحة في الذاكرة.

أما السمك فكان له طقس خاص. كنّا نشتريه من شَبْرة السمك أمام ميناء الدوحة قرب سوق واقف في الصباح الباكر، حين تملأ رائحة البحر المكان. أشهر الأسماك التي عرفناها الهامور والكنعد والربيان والشعري والزبيدي، أما أنا فكنت أحب الصافي والكوفر، وهما صغيران؛ لكن طعمهما لا يُنسى. لم تكن هناك مطاعم للأسماك - آنذاك - إلاَّ في بداية التسعينيات، حين افتتح مطعم الخليج للأسماك، وكان حدثًا، وفي الثمانينيات ظهر أول مطعم مصري في الدوحة اسمه العندليب مخصص للمشويات، إلى جانب الكباب الإيراني الذي كان مقصدًا لعشاق اللحم المشوي بنكهة الفحم. ومنذ ذلك الوقت تغيّرت ملامح الذوق العام في المدينة وبدأت المطاعم تتنوع وتتعدد.

اتسعت الدوحة، واتسعت معها معدة الناس. خرجوا من البيوت إلى سوق واقف حيث المطاعم الشعبية، ثم إلى كتارا، فاللؤلؤة، فمدينة لوسيل، وكل الحواضر الجديدة التي غدت عامرة بالمطاعم والمقاهي. حتى المولات الكبرى أصبحت لا تخلو من مطاعم فخمة تتنافس على تقديم كل مطبخ من مطابخ الدنيا. وصارت المائدة عالمية، خرجت من حدود الهويَّة إلى فضاء الكون. تأكل المجبوس والبرياني والسوشي والريزوتو وتشعر أنك تكرم الثقافات التي امتزجت على هذه الأرض؛ لكن رغم كل هذا، يبقى في الذاكرة طعم البيت القديم، رائحة الثوم في طاسة المسقعة، ورنين الملاعق في طبق الفتة.

أما اليوم، فالمأزق الحقيقي يواجهني حين أجلس في مطعم حديث ويأتي النادل حاملاً قائمة الطعام. يقدّمها إليّ بأدب، فأفتحها فأجد نفسي أمام أسماء لا أعرف معناها، مركّبة متشابكة كأنها طلاسم: ريزوتو الترافل بالكريما البيضاء، باستا ألفريدو بالدجاج المشوي والسبانخ، سوشي ساشيمي بالواسابي. فأغلق القائمة مبتسماً وأقول في نفسي:

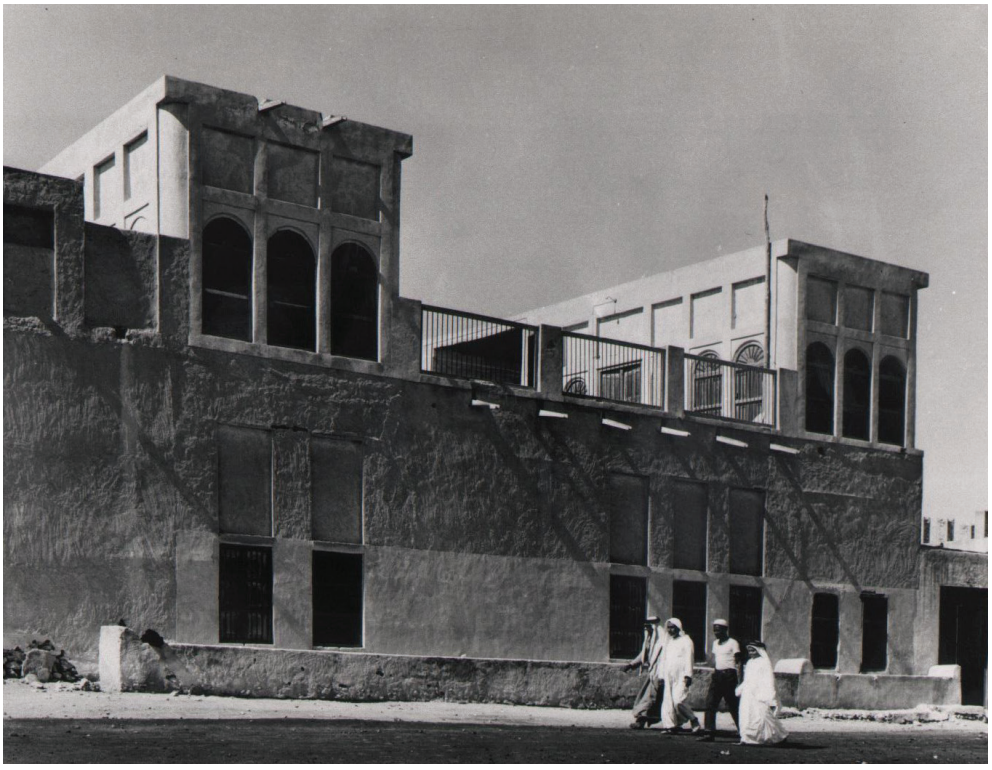
لقد تغيّرت المائدة؛ لكن الجوع واحد، وكم من طعام يُشبع البطن ولا يُشبع الحنين.

وحين أجلس مع زوجتي وأبنائي في المطعم، أقول لهم دائمًا: اطلبوا لي أنتم، فيطلبون لأنفسهم ولي معهم، وهم يعوّجون أفواههم بأسماء الأطباق، وأنا لا أفهم شيئًا مما يقولون، على الرغم من أنني أنا الذي سأدفع الحساب!

وكنت أُعيد دفتر قائمة الطعام بين يديّ، وأقول للنادل بصوت خفيض: هل عندك لحم مشوي؟ يعني كباب، أو سمك مع أرز؟ أو أقولك أكلني على ذوقك.

ثم أبتسم وأنا أرى في عينيه حيرةً لطيفة، كأن بساطتي هذه تُفقد المينيو رونقه أو تكشف سره. ومع ذلك، أشعر أنني أكثر صدقًا من كل تلك الأسماء المتلألئة في الورق.

عمارة البيت القطري...



◉ صورة تبين الإبداع في عمارة البيت القطرية قديمًا

كلما مررتُ اليوم في شوارع الدوحة الحديثة، وتطلعتُ إلى أبراجها وواجهاتها الزجاجية اللامعة، حتى وجدتُ نفسي أستعيد أول صورةٍ سكنت عينيّ حين جئت إلى قطر في أواخر السبعينيات.

يومها بدت البيوت القطرية بسيطةً في مظهرها، نبيلةً في جوهرها، كأنها جزءٌ من روح المكان ذاته. لم تكن العمارات قد غزت المدينة بعد، وكان القلب لا يزال نابضًا بتلك البيوت الطينية ذات الجدران البيضاء، والرواق الهادئ، والفناء الرحب الذي يجمع الأسرة تحت سماء واحدة.

المجلس هو عنوان الدار ومجال الكرم والوقار، أمّا داخل البيت ففضاء آخر، محجوب عن الغريب، تدور فيه الحياة في صمتٍ مهيبٍ ودفءٍ إنسانيٍّ عميق. ويمتاز تصميم المجلس بالاتساع وكثرة النوافذ المطلة على الخارج، المزينة

بالوحدات الزخرفية التقليدية. وتُفرش أرضيته بالسجاد والمساند اليدوية المطرزة، فيما تتوسطه أدوات إعداد القهوة، مثل: المحماس، والدلال، والفناجين، التي تمثل رموزًا للكرم العربي الأصيل.



◉ الرواق الداخلي في البيت القطري – الصورة لبيت يتم ترميمه

الغرف تفتح على الرواق، تتنفس من خلاله، وتطلّ على فناءٍ تتسلل إليه أنفاس البحر ورائحة الجصّ والهيل. وأتذكر «الدرايش» الصغيرة المرتفعة، تمنح الضوء والهواء بقدرٍ محسوب، وتحفظ للبيت سكينته وخصوصيته. وعلى امتداد الجدران تتهادى الزخارف الجصّية الدقيقة، مثل ابتساماتٍ معلّقةٍ على الجدار، تُبرز ذائقة البنّاء القطري وحرصه على الجمال حتى في أدق التفاصيل. تلك النقوش تروي حكاية الإنسان مع بيئته؛ حكايةً من طينٍ وريحٍ ودفءٍ وحكمة، وعلى مقربة من البيوت يعلو المسجد بمئذنته مذكّرًا بقدسيةٍ الحياة اليومية.

العمارة القطرية، في جوهرها، انعكاسٌ صادقٌ لعلاقة الإنسان بالسماء والأرض، بالمكان والناس، بالظلّ والضوء. أدرك البنّاء القطري بفطرته وذكائه البيئي أن العمارة ليست ترفًا هندسيًا؛ بل فنّ العيش في انسجامٍ مع المناخ والزمان والذاكرة؛ فجدران الطين تحفظ البرودة، والرواشينً الخشبية تقي من وهج الشمس، والفناء الداخلي يمنح الخصوصية والطمأنينة. تُشيَّد البيوت على قيمٍ روحيةٍ واجتماعيةٍ قبل أن تُرفع بالحجر والجصّ.

وحين أعود إلى ما دوّنه محمد جاسم الخليفي في كتابه «العمارة التقليدية في قطر»، أجد صدى ما كنتُ أراه بعيني الشاب يومها؛ فقد تناول العمارة بوصفها ثقافةً وحياةً، ومزيجًا من المادي والروحي، لا مجرَّد جدرانٍ وزخارف. جمع في دراساته بين الطراز الديني في المساجد، والمدني في البيوت والقصور، والعسكري في القلاع والحصون، مؤكِّدًا أن القطريين لم يكتفوا بالاقتباس من حضارات سابقة؛ بل صاغوا طرازًا يحمل بصمتهم المحلية، يجمع بين البساطة والوقار، والانسجام والجمال.

ثم تابعتُ أعمال المعماري إبراهيم الجيدة، فوجدتُ فيها امتدادًا لذلك الوعي ذاته؛ رؤيةً تجعل من العمارة امتدادًا للذاكرة لا قطيعةً معها.

في مشاريعه تستيقظ ملامح البيت القطري القديم بروحٍ حديثةٍ تتنفس الزجاج والضوء، لتبرهن أن الحداثة لا تُقصي التراث؛ بل تحاوره وتكمله.

قطر اليوم مدينةٌ تتبدّل ملامحها؛ لكنها لم تفقد روحها. في شوارعها تتجاور المآذن القديمة مع الأبراج الحديثة، وتظلّ روح البيت القطري حاضرةً في ذاكرة المكان، كأنها توقيعٌ صامتٌ على الحاضر باسم الماضي.

كلما أغمضتُ عينيّ، رأيتُ البيوت الأولى التي عرفتها في الدوحة: الرواق، والدرايش، والعرايس وهي نقوش مسننة كأنها حمائم، والمجلس الذي تعبق فيه رائحة القهوة، والسجاد العجمي. والمساند الملونة، وأسمع صدى الأذان من مسجدٍ صغيرٍ يتصل بالمجلس، وأشعر أن العمارة، آنذاك، كانت صلاةً من حجرٍ وضوء.

واليـوم، وأنـا أرى ناطحـات الزجـاج تلمـع في الأفـق، لا أحـنّ إلى الماضي بمعناه الزمني؛ بل إلى روحه؛ إلى عمارةٍ تصون الإنسان، وتبني له مكانًا يُشبه قلبـه بيتًـا من معنـى لا من مادة، فالبيت القطري لم يكن جدرانًا فحسـب؛ بل لغـةَ حيـاةٍ، ومعنـى للسـكينة، وذاكرة وطنٍ يربـط بين البحـر والرمل والسماء. ومـا زلـتُ، كلما مـررتُ بفنـاءٍ قديـم أو نافـذةٍ مـن الجـصّ، أشـعر أن في كل حجـرٍ مـن قطـر نبضـةَ إنسـانٍ أحـبّ المـكان فأحبّـه المكان.

«في البيت القطري يسكن الإنسانُ المكانَ، ويسكنه المكانُ بالحنين نفسه».



◉ واجهة بين أحمد يوسف الزمان – فريق الغانم

المرور في قطر... زمن الدوّار

في ذاكرة المدن صورٌ لا تبهت مهما طال عليها الزمن، تبقى مثل وشم على الروح، تُذكّرك ببدايات الأشياء حين كانت بسيطةً ونقيّة. ومن بين تلك الصُّور، تظلّ شوارع قطر في أواخر السبعينيات حاضرةً في وجداني كأنها مشهد من حلم بعيد؛ خالٍ من الزحام، مفعمٌ بالسكينة، يحمل رائحة الرمل بعد المطر، وصوت المكيّفات القديمة وهي تهمس بالبرد في القيظ. كانت الدوحة يومها تنمو بهدوء، مثل طفلٍ يفتح عينيه على العالم لأول مرة.

كان السير في شوارع قطر في أواخر السبعينيات تجربةً مفعمةً بالسكينة. كنت تستطيع أن تطوف الدوحة كلها - من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب - في نحو خمسٍ وأربعين دقيقة، لا أكثر.

الطرق، وإن كانت ضيّقة في الواقع، إلَّا أنها كانت فسيحةَ الروحِ والأفق. والسيارات تكاد تعرف بعضها، فلم تكن هناك إشارات ضوئية ولا كاميرات؛ بل نظامٌ بسيطٌ يحكمه الدوّار؛ الذي كان بمثابة القلب الذي ينظِّم نبض السيارات، يمنح الأولوية للأقرب من مركزه، وكأن حركة السير كانت تقوم على الفطرة، وعلى حسن التقدير والتدبير.

كنتُ أسير - أحيانًا - وحيدًا في الشارع، لا يرافقني سوى سيارةٍ أو سيارتين، وبينهما سيارةُ أجرةٍ برتقالية اللون تمضي في هدوءٍ وطمأنينة، أو تواجهني سيارةٌ أخرى في طريق العودة.

وإن وقع حادثٌ - لا قدّر الله - رأيت سيارات المرور تأتي من حيث لا أدري، وكأنها كانت تراقب بنبض القلب لا بعدسة الكاميرا.

كان رجل المرور يومها رمزًا للأمان؛ فإذا استوقفنا في دوريةٍ ليليةٍ قابلنا بابتسامةٍ هادئة، وطلب الرخص، يتفحّصها ويعيدها إلينا في هدوء. لا يعاقب بقدر ما ينصح، ولا يدوّن المخالفة إلَّا ليذكّرك بالانتباه.

كانت أرقام السيارات صغيرة، لا تتجاوز أربع خانات، والمخالفات تُسجَّل على ورقٍ في دفترٍ صغير، أشبه برسالةٍ ودّية تُذكّرك بالسداد لا بالعقاب. ولم تكن هناك دواعي كثيرة للمخالفات، فلم تكن لدينا جوالات، ولا أحزمة أمان، ولا

مخالفـات انتظـار في أماكـن ممنوعة.

ولأن الحيـاة كانـت بسـيطة، فقـد كان اقتنـاء السـيارة أمـرًا متوازنًـا؛ لا ترفًا ولا ضرورةً مطلقـة، كنّـا نحـن المقيـمين نـشتري السـيارات مـن بعضنـا بعضًـا، وتبـدأ المنـاورات ونحسـب لذلك بالشـهور على نهاية إعـارة هذا أو ذاك؛ فهذا لديه سـيارة تويوتـا يابانيـة بهـا مكيّـف، وذاك يمتلـك سـيارة فيات إيطاليـة موفّـرة في الوقود، وهكـذا نـشتري مـن بعضنـا بعضًـا وكأننا نـدور السـيارة بيننا.

كان الموظـف المعـار، حين تنتهـي إعارتـه بعـد أربـع أو خمـس سـنوات، يعـرض سـيارته المسـتعملة للبيـع، فيشتريهـا زميلٌ له، بينما يبيـع الثاني سـيارته الأقدم بثمن أقـل فكانـت أعمار السـيارات تقـدر بكـم معـار ركبها.

وهكـذا كانت السـيارات تنتقل من يدٍ إلى أخـرى، في دورةٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ تحفـظ القيمـة وتمنـع الإسراف، كنّـا نـشتري السـيارة التي نعـرف تاريخهـا وتاريخ مـن قادهـا وطريقتـه في القيـادة، لذلك كنّا نحجم عن الشراء من حراج السـيارات المسـتعملة لأننـا لا نعرف شـيئًا عـن تاريخ تلك السـيارات، حتى لو كانت أقلَّ سـعرًا. أذكـر أننـي اشتريـتُ سـيارةَ الدكتـور محمـود حمـدي زقـزوق عنـد انتهـاء إعارتـه، وكانـت ماركـة مـازدا 323، وعندما عاد إلى مصر عُيِّنَ وزيرًا للأوقاف، فاسـتبشرتُ بهـا خيرًا... ولا زلـتُ أنتظـر!، في تلـك الأيـام، كانـت السـيارات الأمريكيـة الفارهة هـي الأكثر حضـورًا في الشـوارع؛ شـاهدةً على ذوق الزمـن وميلـه إلى الرحابـة والفخامـة، تلمـع تحـت شـمس الدوحـة وكأنها جزءٌ من المشـهد العـام، تمضي ببطءٍ وثقةٍ بين الطرق الهادئة والدوّارات الواسعة.



◉ مشهد من شارع مشيرب في السبعينيات من القرن الماضي – أرشيف مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية

ذلك النظام البسيط في شراء السيارات المستعملة ساعد، أيضًا، في الحدّ من كثرتها، لأن الإقامة كانت محدودة، وكان القرار بشراء سيارةٍ جديدة يُعدّ نوعًا من الرفاهية المفرطة أكثر منه حاجةً حقيقية، فقد كانت الأشياء تعيش معنا عمرها الكامل بين الميكانيكي والبنشري، وتغادر برضا، كما يغادر الطيبون بعد أداء واجبهم.

ثم تغيّر الزمن، وظهرت الإشارات الضوئية الذكية، والكاميرات في كل زاوية، وأصبحت حركة المرور أدقَّ وأشدَّ تنظيمًا. لا غفلة بعد اليوم، ولا تجاوز يمرّ دون رصد. صار القانون حاضرًا في كل شارع، والالتزام سمةً عامة، والمدينة تنبض بإيقاعٍ محسوبٍ لا يترك مجالاً للصدفة.

وتحوّل رجل المرور إلى أن يكون قريبًا منّا أكثر من أي وقتٍ مضى؛ فقد صار يسكن في هواتفنا عبر تطبيق مطراش2، يرسل لنا رسائل المخالفات والغرامات

في لحظتها، ينبّهنا ويراقبنا، لا من بعيد هذه المرة؛ بل من جيوبنا وأيدينا. كأنّ النظام صار معنا أينما ذهبنا، حارسًا خفيًّا لسلامتنا. ومع كل ذلك، يبقى في القلب تقديرٌ لذلك الرجل القديم، رجل المرور الذي كان يقرأ الطريق بضميره، ويحفظ للناس سلامتهم بنظرةٍ إنسانيةٍ صافية، فالغاية في الماضي والحاضر واحدة: أن يحيا الإنسان في أمان، وأن يبقى الطريقُ سليماً لمن يسير فيه.

هكذا تمضي المدن في دورتها، تتبدّل وجوهها وتبقى أرواحها في الذاكرة. فالدوحة التي كانت تُقاس بالدُوارات أصبحت اليوم تُقاس بالزمن؛ لكن دفءَ تلك البدايات لا يزال يضيء في القلب، مثل مصباحٍ صغيرٍ على قارعة العمر. ربما تغيّرت القوانين والأنظمة، وربما صار الطريق أكثر صخبًا وانضباطًا؛ لكن الحنين إلى تلك اللحظات الأولى - حين كان السير فعلَ طمأنينةٍ لا حركةَ انتقال - يبقى أجمل ما يمكن أن نحمله معنا من ذلك الزمن... زمن البساطة، حين كانت الشوارع تشبه الناس، والناس يشبهون قلوبهم.

تأمُّلات مقيم

المقيم... كلمة قصيرة؛ لكنها تُخفي وراءها حكايةَ عمرٍ بأكمله، هي ليست مجرَّد صفةٍ قانونية تُكتب في أوراق الإقامة؛ بل هويَّةٌ تتشكَّل عبر الأيام، وجسرٌ يمتدّ بين ماضٍ تركناه خلفنا، وحاضرٍ صنعناه بجهدنا وعرقنا في أرضٍ جديدةٍ فتحت ذراعيها لنا.

جاء المقيم من وطنٍ بعيدٍ أو قريب، يحمل حقيبةً صغيرةً فيها أوراقه وبعض الصور، وربما شيئًا من تراب الوطن، كي يضعه في ركنٍ خفيّ من الذاكرة. جاء وفي عينيه أملٌ، وفي قلبه خوفٌ من المجهول؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن الغربة ليست دائمًا فراقًا؛ بل يمكن أن تكون ولادةً ثانيةً للإنسان، حين يجد في العمل معنىً، وفي العطاء كرامةً، وفي الناس إخوةً.

تتحوّل الغربة شيئًا فشيئًا إلى إقامة، ويتحوّل العمل إلى رسالةٍ يُؤدّيها المقيم بإخلاصٍ ليبقى في المكان الذي أحبّه، محافظًا على رزقٍ منّ الله به عليه.

ومع مرور الوقت، تنشأ علاقةٌ خفيّةٌ بين المقيم والمكان؛ يصير الشارع الذي يسلكه صباحًا جزءًا من ذاكرته، والمقهى الذي يجلس فيه يحمل عبقًا من حكاية، والوجوه التي اعتادها في السوق والحيّ تصير له أهلًا وإن لم تربطهم قرابة.

حتى إذا عاد إلى وطنه الأم، عاد إليه بشوقٍ وفرح؛ لكنه ما يلبث أن يشعر بشيءٍ من الغربة في الدار التي وُلد فيها، وكأنه صار معلّق القلب بين وطنين: وطنِ الميلاد والحنين، ووطنِ الرزق والأمان، وحين يطول به المقام، يدرك أن الانتماء ليس جغرافيا فقط؛ بل حالةُ حبٍّ واندماج.

فيشعر أن عليه واجبًا تجاه الأرض التي احتضنته، فيخلص في عمله، ويحترم قوانينها، ويشارك أهلها أفراحهم وأحزانهم، ويزرع فيها ما استطاع من خيرٍ، علّه يُثمِر يومًا لأحدٍ بعده.

ومع ذلك - رغم كل ما يصنعه القلب من جذورٍ - يبقى المقيمُ في أعماقه عابرًا، بمعنى الوعي بأن الدنيا نفسها معبر، وأن الأوطان - على اتساعها - ليست سوى محطاتٍ على طريقٍ أطول من العمر، شاء الله له أن يولد في مكانٍ، وأن ينشأ ويتعلم في آخر، وأن يعمل ويكدّ ويثمر في ثالث، وكلها أرضه،

لأنهـا أرض اللـه.

فمـن رحـمِ وطـنٍ خـرج، وفي ظـلّ وطـنٍ آخـر عـاش، وبينـهما ظـلّ يحمـل في قلبـه شـكرًا عمَيقًـا، وحنينًـا لا يخبـو. وحين يتأمَّـل المقيـم مـا مضى، يبتسـم ويقـول في نفسـه:

«لم أكـن يومًـا غريبًـا؛ بل كنت في رحلةٍ شـاءها اللـه لي بين أرضَين، لأعرف أن الانـتماء الحقيقـي ليـس لـلتراب وحده؛ بـل للمعنى، للـخير، ولما يصنع فينا الإنسـان من إنسـانية».

وهكـذا يظـلّ المقيـم، وإن طال مقامه، عابـرًا كريمًا في أرض الله الواسـعة، يمرّ على الأماكـن كما تمـرّ النسـمة على الحقـول: لا تملكهـا؛ لكنهـا تُنبـت فيهـا الحيـاة. وفي النهايـة، حين ينظـر إلى الـوراء، لا يـرى الغربـة؛ بـل يرى أثرًا مـن ذاته ممتدًا في كل أرضٍ وطأهـا، ويهمـس راضيًـا مطمئنًا:

«هـي أرض الله، وأرضُ الله واسعة... وأنا في رحابها، مقيمٌ بسلام».

عتبة التاريخ

هـذه الخاطـرة ليسـت بحثًـا في التاريـخ بقـدر مـا هـي وقفـة على عتبـة المكان، أسـتعيد فيهـا ملامـح الشرق العربي كما يسـكن الذاكـرة والوجدان. هـي رحلة تأمُّل في الزمـان والمـكان، في الإنسـان الـذي عاش بين الرمل والبحـر، وصنع من صبره حضـارة امتـدت مـن دلمـون إلى الدوحة، ومـن اللؤلؤ إلى الفكـر والمعرفة.

حين أسـتعيد خريطـة الجزيـرة العربيـة، تتجه عيني - دائمًـا - نحو الشرق، نحو ذلـك الامتـداد السـاحلي الـذي كان يومًـا مـا مـعبر القوافـل ومرفأ السـفن ومهبط الحلـم. هنـاك، حيـث يعانـق الرمـل البحـر، وحيـث تهب الريـاح القادمة مـن الهند محملـة برائحـة التوابل والبخـور، بـدأت أولى الحكايات.

لم تكـن شرقـي الجزيـرة مجـرَّد جهـة جغرافيـة؛ بل كانـت نفس الحضـارة وهي تتكـون، ومسرح الإنسـان وهـو يكتشـف ذاتـه في مواجهة الصحراء والبحـر والقدر. في تلـك الأرض، ولـدت حضـارات لم يـزل أثرهـا نابضًا في الذاكـرة، حضارة دلمون التـي رآهـا السـومريون أرض الخلود، وجرهاء التي كانـت بوابة التجارة بين المشرق والمغـرب، وهجـر وثـاج اللتـان أنشـأتا مدنًـا عربيـةً نابضـةً بالحيـاة قبـل أن تعـرف المنطقـة الإسلام بقرون.

ومـن رمالهـا عبرت القوافـل محملـة بالبخـور واللؤلـؤ، ومـن موانئهـا انطلقـت المراكـب نحـو العـراق والهنـد وشرق إفريقيـا، في حركة لم تهدأ عبر آلاف السـنين. وحين أطـل فجـر الإسلام، دخلـت هـذه الديـار طـورًا جديـدًا مـن التاريـخ؛ تبدلت القلـوب، وامتزجـت القبائـل، وصـار الشرق العـربي جـزءًا مـن عـالم أوسـع تحكمه روح جديـدة، لا تفـرق بين بحـر وصحـراء ولا بين لؤلـؤ ونخيـل.

ومنـذ ذلـك اليـوم ظـل إنسـان هـذه الأرض وفيًـا لما غُـرِسَ فيه من قيـم الصبر والكـرم والانفتـاح، يجاهـد ليبنـي ويعلـم ويحفظ ذاكرته من النسـيان. واليـوم، وأنا أكتـب هـذه السـطور في زمـن تـغيرت فيـه الملامـح وتبدلـت الخرائـط، أشـعر أن شرقـي الجزيـرة لا يـزال يحتفـظ بسـحره القديم.

فالمـدن التـي تعانـق البحـر، الدوحـة والمنامـة والأحسـاء والقطيـف، مـا تـزال تحمـل في أعماقهـا روح دلمـون وجرهـاء وهجـر، وإن لبسـت أثوابًـا جديـدة مـن

زجـاج وحديـد. ولعـل قطـر، في نهضتهـا الحديثـة، تعيد رسـم تلك العلاقـة القديمة بين الإنسـان والمعرفـة، بين التراث والمسـتقبل، حين جعلـت مـن الثقافـة والعلـم عنوانًـا لحياتهـا، ومـن البحـر ذاكـرة مفتوحـة على العـالم.

إن الكتابـة عـن التاريخ ليسـت وقوفًـا عند الأطلال؛ بل حوار مـع الزمن، نحاول مـن خلالـه أن نفهـم كيـف ولدنـا مـن الرمـل والبحـر، وكيـف ظلـت هـذه الأرض تنبـت فينـا حنينًـا لا يشـيخ، ووفـاءً لا ينسى. تاريـخ شرقـي الجزيـرة ليـس قصـة مـاضٍ بعيـد؛ بـل مـرآة نـرى فيهـا وجوهنـا، ونتلمـس فيهـا خطـى الذين كانـوا هنا قبلنـا، ليذكرونـا أن الحضـارة ليسـت حجـارة تُبنـى؛ بـل ذاكـرة تُـروى، وروح تورث، وعشـق للمـكان لا ينطفـئ. كـم يشـبه هـذا الشرق قلبي، كلما حسـبت أننـي ابتعدت عنـه شـدني إليـه عبـق الملح وصـوت الموج ونـداء المراكـب العائدة من الغـوص. كأن البحـر هنـاك لا يـزال يهمـس بـأسماء الذيـن مضـوا، والواحـات تخفـي في جذوع نخيلهـا سر الذيـن مـروا ولم يودعوا. أشـعر أننـي أنتمي إلى هذا المـكان كما ينتمي اللؤلـؤ إلى صدفتـه، لا فـكاك لـه عنهـا وإن ابتعـد في عمـق البحـر. لقـد علمتنـي شرقـي الجزيـرة أن التاريـخ ليـس مـا نقـرؤه في الكتـب؛ بـل مـا يسـكننا دون أن نـدري، في حجـارة المرافـئ القديمـة، في رائحـة الطين بعد المطـر، في صبر الناس على الريـح، وفي نظـرات الأطفـال الذيـن يركضـون نحـو البحـر كأنهـم يطـاردون أحلام أجدادهـم. وحين أكتـب عـن هـذا الشرق، لا أكتـب تأريخًـا بقـدر ما أسـتعيد ذاكـرة تمتـد في داخلي، ذاكـرة رمـل لا ينسى أثـر الأقـدام، وبحر لا يمـل الانتظار. فهـو ليـس ماضيًـا نرويـه؛ بـل حياة ما تـزال تمشي فينـا، تنبض كلما لامسـنا ترابها، وتذكرنـا أن الحضـارة لا تبنـى بالحجـر وحـده؛ بـل بالحنين وبالإنسـان.

الشيخ جاسم بن ثاني (حفيد المؤسِّس)

في كل مـرة أسترجـع تلـك اللحظـة التي دخلتُ فيها مجلس الشـيخ جاسـم بـن ثـاني في إزغـوى، أشـعر وكأنني أضع قدمـي على عتبة زمـن آخر... زمن لا تُقـاس أيامـه بالتقاويـم؛ بـل بعمق الذاكـرة ونقاء السيرة.

كان المجلس يغمـرني بهيبـة لا تشـبه أي مـكان آخـر، كأننـي أعبر بابًـا خفيًـا إلى زمـن مضى إلى حيـث تلمـع أسماء القبائـل، وتترامـى قصـص أيام العـرب، وتنهـض المعلقـات مـن سـباتها لتجـد مـن يرويهـا بصـدق الشـاهد لا بـنبرة القارئ.

اصطحبنـي الشـيخ حسـن -كعادتـه وهـو يفتـح لي أبـواب التاريـخ الحـي- وقـال للشـيخ جاسـم: «هـذا كاتبنـا». نظر إليَّ الشـيخ جاسـم نظـرة الفاحص الخـبير، وسـألني: «مـن أيـن؟» قلـت: «مـن مصر». قـال: «ومـن أي قبيلـة؟».

لم أكـن أظـن أن سـؤالاً كهـذا سـيحرّك في داخلي حكايـة قديمـة رواهـا لي أبي، فقلـت في شيء مـن الفخـر الطفـولي: «أنـا مـن جهينـة». ابتسـم الشـيخ جاسم تلك الابتسـامة التي تجمع الوقار والدعابة معًا.

لا أنسى ذلـك اليـوم...
جلسـتُ في مجلس يشـبه المتحف الحي. رجال يدخلون فيسـلّمون على الشـيخ جاسـم، يقبّلـون رأسـه، ثـم يأخـذون مقاعدهـم بـكل احترام. تـدور فنـاجين القهـوة العربيـة بين الأيـدي: مـرة قهـوة خفيفـة، ثـم شـاي، ثـم حليـب إبـل، وربمـا حليـب ماعـز، فتمـور، ثـم قهـوة ثقيلـة تختـم كل جولة.

جلست إلى جوار الشيخ حسن، والشيخ جاسم أمامنا، يملأ المكان بحضوره. شرح الشـيخ حسـن غرض الزيارة: أن نسـجل روايته عن تاريخ قطر.
رحّـب الشـيخ جاسـم، وفتح لنا صـدره وذاكرتـه، وبدأ يسرد... وأنـا أحاول أن أكتـب بقـدر مـا تسـعفني يـدي، وأحيانًـا أتـعثر أمـام مفـردة لم أسـمعها مـن قبـل، فألتفـت إلى الشـيخ حسـن ليكشـف لي سرّ اللهجـة أو مغـزى القصـة.

كان الشـيخ جاسـم لا يـروي التاريـخ كما ترويـه الكتـب. الكتـب تحفـظ

العناوين، أما هو فكان يحفظ «الهواء» الذي مرّ في لحظة الحدث، ويحفظ الوجوه، واللهجة، وارتباك الصوت، وظلال المواقف. كان يلتقط تفصيلاً صغيرًا، يشدّه خيطًا بخيط، حتى تصبح عنده الحادثة لوحة كاملة ذات حياة، فهو يحكي ما سمعه من أبية أحد فرسان الماضي.

عندما زرت الشيخ جاسم كان عمره فوق التسعين، فقد قال لي إن مولده كان في رميلة الوكرة حوالي عام 1917م، وقال إنه أدرك حرب الزبارة في العشرين من عمره. تعلّم القراءة والكتابة على يد مطوّع نجدي، وأكمل حفظ القرآن بنفسه. كان مجلس أبيه مدرسة حقيقية... علماء وفقهاء وشعراء يجتمعون يوميًا، وهو الفتى الذي يجلس في طرف المجلس يلتقط ما استطاع، وكأن الذاكرة عنده وُلدت وهي مدرّبة على الحفظ.

عاصر الشيخ جاسم معظم حكام قطر، من الشيخ عبد الله بن جاسم حتى الشيخ حمد بن خليفة. وكان يقول شعرًا فيهم وفي الأيام والحوادث، شعرًا يخرج من فطرة صادقة لا تتكلف وزنًا ولا قافية.

ما شدّني في الشيخ جاسم ليس سعة علمه فحسب؛ بل طريقته في استحضار الماضي...

كان إذا أراد أن يستدعي حادثة، أغمض عينيه لثوانٍ، كمن يفتح بابًا لبيت قديم، ثم يبدأ في الحديث بنبرة من عاش الحدث لا من سمع عنه. يروي معارك قطر كما لو كانت امتدادًا لأيام العرب. ويقول دائمًا: «قطر... أرض أمان، ومقبرة للغزاة».

ثم يردِّد بيتًا يختصر رؤيته:

وكم من رئيس قومٍ قد غزانا جعلنا الأرض لرأسه وسادًا

في مجلسه تتجاور المتناقضات: علماء كبار، ورواة، وشعراء، وبسطاء يدخلون بحكاياتهم ونوادرهم. وكان الشيخ يحتضنهم جميعًا بأبوته وعمق معرفته. ينادي كل واحد باسمه أو باسم قبيلته، ويلقي طرفًا من تاريخها كأنه سجلّ مفتوح أمامه، وكان من نصيبي أن ينادني الجهني، فأقول

لـه: لبيك.

كانـت مكتبتـه عـالمًا آخـر... كتـب تـراث مـن كل البلـدان، يستنسـخ منهـا ويهـدي محبيـه، وكأنـه يوزع جزءًا مـن روحه بينهم. وفي زحمـة هذه الذاكرة التـي لا تُنهـك، كان الشـيخ جاسـم يحمـل قلبًـا طيبًـا، شـفيفًا، يلمـع بالدمـوع كلما ذكـر إخوتـه، ويردد:

تذكـرتُ إخـواني وفي القلب زفرة ولابد للمحزون أن يتذكّرا

وعندمـا تكـرر ذهـابي إلى الشـيخ جاسـم، لم يكـن الأمـر مجـرَّد زيـارة عابـرة؛ بـل كان دخـولاً إلى فضـاء معـرفي لا يشـبه أي مـكان آخـر. شـيئًا فشـيئًا اعتـاد وجـودي في مجلسـه، وصرتُ أذهـب إليـه وأنـا أحمـل دفترًا وقـلمًا، كأننـي تلميـذ يدخـل مدرسـة مـن نـوعٍ خـاص. كنـت أسـجل كل كلمة يقولهـا، ثـم يطلـب منـي أن أقـرأ عليه ما كتبـت، ليدقق، ويصحـح، ويفسر ما اسـتعصى على الفهـم، كأنمـا كان يريـد أن يترك وراء كل جملـة أثـرًا واضحًا لا يضيـع. وكان يـردد دائمًـا بابتسـامته المحببـة:

«نحـن القطـريين نتحـدث العربيـة الصحيحـة، حتـى لـو حسـبتموها عاميـة... أمـا أنتـم يـا مصريين فحديثكـم مزيـج مـن لغـات، فيهـا شيء من الفراعنـة وشيء مـن غيرهـم».

لم تكـن هـذه الجملـة مجـرَّد طرافـة لغويـة؛ بـل كانـت مفتاحًـا لطبيعـة روحـه: مـزاح رقيـق يسـتند إلى معرفـة، وثقـة بالهويَّـة، ونظـرة لا تخلـو مـن عمق .

ومـع اعتيـادي على تلـك الجلسـات، ألـف هـو، أيضًـا، حضـوري. وعندمـا كنـت أتغيـب لأي سـبب، كان يرسـل مـن يسـأل عنـي. وكنـت أذهـب إليـه مبـاشرة، لا بدافـع الواجـب فقـط؛ بـل بمشـاعر صادقـة؛ فقـد كنـت أدرك أنـه مـن الرجـال الذيـن يجذبـون من حولهـم بقـوة الحضور، لا بقـوة الأمر. يجعـل كل مـن يجلـس معـه يشـعر بأنـه داخـل مـدار مـن الهيبـة والمعرفـة والصـدق.

وحين بدأنـا الإعـداد لاحتفـال اليـوم الوطنـي، وتحديـدًا احتفـال عـام

2008، اقترحت أن نسجل معه حديثًا مصورًا ليبقى وثيقة للتاريخ في هذه المناسبة التاريخية. وشاركني في ذلك أخي الدكتور خالد بن محمد بن غانم، الذي كان قريبًا من تلك الروح، وشريكًا أصيلاً في توثيق لحظاتها. كان المشهد بالنسبة لي لحظة نادرة: مؤرِّخ كبير يفتح ذاكرته، ونكتب نحن ما سيصبح جزءًا من ذاكرة وطن.

وهكذا وجدت نفسي أنهل من هذا الرجل، يرحمه الله، المعرفة من مصدرها الأول؛ من قلبٍ حمل التاريخ، وفكرٍ عاش التفاصيل، ولسانٍ حفظ الرواية، وشخصيةٍ كانت - في حد ذاتها - فصلاً من فصول تاريخ قطر .

خرجت من مجلسه وأنا أشعر أنني خرجت من زمن آخر... من مدرسة لا تُدرّس في جامعة؛ بل تُدرّس في صدور الرجال.

كان حضوري في مجلس الشيخ جاسم حضورًا للتعلّم قبل أي شيء. تعلّمت منه ما لم أستطع أن أتعلّمه من كل كتب التاريخ؛ لأن حكاياته لم تكن روايات تُتلى؛ بل شهادات صدق عن ماضٍ لم يكن سهلاً، وعن حياةٍ كانت صعبة المنال، وعن رجالٍ عاشوا أعمارهم يدافعون عن وطنٍ، يحمون ترابه، ويرعون مصالحه. رجالٌ لا يعتدون على أحد، ولكنهم لا يقبلون أن يعتدي عليهم أحد. ينصرون المظلوم، ويفدون السجين، ويقفون مع الحق أينما كان.

وتلك هي قيمة التاريخ الحقيقية: قيم عربية أصيلة، عزَّزتها قيم دينية راسخة. لذلك كان التعلّم في مدرسة الشيخ جاسم نوعًا من التكريم؛ تكريمًا للماضي وتكريمًا للحاضر معًا.

في مجلسه تعلَّمت سْلوم أهل قطر: عادات المجلس، آداب السلام، والجلوس، أسلوب الحديث، وأدب الاستماع. كانت الحياة في ذلك المجلس مدرسة كاملة... كاملة بمعنى الكلمة.

تعرَّفت من خلاله على رجال فضلاء: الشيخ ثاني بن خالد، وشقيقه الشيخ حمد بن خالد، والشيخ ناصر بن حسن، والشيخ خالد بن حمد

والشيخ محمد بن حمد والشيخ فيصل بن حمد، والأستاذ صباح الكواري، والأستاذ ناصر الجاسم، وغيرهم ممن فتحوا لي أبواب القلوب قبل أبواب المعرفة.

وحين أعود إلى تلك الجلسات اليوم، أشعر أنني لم أكن مجرَّد زائر... كنت شاهدًا، وتلميذًا، وعابرًا في دروب ذاكرة قطر، حيث التاريخ لا يُقرأ... بل يُعاش. يُسمَع من أفواه الرجال الذين عاشوه، وتُرى بقاياه في هيئاتهم، وحركات أيديهم، وطريقة إنصاتهم لبعضهم. في ذلك المجلس تعرّفت على معنى أن تكون الذاكرة حيّة: قصص لا تُروى للتسلية؛ بل لتثبيت قيمة، وردّ اعتبار، وصون رواية وطن تشكّل في زمنٍ لم يكن سهلاً. تعلَّمت أن الرجولة ليست صخبًا؛ بل صبرًا على الشدة، وحلمًا عند الغضب، وغيرة على الأرض من غير اعتداء على أحد، مع استعدادٍ حاسمٍ لردّ الظلم إذا وقع.

اليوم الوطني

مـع اقتراب شـهر ديسـمبر، تبـدأ نـسمات الاحتفال تتسـلَّل إلى الدوحة؛ نستنشـق عبيرهـا في الأجـواء، فتـملأ الطرقـات والقلـوب بهجـةً وفخـرًا، وتتزيَّن المؤسَّسـات والمـدارس ووزارة الثقافـة ببرامجها المتنوعة، وتزدهر منصَّـات التواصل الاجتماعي بحالـةٍ مـن الفـرح العـام، حتى ليـكاد المرء يتنفـس الاحتفـال في كل مكان.

ففـي الثامـن عشر مـن ديسـمبر مـن كل عام، تحلّ ذكـرى اليـوم الوطني لدولة قطـر، يـوم العـزّ والوفـاء، اليـوم الـذي يرمـز إلى تـوليّ الشـيخ جاسـم بـن محمد بـن ثـاني - رحمـه اللـه - مقاليـد الحكـم، وهـو اليـوم الـذي خلّـد ذكـرى تأسـيس الدولـة على يديـه، ولأن لهـذا اليـوم في القلب مكانة، فإن لي، أيضًـا، فيه نصيبًا، إذ أتشرف كل عـام بتقديـم الاستشـارات والمعلومـات التاريخيـة، والإجابة عن الأسـئلة المتصلـة بتاريـخ قطـر، مـن خلال مركز حسـن بـن محمـد للدراسـات التاريخية.

فهـو يـوم يذكِّرنـا بجذورنـا وبالذيـن صنعـوا نهضتنـا، ويجـدّد فينـا العهـد على الإخلاص والانـتماء.

وفي هـذه المناسـبة، أتذكَّـر دائمًـا الاحتفـال الأول الـذي أقرّتـه القيـادة العليـا للـبلاد، والـدور الـذي نُدبـتُ إليـه لأكـون في بـؤرة الحـدث.

فعندمـا جـاء الأسـتاذ صلاح الـعلي وكان مكلَّفًـا برئاسـة لجنـة الاحتفـالات إلى الشـيخ حسـن ليتـدارس معـه رؤيتـه للاحتفـال، وكيـف يمكـن للتاريـخ أن يُضيء هـذه المناسـبة ويُعمِّـق معناهـا، قـال لـه الشـيخ بلهجتـه الصادقـة التـي لا تحتمـل التأويـل. :«أنـا والمركـز، وكل مـا تحت يـدي، تحت أمركـم... فهذه مناسـبة للوطن». كانـت جملـة تقـول كل شيء؛ فالوطن عنده يتقـدَّم على كل شيء، والمركز بما يحمله مـن وثائـق ومعرفـة وأمانـة تاريخيـة لم يكـن سـوى جـزء يقدِّمـه خدمـةً لذكـرى المؤسِّـس وللاحتفـال الـذي أراده أن يظهـر بأبهـى صورة.

حينهـا نظَّمنـا نـدوةً تاريخيـةً تناولـت شـخصية المؤسِّـس ومواقفه الخالـدة، تلك المواقـف التـي أرسـت دعائـم دولـةٍ قويـةٍ حديثـةٍ منيعـةٍ أبيّـة، تأصلـت فيهـا القيـم الإنسـانية والإسلاميـة التـي بثّهـا المؤسِّـس في نفـوس أبنـاء قطـر، وجعل من شـعره عنوانًـا لنهضـةٍ راسـخةٍ وإرثٍ خالد.

في قلب ذلك المشهد، كان يقف منظِّم الاحتفالية وعرَّاب تفاصيلها، الأستاذ صلاح العلي، يعمل بقلبه وعقله وكل وجدانه، كأنما يحمل رسالة سامية فوق رأسه، جعلها هاجسه الأول ومسؤوليته التي شرَّفنا جميعًا بحملها معه.

وفي مثل هذا اليوم، يستدعي الشعراء أقوال المؤسِّس من شعره، قيَمًا جديدةً يستلهمونها من معانيه التي وصف بها الأحداث التي مرّت بها قطر، فترك لنا تاريخًا في ديوانٍ خالدٍ نستلهم منه كل عام قيمةً، ونسير في ضوئها بثقةٍ وإيمانٍ ووفاء.

الجميل أن هذه المناسبة تأتي في أجواءٍ ساحرة، أجواءٍ تستقبل برودة الجو ودفءَ المشاعر، حيث تتهادى نسمات ديسمبر الرقيقة محمّلةً بفرح الوطن وعبير الانتماء وترتفع الأعلام والرايات فوق الأبنية والسيارات، وتتلألأ الأضواء على امتداد الشوارع، وتتزين البلاد بالفخر وبالولاء.

وأذكر تلك المسيرات التي كانت تموج بالشوارع، حين كانت السيارات تخرج مزدانةً بالأعلام والأضواء، فيفيض الطريق بالحياة، ويغدو المرور ضربًا من الصبر الجميل.

كل نافذةٍ تلوّح بحبّ، وكل ضوءٍ يهمس باسم الوطن. تلك كانت لحظاتٍ لا تُنسى، لحظاتٍ يسكن فيها الوطن القلب، ويغدو الفرح صلاةً صامتةً في هواء الدوحة، وتتزيّن الشوارع اليوم كما الأمس، بعُمَد الإضاءة ومداخل البيوت وواجهاتها، فاليوم الوطني ليس مجرَّد مناسبةٍ؛ بل هو هويَّة هذا الوطن، ورمزٌ للالتفاف حول قيادته، وموعدٌ يتجدَّد فيه الاعتزاز بالمواطنة والانتماء.

إنه قلادةٌ تتزيَّن بها القلوب، ووشاحٌ يلتفّ حول كتف البلاد، يذكِّرنا دومًا بأن حبّ قطر ليس قولاً؛ بل حياة. كم يشبه الوطنُ تلك النسمات التي تمرّ ولا تُرى؛ لكنها تُشعرنا بالسكينة! هو فينا كما في الأرض جذورٌ لا تُرى؛ لكنها تُثمر انتماءً لا يذبل. ومع كل ديسمبر، نعرف أن قطر ليست مكانًا نعيش فيه فقط؛ بل حياة تسكننا بكل ما فيها من فخرٍ وامتنان.

سيبقى اليوم الوطني شاهدًا على أن ما غرسه المؤسِّس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني – طيب الله ثراه – ما يزال يثمر في أرض قطر عطاءً وكرامةً ونماءً.

فما تحقق من إنجازاتٍ عبر العقود لم يكن وليد الصدفة؛ بل امتدادًا لجهدٍ بدأ منذ اللحظة التي أدرك فيها المؤسِّس أن الوطن لا يُبنى بالحجارة وحدها؛ بل بالعزيمة والمعرفة والإيمان بالإنسان.

يُعدّ اليوم الوطني من أعظم الأيام في وجدان أبناء قطر، فهو يومٌ للأرض والإنسان، يومٌ تتجدَّد فيه معاني الولاء والانتماء.

يعيش القطري وغير القطري فرحة هذا اليوم كأنه عيدٌ للوطن بأسره، يعتز فيه القطري بمسيرته المجيدة، وبما قدّمه الأجداد من تضحياتٍ خالدةٍ في سبيل هذه الأرض الطيبة.

إنه يوم وفاءٍ وامتنان، نستحضر فيه ذكرى الرجال الذين صانوا الأرض وحموا الحدود، وبذلوا من أجل رفعة الوطن وكرامة أبنائه.

وفي هذا اليوم السعيد، ترتفع راية الدولة خفّاقةً في سماء العزّ، وتصدح الأنغام بالنشيد الوطني، فيتوحَّد القلب مع اللحن، وتتعانق مشاعر الفخر والمجد والولاء.

هو يومٌ تتجلَّى فيه روح قطر، أرض العزّ والعطاء، ونقول من أعماقنا: عاشت قطر، عاش أميرها، وعاش شعبها الوفيّ الذي لا يعرف سوى الحب والاعتزاز بوطنه.

وفي السنوات القليلة الماضية، انتقلت يدُ العرّاب إلى عرّابٍ آخر، ليواصل المسيرة برؤيةٍ جديدةٍ منحت الاحتفالات دفقةً من الحيوية، وأدخلتها في فضاءٍ ثقافيٍّ نابضٍ بالحياة، يعيشه المجتمع كلّه ويحتفي به.

وتحوّل «درب الساعي» إلى أيقونةٍ لهذه الاحتفالات، يتقدّمها الوزير الشاب الشيخ عبد الرحمن بن حمد بن جاسم آل ثاني، يحمل عبءَ المناسبة بشغف المؤمن برسالتها، ومعه رجالٌ مخلصون يعملون بصمتٍ وإخلاصٍ وحبّ.

وبقينا نحن والمركز من جنود هذه المناسبة في كل مراحلها، نضع أيدينا في أيدي العاشقين لهذا الوطن، نشاركهم العمل والفرح، ونستمد من حبّ قطر وأميرها طاقةً لا تنطفئ.

فما أقدسها من مناسبة، وما أنبلها من لحظاتٍ حين يجتمع القلب والفعل في حبّ الوطن وأرضه وشعبه.

وما تزال قطر اليوم تسير في ضوء تلك الرؤية الحكيمة، تواصل البناء وتسمو في مجالات الفكر والاقتصاد والعلم والثقافة، حتى غدت نموذجًا حيًّا لوطنٍ صغير المساحة عظيم الرسالة.

إن اليوم الوطني ليس مجرَّد وقفةٍ على أطلال الماضي؛ بل وعدًا متجدِّدًا بالمستقبل، ودرسًا في الوفاء نردده بصمتٍ حين نرى راية قطر تعانق السماء. فكل ديسمبرٍ يحمل إلينا نسماته محمّلةً بالامتنان، وكل عامٍ جديدٍ يؤكِّد أن حبّ الوطن لا يُحتفل به ليومٍ واحد؛ بل يُعاش على امتداد العمر.

بين الرواية والتاريخ

في مسيرة كل باحثٍ عن التاريخ لحظةُ اكتشافٍ أولى، لا تأتي من كتابٍ أكاديمي ولا من درسٍ جامد؛ بل من دهشةٍ إنسانية توقظ الحسّ وتفتح البصيرة. ذلك ما حدث لي حين بدأت أرى أن التاريخ ليس علماً جافًا؛ بل حكاية كبرى عن الإنسان في صراعه مع الزمن. فقد تسّرب إليَّ التاريخ من نوافذ غير متوقّعة؛ من روايةٍ تُعيد رسم الماضي بخيالها، ومن فيلمٍ يبعث الأبطال من رمادهم، ومن ذاكرةٍ تتّسع لظلال الحلم والحنين معًا.

بهذا المعنى، لم تكن علاقتي بالتاريخ علاقة مؤرِّخٍ يبحث في الوثائق؛ بل علاقة عاشقٍ يفتّش في وجوه الحكايات عن ملامحه الأولى. ومن هنا جاءت هذه السطور التي تستعيد بدايات الوعي بالتاريخ كما تجلّى في الرواية، والسينما، والذاكرة.

دخل التاريخ دائرة اهتمامي يوم زاحمت الكتب التاريخية باقي الكتب التي كنت أقتنيها، لتحتل مكانها فوق الأرفف المكدّسة بالمجلات والروايات وكتب الفكر والأدب. كان ذلك التحوّل أشبه بانعطافة في الذائقة، إذ بدأتُ أرى في التاريخ مرآةً للإنسان، لا مجرَّد سجلٍّ للوقائع.

كان كتاب «الأيام» لطه حسين أول مفاتيح الدهشة. لم يكن سردًا لسيرة ذاتية فحسب؛ بل كشفًا عن معنى أن يرى الإنسان العالم بعين القلب لا بالبصر، وأن يستعيد الماضي لا من الذاكرة وحدها؛ بل من الخيال والوجدان. تلك اللغة العذبة التي كتب بها طه حسين كانت من السحر بمكانٍ يجعل القارئ ينسى أنه يقرأ تاريخًا، فيعيش التجربة كأنها تحدث أمامه.

ثم جاءت رواية «وا إسلاماه» لعلي أحمد باكثير، لتأخذنا إلى عوالم أخرى من البطولة والمأساة. لم نكن نقرأها ككتابٍ مدرسي نعدّ به للإجابة في الامتحان؛ بل كرحلةٍ إلى زمنٍ غابرٍ لا نعرف عنه إلَّا ما تصوّره الرواية من مشاهد ووقائع. أثّرت في جيلنا، وأيقظت فينا حبّ التاريخ وشغف تتبّع مصائر الأمم.

وكان أقراني يتداولون اسم روايةٍ أخرى سارت بذكرها الركبان: «قرية ظالمة». كانت نموذجًا فريدًا في الأدب العربي، تُجسّد التماهي بين التاريخ

والسرد، بين الواقع والأسطورة، فكان لا بدّ لنا أن نستسلم لسطوة التاريخ في كلّ ما نقرأ ونشاهد.

وفي تلك السنوات، كانت السينما العالمية في الستينيات والسبعينيات تقدّم أفلامًا مبهرة مستوحاة من التاريخ.

أذكر فيلم «يوليوس قيصر» الذي هيمن لسنوات على دور العرض في مصر. كنت لا أترك فرصة لمشاهدته إلاَّ اغتنمتها. قصة القائد الروماني، وصوله إلى الحكم، واغتياله على يد بروتوس والمتآمرين معه، كانت من أكثر القصص الدرامية رسوخًا في مخيلتي. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت العبارة الشهيرة «حتى أنت يا بروتس؟» رمزًا للخيانة في وعينا الجمعي.

أما فيلم «سبارتاكوس» فكان ملحمةً خالدةً في بطولةٍ وتمردٍ ضد العبودية، أدّاها ببراعة النجم كيرك دوجلاس، فيما فتح فيلم «ذهب مع الريح» أمامنا نافذةً على الحرب الأهلية الأمريكية، وصراع القيم بين المزارعين القدامى والعالم الصناعي الناشئ، بين الحرية والعبودية، وبين ما ينهار وما يُولد من رماده. تلك الأفلام، بما فيها من جلال الصورة وسحر السرد، جعلتنا نقرأ التاريخ بعين الفن ونشعره كما لو كان تجربةً شخصية.

هكذا، كان التاريخ بالنسبة إليّ منبعًا للخيال والمعرفة والمتعة معًا. وكلما توغّلت في قراءاته، ازداد شغفي به. كان كل كتابٍ يُفضي إلى آخر، وكل حوارٍ مع صديقٍ يفتح بابًا جديدًا للبحث والتأمُّل. ومع مرور الوقت، أدركت أن التاريخ ليس حقلاً معزولاً؛ بل قاسمًا مشتركًا بين كل الفنون والعلوم، وأن الإنسان في جوهره لا يروي إلاَّ تاريخ ذاته، مهما اختلفت الوسائل: روايةً كانت، أو فيلمًا، أو ذاكرةً تنبض بالحياة.

السينما في قطر



◉ سينما دخان المكشوفة

لم أكن في قطر حين وُلدت السينما فيها؛ لكنني كلّما سألت من عاصروا البدايات، شعرت أنني كنت أحدهم.

كانوا يحكون عن زمنٍ بسيطٍ ومفعم بالشغف، حين كانت الأحلام تُصنع بالأيدي العارية لا بالمؤسَّسات، وعن رجالٍ جمعهم الفضول أكثر مما جمعتهم الإمكانيات، فكما بدأت الإذاعة القطرية بجهود مجموعةٍ من الهواة الذين أقاموا بثًّا محليًا من استوديو صغير، بدأت السينما، أيضًا، من مبادراتٍ شخصيةٍ خالصة، أراد أصحابها أن يروا العالم من خلال الضوء.

يقول الباحث عتيق السليطي إن أول العروض السينمائية كانت في أوائل الخمسينيات، في دخان ومسيعيد، حيث كانت شركة شل تقيم أمسياتٍ لموظفيها في الهواء الطلق.

كانت الشاشة البيضاء تُنصب بين الرمال، والريح تمرّ على الوجوه، والناس يلتفون حول الصورة المتحركة بدهشة الأطفال.
لم تكن السينما يومها ترفًا؛ بل نافذة صغيرة على العالم، تدخل منها الصور إلى العيون قبل أن تدخل الكهرباء إلى البيوت.

كانت تلك سينمات 16 ملم، بين عامي 1952م و1960م، تعرض أفلامًا أجنبية متنوعة. وسرعان ما انتقلت العدوى إلى الأهالي؛ فاقتنى بعضهم أجهزة العرض المنزلية الصغيرة، واشتروا أفلامًا كانت تصل من مصر ولبنان.
تخيَّلت المشهد كما وصفوه لي: شاشةٌ معلقة على جدارٍ أبيض، وبكرة فيلم تُدور ببطءٍ في صوتٍ متقطع، ووجوهٌ متحلّقة حول الضوء، يضحكون ويتبادلون التعليقات على وجوه الممثلين كأنهم يعرفونهم شخصيًا.

وفي الستينيات، ظهرت آلات العرض من نوعي 8 ملم و16 ملم في مجالس الوجهاء، ثم بدأت العروض تُقام في النوادي والمناطق المفتوحة، قبل أن تُبنى أولى دُور العرض المكشوفة في الدوحة - مثل سينما الأندلس وأمير والأهلي إلى جانب بعض الأندية الرياضية.

ويُقال إن لبنانيًا يُدعى بشارة، كان يعمل عند الشيخ ناصر بن خالد، هو أول من جلب علب الأفلام من الخارج عام 1968م.

كان يحمل ماكينات العرض على كتفه، ويتنقل بين الأندية والبيوت المستأجرة ليعرض الأفلام مقابل ريالٍ واحدٍ فقط، يجمعه من الجمهور قبل أن يبدأ البكرة التالية! ثم جاء سلطان بن سيف العيسى، فاستأجر قطعة أرض عند دوّار «المجنون» في الدوحة، وبنى عليها سينما الأندلس المكشوفة.

كانت صالة بسيطة، فيها كراسٍ معدودة وشاشة وحجرة صغيرة لجهاز العرض. وأحيانًا تُعرض فيها اسكتشات إسماعيل يس، وشكوكو، وسط ضحكات لا تنتهي.

في أواخر الستينيات، بدأ الحلم يكبر. تقدم عدد من الأفاضل بطلب لإنشاء شركة مساهمة عامة للسينما تحت إشراف الدولة، واجتمعوا في مدرسة الدوحة الثانوية لتأسيسها. كانت تلك المبادرات الأهلية تشبه في روحها ما فعله هواة الإذاعة في بداياتها: نزعة لاكتشاف الصوت والصورة معًا، وصبرٌ جميل على

البدايات البسيطة.

وحين جئتُ إلى قطر عام 1979م، كانت تلك المرحلة قد أصبحت من الذاكرة؛ لكنها ما تزال حيّة في الأحاديث والوجوه، كنت أستمع إلى القصص بشغف كبير، وكان مكانها في أحد منعطفات شارع الخليج، فقد كنت أذهب إلى الشارع، وأرى في كل حكايةٍ بذرة حلم صغيرٍ نما حتى صار مؤسَّسة، وكنت أذهب إلى سينما الخليج كل شهر تقريبًا طوال فصل الصيف، وأشعر أنني أكمل ما بدأه أولئك الحالمون الذين صنعوا البدايات.



◉ سينما أمير

كانت التذكرة ورقةً صغيرة بريالين؛ لكنها في يدي كانت جواز عبورٍ إلى عالمٍ آخر؛ عالمٍ من الضوء والموسيقى والدهشة.

كنت أجلس في مقعدي وأشعر أنني داخل تجربةٍ لا تشبه شيئًا من قبل، وأن هذا المكان الصغير هو امتدادٌ لحلمٍ بدأ في الصحراء بشاشةٍ معلقة وقلوبٍ متطلعة .



◉ صورة من الجو تظهر مبنى السينما

ثم جاءت شركة قطر للسينما وتوزيع الأفلام عام 1976م، لتؤطر تلك الجهود الفردية وتحوّلها إلى صناعةٍ حقيقية. وافتُتحت سينما الدوحة وسينما الخليج، وكانتا من أضخم دُور العرض في المنطقة وأكثرها تجهيزًا.

كنت أدخل القاعة فتنطفئ الأنوار شيئًا فشيئًا، وتبتلع الشاشة الضوء لتعيده حياةً نابضة.

كانت سينما الدوحة تعرض الأفلام الهندية والآسيوية، بينما تخصّصت سينما الخليج في العربية والأجنبية. ولكل دارٍ منها مدخلٌ خاص للعائلات، في زمنٍ كانت فيه السينما تُعامل كضيفٍ جديدٍ على العادات، وكجسرٍ بين الأصالة والانفتاح.

لقد فهمتُ بعد سنوات أن السينما في قطر - مثل الإذاعة، مثل المسرح، مثل الكتاب - لم تولد من قرارٍ رسمي؛ بل من فضولٍ إنسانيٍّ صادق أراد أن يرى ويسمع ويحكي. وهكذا بدأت الحكاية: من أفرادٍ أحبّوا الضوء، فصنعوا منه مرآةً لزمنٍ كامل، ما يزال يضيء ذاكرتنا حتى اليوم؛ لكن مع نهاية السبعينيات، جاء الفيديو كاسيت ليقلب الموازين.

أصبحت الأفلام تُعرض في البيوت بلا رقابة ولا تذاكر، وبدأت دُور السينما تخلو إلَّا من عشّاقها القلائل. ومع غياب القوانين المنظِّمة لحقوق العرض،

اقتصرت العروض في الصالات على الأفلام الأجنبية، حتى أُنشئت لجنة للرقابة على المصنفات الفنية تابعة لوزارة الإعلام لتنظيم هذا العالم الجديد.

وفي الثمانينيات، دخلت السينما في سباتها الطويل. بعد أن أمسى التلفزيون نجم المجالس، والكيبل فتح للناس أبواب العوالم البعيدة، فتراجعت الحركة في دُور العرض، وبدت الشاشات الكبيرة وحيدة في انتظار زمنٍ آخر؛ لكن الزمن - كما العادة - يعرف كيف يُعيد دورته.

فحين جاءت ثورة الفضائيات، وعاد الاهتمام العالمي بصناعة الأفلام، بدأ الجمهور يعود شيئًا فشيئًا إلى المقاعد القديمة التي اشتاقت إليهم.

وفي سنواتٍ قليلة، قفز عدد الشاشات في قطر من ثلاثٍ إلى ثلاثين شاشة، وولدت المجمعات السينمائية الحديثة في قلب المولات التجارية، لتصبح السينما من جديد جزءًا من نسيج الحياة اليومية.

واليوم، حين أمشي بين أروقة تلك المجمّعات، وأسمع أصوات الشاشات تتعالى من كل زاوية، أبتسم في سري وأقول:

«كم تغيّر العالم، وكم بقي الشغف بالصورة هو ذاته - من شاشةٍ صغيرة في رمال دخان، إلى قاعاتٍ فخمةٍ تتلألأ فيها الأضواء».



وساقتني الظروف في سنوات عملي إلى التعرف على الأستاذ عبد الرحمن النجدي، والمخرج والناقد السينمائي عبد الرحمن محسن، وهما من أوائل من حملوا على عاتقهم مهمة توثيق تاريخ السينما في قطر وحكايتها من الداخل. كان عبد الرحمن محسن يتردد إلى المكتبة التي كنت أعمل بها، يجمع المعلومات ويُنقّب في الصحف القديمة عن أخبار الأفلام والعروض الأولى. ومن ثمرات هذا الجهد المشترك، أن دخلت شركة قطر للسينما وتوزيع الأفلام إلى عالم النشر عبر إصدارٍ فريد حمل عنوانًا بسيطًا وعميقًا: «السينما في 2008» للكاتب والناقد عبد الرحمن النجدي. والكتاب، في مجمله، يقدم دعوةً راقية لقراءة الفيلم بعينٍ واعية، لا لتلقيه فحسب؛ بل لفهم عناصره من قصةٍ ومعالجةٍ وإخراجٍ وتمثيل، وبهذا اقترب النقد السينمائي من الناس كما اقتربت السينما يومًا من قلوبهم.

وفي ذلك الوقت، تزاملتُ مع الدكتور حافظ علي في مركز التطوير الثقافي، وكان بدوره ملمًّا بتاريخ السينما في قطر، خاصةً وأنه تلقّى تعليمه في الولايات المتحدة، حيث تشكّلت لديه رؤية بحثية حديثة حول الفن السابع ودوره الثقافي. لقد أراد الدكتور حافظ أن يدوّن ما عرفه وما شاهده، فأعدّ ورقة علمية دقيقة ومفيدة عن تاريخ السينما في قطر، استعرضها في محاضرةٍ أقيمت بمتحف الفن الإسلامي، تناول فيها نشأة دُور العرض وتطورها وعلاقتها بالتحولات الاجتماعية والثقافية في البلاد. فكانت ورقته بمثابة جسرٍ بين الذاكرة الأكاديمية والذاكرة الشعبية، جمعت ما بين التوثيق العلمي وشغف الباحث الذي يرى في السينما مرآةً للمجتمع وتاريخه.

وهكذا، من العروض الأولى في رمال دخان إلى كتب النقد والبحوث الأكاديمية التي وُلدت بعد نصف قرن، تمضي حكاية السينما في قطر بخطواتها الواثقة: من آلة عرضٍ يدوية في فناءٍ رملي، إلى قاعاتٍ فخمةٍ تنبض بالأضواء، ومن فرجةٍ عابرةٍ في الهواء الطلق إلى قراءةٍ واعيةٍ تضع الفن السابع في قلب الثقافة الوطنية.

حين أتأمَّل اليوم هذا المسار الطويل للسينما في قطر، أرى أنه لم يكن مجرَّد رحلة ترفيه أو تسلية؛ بل جزءًا من تكوين الذاكرة الوطنية نفسها.

فالسينما لم تكتفِ بأن تنقل إلينا صور الآخرين؛ بل علّمتنا كيف ننظر إلى أنفسنا، وكيف نصنع صورتنا في عيون العالم.

كانت مرآةً للحلم، ومنبرًا مبكرًا للتعبير البصري، ومختبرًا للذائقة العامة وهي تتشكَّل بين الأصالة والانفتاح.

لقد غدت الشاشة البيضاء أرشيفًا شعبيًا للوجدان الجمعي، تحفظ ملامح الزمن وتعيدنا إلى لحظاتٍ لم نعد نجدها إلَّا في الضوء والظل.

ومن دخان إلى الدوحة، ومن عروض النفط إلى صالات المولات الحديثة، ظلت السينما في قطر مرآةً للزمن، وذاكرةً تمشي على الضوء.

فما بين فيلمٍ يُعرض تحت سماءٍ صافية قبل سبعين عامًا، وشاشةٍ رقميةٍ تُبهر العيون اليوم، تمتد الخيوط نفسها:

خيوط الحكاية، والحنين، والإنسان.

وهكذا تقول الشاشة بصوتٍ خافتٍ كلما أظلمت القاعة:

«هذه أنت... وهذه ذاكرتك».

الشعر النبطي

كان أول تعرفي على الشعر النبطي من باب الفضول الثقافي. شدّني منذ البداية رغم أنه يستخدم مفردات بعيدة عن بيئتي وخيلتي الثقافية، مفردات تنتمي إلى بيئة ومخيلة أبناء البادية من أهل الجزيرة العربية. ولكنها، رغم غرابتها عني، عربية فصيحة في جذورها، وأنها تنتمي إلى سياق لغوي وثقافي خاص، هو سياق الحياة البدوية. وعلى الرغم من إنني كنتُ أتعثر في فهم بعض الكلمات؛ لكنها كانت تلامس شيئًا في داخلي. كنت أسمعها فأشعر أن وراءها صور حياة كاملة، وصوتًا يأتي من رحابة المكان والزمان. أكثر ما كان يجذبني في الشعر النبطي هو إلقاء الشاعر نفسه؛ فصوته لا ينشد الأبيات بقدر ما يعيشها. يقرأها بنَفَسٍ موسيقي خاص، وله استهلال يأخذ السامع من اللحظة الأولى، وتراكيب تستعير من التاريخ والتراث، ثم يختمها بعبرةٍ أو حكمةٍ تُبقي أثرها في الوجدان. كنت أقول لأصدقائي: «أنا أحب أن أستمع إلى الشعر النبطي أكثر من أن أقرأه، لأنه يعتمد على الأداء الإيقاعي والتمثيلي الذي يخاطب المشاعر مباشرة، حتى لو لم أفهم كل مفرداته وتراكيبه». ثم أضيف مبتسمًا: «حينها لن يبقى الشعر نبطيًا... فلكل شعر بيئته ولسانه ومحبيه». ومع الأيام، تعرفت على أصدقاء شعراء ووجهاء متمرّسين في كتابة الشعر النبطي، كانوا يعيشون قصائدهم كما يعيشون يومهم. أحببت الصورة الشعرية التي يرسمها هذا الشعر؛ صورةٌ تمتزج فيها البادية بالوجدان، والرمل بالحلم، والصوت بالصمت.

وعندما استمعتُ إلى قصائد الشيخ جاسم بن عبدالرحمن آل ثاني، هالني هذا السمو في المعاني وتلك الجزالة في اللغة التي توشّت في معظمها بفصيح العربية، فبدت قصائده جسرًا بين الفصاحة والنبط، بين البيان والوجدان. كان شعره يعكس صفاء البادية وعمق الفكر، ويمنح الكلمة حياةً مضاعفةً تجمع بين الإحساس بالوطن وصدق الانتماء.

ومنذ ذلك الحين، صار الشعر البدوي بالنسبة لي جزءًا من السيرة الثقافية لقطر، وسجلاً شعبيًا موازيًا للتاريخ الرسمي أعود إليه بين وقت وآخر؛ لكي أفهم حادثة تاريخية، أنه سجل.

ومهما حاولتُ أن أبلغ روح المعنى في تلك الصور، فإنها تبقى أبعد قليلاً مما يصل إليه خيالي وتذوّقي، فهي تنتمي إلى وجدانٍ آخر، إلى حسٍ تشرب تفاصيل البيئة والبادية والأنساب والهواء. تمامًا كما في رقصة العرضة، ووسم الإبل، وسباقات الخيل والهجن؛ لذلك أميل إلى تسميته بالشعر البدوي لا النبطي، لأنه يحمل خصوصية البيئة البدوية أكثر من أي شعر آخر. في مفرداته رائحة البخور ودهن العود، وفي إيقاعه خيولٌ تعدو، وصوتُ رياحٍ تمسّ وجوه الرمل. إن تسميته «بدويًا» لا تنتقص من شأنه؛ بل تؤكّد أصالته واتصاله العميق بأرضه الأولى. ولعلّ ما زادني قربًا من هذا الفن أن بعض القصائد البدوية غُنّيت بأصوات مطربين ومطربات يكفي أن تستمع لقصائد الأمير بدر عبد المحسن أو خالد الفيصل، تلك الأصوات التي عمّقت من حضور الشعر البدوي في الحياة اليومية، وأدخلته إلى بيوت الناس وقلوبهم. وهكذا، لم يعد الشعر البدوي غريبًا عني؛ صار إيقاعًا ونغمًا في حياتنا الثقافية، وفي جينات أبناء قطر. أحسست أنني أشاركهم هذا الوجدان الممتد بين الرمل والبحر، بين البداوة والمدنية، بين أشعار البر وأهازيج البحر، بين الصوت والذاكرة. وللشعر البدوي في قطر مكانة تأسيسية وتاريخية؛ فالمؤسِّس الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني ترك لنا أول ديوان شعر نبطي مطبوع في الجزيرة العربية، دوّن فيه ملامح تلك المرحلة ببطولاتها وأحداثها الكبرى والتحديات التي واجهت أبناء قطر. ذلك الديوان لم يكن مجرَّد شعر؛ بل وثيقة وطنية تحفظ الذاكرة القطرية، وتنقل روح المؤسِّس وهو يعبرِّ عن وجدانه وعقيدته ورؤيته لوطنٍ في طور التكوين. ومنذ ذلك الحين، صار الشعر البدوي جزءًا من السيرة الثقافية لقطر، وسجلاً شعبيًا موازيًا للتاريخ الرسمي. ومع مرور السنين، رأيت كيف امتد الشعر البدوي في وسائل الإعلام. لم تعد الصحف والمجلات وحدها من تنشره؛ بل خصصت الإذاعة والتلفزيون برامج أسبوعية له، يجتمع فيها لفيفٌ من الشعراء ومحبو هذا الفن، يجلسون في المجلس وتدور عليهم فناجين القهوة، ليقدّم الشعراء واحدًا تلو الآخر نشيده، ويستمع الجميع بإنصاتٍ ومتعة. كنتُ أراهم، وأكاد أشمّ رائحة القهوة في ذلك الجو المليء بالحنين، حيث الإلقاء فن، والإصغاء مشاركة وجدانية. تنتهي - دائمًا - بترديد الكلمة الأخيرة من بيت الشعر، فتعم النغمة وتُختتم بكلمةٍ رائعة: «صح لسانك». نعم، الشعر البدوي جزء من الجينات

الثقافية للعرب، لا يريد أن يقطع جذوره عن بيئته الأولى، عن تلك الصحراء التي أنبتته، وعن اللهجة التي حفظت أنفاسها من الغبار والريح. وفي كل مرة أسمعه، أجدني أعود قليلاً إلى الوراء، إلى تلك اللحظة الأولى التي سحرتني فيها القصيدة البدوية، فأصمت... وأترك قلبي ينصت إلى نبض البادية. ومع تقدّم العمر، صرت أرى في هذا الشعر أكثر من متعة لغوية أو جمالية؛ أراه ذاكرة وطنٍ وثقافة أمة. في قطر، ظل الشعر البدوي حيًّا في المجالس والمنابر والإعلام، شاهدًا على زمنٍ لم يفقد صلته بجذوره، ولم يتنكر لصحرائه الأولى. وحين أسمع شاعرًا بدويًا اليوم، أشعر أنني أستمع إلى التاريخ وهو يتكلَّم بلسان الناس لا بلسان المؤرِّخين، بصوتٍ عفويٍّ صادقٍ يجيء من القلب، ليقول لنا إن الهويَّة لا تُكتب بالحبر وحده؛ بل تُروى بالإيقاع والوجدان والذاكرة. وكلما مرّ بي هذا الشعر، أحسست أن في صوته شيئًا من ذاكرتي الشخصية، أيضًا، من أيامي الأولى في قطر، ومن المجالس التي جمعتنا حول الكلمة الصادقة والقصيدة التي تُقال بحب. الشعر البدوي ليس مجرَّد تراثٍ يُروى؛ بل نبضٌ لا يزال حيًّا في وجداننا، يذكّرنا بأن الكلمة كانت يومًا وطنًا صغيرًا نحمله في القلب.

قطريون في مصر.. مصريون في قطر

عرفتُ من أهل قطر إخوةً أعزاء من الرعيل الأول الذين تلقّوا تعليمهم في مصر على أيدي أبنائها. ظلّت تربطني بهم علاقة محبة وتقدير، كما ظلّوا هم على صلةٍ روحية وثقافية عميقة بمصر وأهلها. كنتُ أراهم - دائمًا - سفراء لمصر في قطر، كما كانوا في يومٍ من الأيام سفراء لقطر في مصر.

حين عاشوا في المجتمع المصري في أثناء دراستهم الجامعية، تكوّنت لهم روابط وذكريات وخواطر لا تُنسى. ومنهم من انخرط في المجتمع المصري وتزوّج من عائلاته، لتظلّ العلاقات بين البلدين أعمقَ من حدود التعليم، تمتدّ إلى الألفة والمصاهرة والتجارب الحياتية المشتركة. وكلما التقينا هنا على أرض قطر، وجاء ذكر بعض المناسبات، رأيتُ في عيونهم حنينًا خاصًا وتواصلاً بليغًا مع تلك الأيام التي حملت في طيّاتها عبق مصر ودفء أهلها.

وما زلت أذكر ذلك اليوم الذي شاهدتُ فيه المغفور له بإذن الله الدكتور العلّامة كمال بشر، أستاذ اللغة العربية الكبير، حين جاء إلى الدوحة ليقدّم محاضرة عن مكانة اللغة العربية. رأيتُ الوزراء من أبناء قطر يحتفون به ويُجلّونه ويضعونه في مقام رفيع، إعزازًا له ووفاءً لكونه علّمهم أو تتلّمذوا على يديه. كانت لحظةً مؤثرة، تُجسّد عمق المودة بين المعلّم وتلاميذه، وتؤكّد أن روابط العلم تتجاوز كل المسافات والمناصب لتبقى هي الأصل في العلاقة.

وكثيرًا ما حدث أن جاء عالم أو أستاذ من أساتذة الجامعة المصرية ليقدّم محاضرة من المحاضرات، فإذا بي أجد العديد من أبناء قطر يهمسون في أذني قائلين: لقد تتلمذنا على يديه. وبعد انتهاء المحاضرة، أرى حرارة السلام والمودة بين الأستاذ وتلاميذه، بما يدلّ على أن تلك العلاقة لم تَغِب عن الذاكرة، ولم ينساها الأستاذ كما لم ينساها التلميذ. كانت لحظاتٍ صغيرة في ظاهرها؛ لكنها تحمل في أعماقها معنى الوفاء

والعرفان المتبادل، ذلك الذي لا يُدرّس في القاعات؛ بل يُزرع في القلوب.

لقد ذهب الجيل الأول من أبناء قطر في ستينيات القرن الماضي إلى الجامعات المصرية طلبًا للعلم. ومن هؤلاء:

الدكتور حسن النعمة، والدكتور حمد بن عبد العزيز الكواري، والدكتورة جهينة سلطان العيسى، والدكتور يوسف عبيدان، والدكتور مصطفى عقيل، والشيخ عبد الرحمن المحمود، والأساتذة محمد المحمود، وسعادة الأستاذ أحمد المحمود، وعلي المحمود، والدكتور عبد الحميد الأنصاري، والدكتور محمد عبد الرحيم كافود، والدكتور حسن الأنصاري، والمهندس يوسف جاسم الجاسم، والأستاذ موسى زينل، والفنَّان عبد العزيز ناصر، والفنَّان محمد الساعي، والدكتور حسن رشيد، والفنَّان يوسف أحمد، والدكتور مرزوق البشير، والفنَّان سلمان المالك، وغيرهم كثير.

كلما تذكَّرتهم، شعرتُ أنني أعيش بين جيلٍ آمن بالعلم رسالةً، وبالثقافة جسرًا للتواصل الإنساني. فقد تقلّد هؤلاء أعلى المناصب: من وزراء وسفراء وفنَّانين وموسيقيين ومربين وقادة بناء، ومنهم من تخصّص في الطب والهندسة والزراعة والتجارة والحقوق وغيرها؛ لكن الأجمل أن كثيرًا منهم ظلَّ وفيًّا لتلك السنوات الأولى التي فتحت له أبواب المعرفة في مصر.

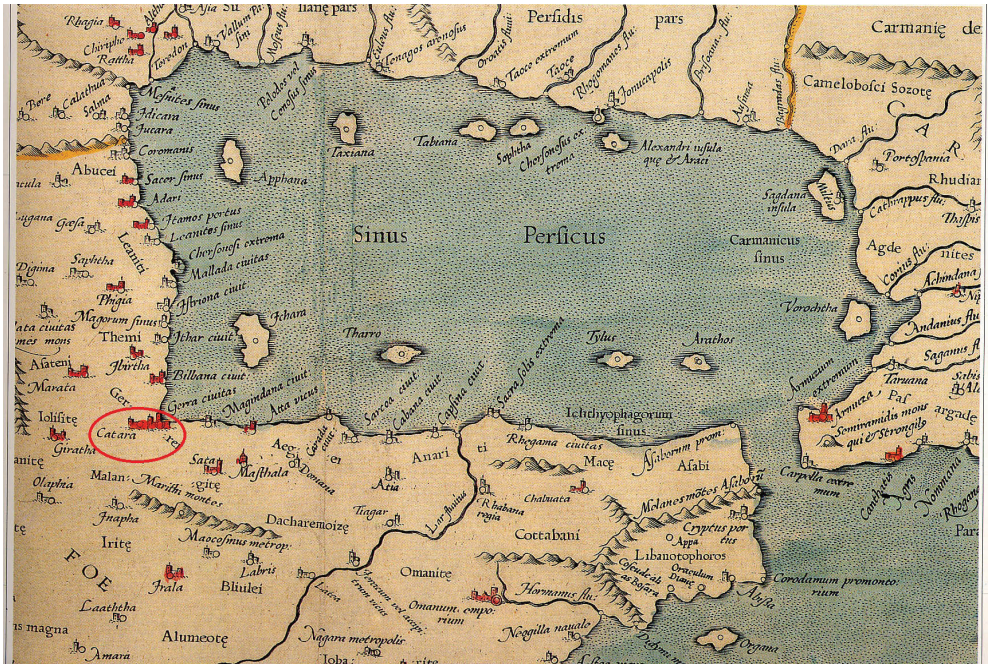
ولم تتوقَّف علاقتي بذلك الجيل عند حدود الذكريات؛ بل امتدت إلى الأجيال التي لحقت به، مثل: الدكتور حسن بن محمد آل ثاني، والدكتور ثاني بن علي بن سعود آل ثاني، والدكتورة كلثم الغانم، والأستاذ سلطان الجابر، والأستاذ تركي المهندي، وغيرهم من الذين تعلَّموا في جامعات قطر ثم في جامعات مصر لاحقًا. كانوا إذا التقوا بي هنا أو هناك، أشعر أن شيئًا من الودّ القديم ما يزال يجري بيننا، كأن الثقافة كانت ولا تزال تجمعنا، في الدوحة كما في القاهرة، في الذاكرة كما في الواقع.

كلما استعدتُ تلك الوجوه المضيئة، أدركتُ أن ما يجمع الشعوب ليس فقط المصالح ولا الاتفاقيات؛ بل تلك الخيوط الخفية من المودة والذكريات التي تنسجها الأيام في قلوب الناس. لقد كان العلم جسرًا، وصار الودّ

ضـوءًا لا يخبو.

وأنـا، كلما التقيـت أحدهـم، أشـعر أن بيننـا تاريخًـا مـشتركًا لا يُقـاس بالسـنين؛ بـل بالقلـوب. ومـن القاهـرة إلى الدوحـة، مـا تزال الـدروب تحفظ خطـوات أولئـك الذيـن آمنـوا أن الثقافة وطـنٌ حين تتّسـع، وأن التعليم أوفى أشـكال المحبـة بين الأمـم.

أما بعد



◉ تفصيل من خريطة بطليموس وتبدو قطر في الجنوب الغربي للخليج - بطليموس عام 1478

أما بعد، فإنني أقول لكم: إن قطر لم تولد فجأة، ولم تُكتب قصتها على عجل. كانت منذ فجر التاريخ رقعةً من الأرض يعشقها البحر، ويغفو الرمل في حضنها مطمئنًا. وهي تمتد في عمق الخليج كذراعٍ منبسطة نحو الأفق، عرف الإنسان طريقه منذ آلاف السنين، ونصب خيمته الأولى على الشواطئ التي كانت تموج بالحياة. هنا صُنعت الأدوات الحجرية، وهنا انطلقت قوافل التجارة من دلمون وبلاد الرافدين إلى سواحل الهند، حاملةً اللؤلؤ والبخور والعطور.

على هذه الأرض اختلطت رائحة الملح بعبق التاريخ، فكانت قطر جزءًا من الحكاية الكبرى لإقليم بلاد البحرين، لم تكن الحدود يومًا خطوطًا؛ بل كانت قلوبًا تتصل عبر البحر، وأصوات النواخذة وهم يتتبعون النجوم، وصوت النهام يتصاعد في السماء. لقد عايشتُ الخرائط القديمة، وقرأتُ ما دوّنه البلدانيون في أسفارهم، ورأيتُ بعين القلب كيف كانت قطر حاضرة في عمق التاريخ، لا على هوامشه.



◉ المؤلف في قسم الخرائط بين الأطالس والكرة الأرضية وأجهزة القياس

كنتُ أقلب في الخرائط الأوروبية التي رسمت الخليج بخطوطٍ مرتجفة، فأجد قطر بكل اللغات: «كاترا وكاتورة وكترا وكترا وجتر وقطر» كما قرأت عن مدنها القديمة، الحويلة واليوسيفية وفريحة والزبارة والبدع والدوحة... أجدها على الخريطة دوائر صغيرة من مداد؛ لكني كنت أعلم أن وراء كل دائرة حياةً كاملة: بشرًا يبحرون ويغوصون ويتاجرون، وأناس يعيشون، وأطفال يلعبون، ويتعلَّمون، ويكبرون ويبنون، وذاكرةً لا تُمحى.

كل خريطة كنت أدرسها كانت تفتح لي نافذة على زمنٍ قديم، تذكِّرني بأن هذا الوطن كان معروفًا، مذكورًا، مرسومًا على الورق وفي الوجدان، منذ قرونٍ سبقت ميلاد دولٍ كثيرة. وحين أقارن ما خطّه الرحالة بما أنجزه المحدثون من علمٍ وجغرافيا، أزداد يقينًا بأن قطر لم تكن فراغًا ينتظر من يكتشفه؛ بل كانت صوتًا في الجغرافيا وحضورًا في التاريخ، نحتت اسمها بين تقلبات الأحداث، وبقيت شاهدةً على أن المكان لا يُقاس باتساعه؛ بل بعمقه في الذاكرة الإنسانية. ومع القرن الثامن عشر، بدأ الاسم «قطر» يلمع في خرائط الخليج، يوم بزغت الزبارة ميناءً مزدهرًا ومركزًا للتجارة والعمران.

ومـن بين تلـك الرمـال، ولـد صـوت جديـد يدعو إلى الوحـدة والعـزة، صوت آل ثـاني الذيـن نسـجوا خيوط الكيـان، وجمعوا أبناء قطـر ليلتفوا في عقـد من الوفاء والكرامـة والمحبـة، حتـى بـزغ فجـر جديـد على يـد الشـيخ محمـد بـن ثـاني ومعه ومـن بعـده ابنـه جاسـم بن محمد بن ثـاني، مؤسِّـس الدولة وبـاني نهضتها الأولى، الـذي جمـع القبائـل تحـت رايـة واحـدة، وأعلـن مـيلاد قطـر الحديثـة في أواخـر القرن التاسـع عشر.

كانـت السـفن تبحر من الدوحـة والوكرة والخـور والرويس، تحمـل اللؤلؤ وتعود بالحكايـات، وكان البحـر مـرآة لوجـه الوطـن، كريمًـا حين يُعطـي، صبـورًا حين يغضـب، شـامخًا كأهلـه الذيـن واجهـوا العواصـف بثقـة وإيمـان. ثـم جـاءت فترة الشـيخ عبـد اللـه بن جاسـم آل ثاني، وهـي مرحلـة مفصلية في تاريـخ قطر، أرسى فيهـا دعائـم الدولة الحديثـة، وثبّت حدودها، وحافظ على سـيادتها. كان زمنه زمن تحـوّلات عالميـة وإقليميـة عاصفـة، فقـاد السـفينة بحكمـة القائـد وصلابـة المؤمن، مدافعًـا عـن وطنـه في وجـه الأطماع، حريصًـا على حمايـة أرضـه ورعايـة أبنـاء شـعبه ومصالحهم. كان كالأسـد الجسـور في شـجاعته، لا يلين أمام العواصف، ولا يتراجـع عـن الموقـف الحـق، فحفظ اللـه به قطر مـن أنـواء السياسـة واضطرابات الزمـن، وأرسى مـن خلال حكمه المتوازن أسـس الاسـتقرار الذي قامـت عليه نهضة الـبلاد في العقـود التاليـة. وفي عهـد ابنه الشـيخ علي بن عبد اللـه آل ثاني، خرجت أول شـحنة مـن الـبترول مـن موانئ قطر، فـكان ذلك الحدث إيذانًـا بميلاد مرحلة جديـدة مـن تاريـخ الوطـن. لقد اسـتطاع الشـيخ علي بحكمتـه أن يجعل مـن عوائد النفـط رافعـةً للبنـاء والتنميـة، فشُـقّت الطـرق، وأُنشـئت المـدارس والمستشـفيات، وبـدأت معـالم الدولـة الحديثة تتشـكَّل شـيئًا فشـيئًا، في مشـهدٍ يـوازن بين الأصالة والحداثـة، وبين الماضي الـذي لا يُـنسى والمسـتقبل الـذي يُنتظـر. ثـم واصـل ابنـه الشـيخ أحمـد بـن علي آل ثـاني هـذه المـسيرة المباركـة، فعمّـق في سـتينيات القـرن الماضي أسـس الدولـة، ووسّـع نطـاق الإصلاح والإعمار، لتأخـذ قطـر مكانهـا بين الـدول السـاعية إلى التقـدم بثقـة ووعي.

وجـاء بعـده الشـيخ خليفـة بـن حمـد آل ثـاني، ليطـوّر المـسيرة ويمنحهـا رؤيـة أكثر نضجًـا واسـتقلالاً، فبـدأت قطـر تدخـل مرحلـة جديدة مـن التنظيـم والإدارة

والبناء الوطني، متجهة بخطى ثابتة نحو دولةٍ عصريةٍ راسخة الدعائم. ومنذ ذلك الحين، أخذت قطر تمضي بخطى واثقة نحو المستقبل، فشُيّدت الجامعات والمعاهد وتوسعت البلاد، وتحوّل الرمل إلى مدينةٍ من ضوء وحديد.

ثم جاء عهد الشيخ حمد بن خليفة ليكتب فصل النهضة الكبرى، حيث انطلقت قطر نحو العالم تحمل فكرًا وثقافةً ورسالة، تؤمن بأن نهضتها لا تكتمل إلَّا بالعلم والمعرفة، وبأن قوتها الحقيقية تكمن في إنسانها، فواجه بهم العالم يرفع علم قطر.

ثم جاء عهد الشيخ تميم بن حمد آل ثاني ليمنح هذه النهضة بُعدها العالمي، فصارت قطر في زمنه صوتًا مسموعًا في المحافل الدولية، وحاضرةً في قلب العالم بحكمتها ودبلوماسيتها النشطة، وحرصها على السلام والتنمية واحترام الإنسان. في عهده، تجاوزت قطر حدود الجغرافيا لتصبح نموذجًا في الحضور الثقافي والسياسي والرياضي، تجمع بين الحداثة والهويَّة، وتوازن بين الأصالة والتطور، وتُقدّم للعالم صورة الوطن العربي الواثق بقدراته والمخلص لقيمه. وهكذا تمضي قطر اليوم لا كحكاية ماضية تُروى؛ بل كحلم يتجدَّد كل صباح، في وطنٍ جمع بين التاريخ والرؤية، بين البحر والرمل، بين الأصالة والمستقبل، وطنٍ يعرف كيف يصغي إلى ماضيه ليصوغ من روحه طريق الغد.

هكذا كانت قطر، وهكذا ستبقى: أرضًا صغيرة المساحة، كبيرة المعنى، تكتب على رمالها سطور المجد، وتهمس للعالم بصوتٍ يقول: هنا وُلدت الحكاية، وهنا لا تزال تُروى. في مساءات العمر، حين أتأمَّل بحر الدوحة وهو يلامس الأفق، أشعر أن تاريخ قطر ليس فصولاً في كتاب؛ بل أنفاس حياةٍ ممتدة في الزمن. كل موجة تحمل ذكرى، وكل نسمة تمرّ كأنها صوت الجدّ وهو يروي كيف كان الغوص قدر الرجال، وكيف كانت الخيمة وطنًا والقيم عمادًا. أفكر أحيانًا: ما الذي يجعل وطنًا صغيرًا في المساحة عظيمًا في المعنى؟ ثم أجد الجواب في وجوه الناس، في صبرهم على القيظ، وفي عزمهم حين تهبّ رياح التغيير. لقد صنعت قطر مجدها بعرق أبنائها، وبحكمة قادتها الذين فهموا أن بناء الإنسان هو أثمن من بناء الحجر. وحين أرى اليوم أبراج الدوحة تعانق السحاب، أتذكر كيف كانت الطرق، وكيف فتحت أوّل مدرسة أبوابها لابناء قطر، وكيف وثّقوا

تراثهـم بانشـاء أول متحـف أُقيـم على شـاطئ البحر. عندهـا أدرك أن كل ما مضى لم يكـن مجـرَّد مـاضٍ؛ بـل كان وعـدًا تحقـق، وحـلماً اسـتيقظ على الواقـع. وهكـذا تبقـى قطـر في الوجدان، لا كجغرافيا فحسـب؛ بل كذاكرةٍ نابضـة بالوفاء، وكحكايةٍ أرويهـا لأحفـادي، لأقـول لهـم: هنـا بدأت القصـة، وهنا لا تـزال تُكتب، مـا دام في الصـدر نبـضٌ وفي البحـر ماء.

مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع

ليست كلُّ الأماكن سواء. هناك أماكن تُمرّ بها فتبقى خارجك، وأماكن تدخلها فتسكنك إلى الأبد. ومؤسَّسة قطر واحدةٌ من تلك الأمكنة التي لم أعبرها كعابر طريق؛ بل عاشت في داخلي كفكرةٍ وحالةٍ وروح.

دخلتُها وأنا أحمل خبرة السنين وعشق الكتاب، فوجدت فيها امتدادًا لما بدأته في جامعة قطر؛ لكن بروحٍ جديدةٍ تتطلع إلى المستقبل. فيها تعلّمتُ أن التعليم ليس مجرَّد صفوفٍ ومحاضرات؛ بل رؤية تُبنى على الإيمان بالإنسان، وعلى قناعةٍ بأنّ المعرفة لا تثمر إلَّا إذا تجذّرت في التربة التي أنبتتها.

نعم مؤسَّسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع هي بيتي الثاني بعد جامعة قطر؛ بل هي محطتي الرئيسة في هذه المرحلة من حياتي. ليست مجرَّد مكانٍ عملت فيه؛ بل فضاء من فكرٍ وانتماء، ومساحة يلتقي فيها الماضي بالحلم. كلّما دخلت أروقتها شعرت أنني أدخل إلى فكرةٍ عشتها طويلًا: أن التعليم ليس مجرَّد قاعةٍ وكتاب؛ بل مشروع أمةٍ تصنع نموذجها الخاص. منذ منتصف التسعينيات، يوم وُلدت فكرة المؤسَّسة، أدركت أن قطر تمضي نحو تأسيس تجربةٍ غير مسبوقة: أن تأتي بالعلم من الغرب، لا لتتبعه؛ بل لتعيد صياغته بروحها وقيمها وهويَّتها، لكي توجد مناخًا حيويًا للإبداع.

كانت تلك الرؤية الجريئة من وحي صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، الذي أراد أن يجعل من التعليم بوابة المستقبل، ومن الإنسان قلب البناء. فكر يستحق أن يقود أمة.

وهكذا، تحولت الرؤية إلى واقع، والمشروع إلى نموذجٍ يُدرَّس، والمؤسَّسة إلى بيتٍ كبيرٍ يجمع الفكر بالعمل، والبحث بالحياة. ومن جامعة قطر إلى مؤسَّسة قطر، كان انتقالي عبورًا من ضفة إلى أخرى في نهر التجربة. هناك، في قلب المؤسَّسة، وجدت نفسي أمام عالمٍ جديدٍ من الأفكار والمعرفة والنظام، أمام مناخٍ لا يهدأ من الحوار والعلم والتجريب.

أوكل إليّ أن أشارك في تسيير مشروع بناء لمكتبة قطر الوطنية، انطلاقًا من مكتبة التراث العربي والإسلامي التي أسسها الشيخ حسن بن محمد بن علي آل

ثـاني، والتـي كنـت أديرهـا لـفترة مـن عمـري، تلك التـي حملـت في أرففهـا تاريخ الأمـة، ونبضهـا الفكـري، وذاكرتهـا الحيّة. ما زلـت أذكر اللحظة الأولى وأنا أشـارك في تكوين هذا الصرح المعرفي، أشعر أنني أشارك في صناعة وعيٍ جديد.

كنـت أؤمـن أن المكتبـة ليسـت مسـتودعًا للكتـب؛ بـل جسرًا يصـلٍ بين العـلماء في المشرق والمغـرب، وبين الحـاضر والماضي. ومـن هـذا الـجسر، انطلـق الحلم ليصبح حقيقـة: مكتبـةٌ حديثـةٌ تتيـح للباحـث أن يمـد يـده مـن أي مـكان لكي يقطـف ثمار المعرفـة، أن يتجـول في أروقـة المكتبـة الرقميـة، ليطّلـع على ملايين الوثائق بضغطة زرّ واحـدة. ذلـك هـو النمـوذج الذي يجعـل للمعرفـة حضورهـا في حياتنا.

لم تكتـفِ المؤسَّسـة بالتعليـم؛ بل جعلت من البحث العلمي طريقًا إلى الاكتشـاف، ومـن المؤتمـرات جسـورًا للحـوار بين العـلماء. مـن خلال مؤتمراتٍ تُقـام في الطب والوراثـة والطاقـة والبيئـة، تجمـع العقـول مـن الغـرب والشرق في سـاحةٍ واحـدة. فنسـمع لأول مـرة مؤتمـر عـن الطـب الدقيق ومسـتقبل الجينوميـات، حيث يتحدث الباحثـون عـن خريطـة الجينـات وكأنهـم يرسـمون خريطـة الإنسـان. وفي قاعاتٍ أخـرى، انعقـد مؤتمر البروتيوميات، يغوص في أعماق الخلية لكشـف أسرار الحياة، ومؤتمـر الاضطرابـات المناعيـة الوراثيـة الـذي يبحـث عـن الأمـل في علاجٍ جديـدٍ لأمـراضٍ نـادرة. كنـت أراهـا جميعًـا شـواهد على أن قطـر لم تعـد، فقـط، تواكـب العـالم؛ بـل أصبحـت تشـارك في صياغة فكـره العلمـي الحديث.

ومـع اتسـاع هـذا الحـراك، كانت صاحبة السـمو الشـيخة موزا بنت نـاصر تتابع وتوجّـه وتُلهـم، برؤيـةٍ تجعـل من المؤسَّسـة كائنًا حيًّـا يتنفس العلـم، ويعيش من أجل الإنسـان. تحـت قيادتهـا الرؤوفـة الصارمة، أصبحت مؤسَّسـة قطر نموذجًـا للتقدم والتـحضر؛ في كل مجـال، ترفـع المعـايير، وتغرس روح الإبداع، وتمنـح كل من يعمل فيهـا شـعورًا بأنه جـزءٌ من مشروعٍ أكبر من نفسـه.

وحين أنظـر اليـوم إلى هـذا الجيـل مـن خريجـي المدينـة التعليميـة، أجـد فيهم صـورة الحلم وقد تجسـدت. تراهـم يسيرون في العالم بعلم وثقـة، يحملون هويتهم بقـدر مـا يحملـون شـهاداتهم. وأدرك أن مـا بُنـي هنـا لم يَكـن جامعةً فحسـب؛ بل مدرسـةً في الفكـر والإدارة والتنميـة والهويَّة.

تعلمـتُ مـن تجربتـي في مؤسَّسـة قطر أن الحلم لا يعيـش إلَّا إذا وجد من يؤمن

بـه. رأيـتُ بعينـي كيـف يمكـن لفكـرةٍ صـغيرةٍ أن تتحـول إلى صرحٍ مـن نـورٍ حين تتغـذّى بـالإصرار والمعرفـة والعمـل المـشترك. لم تُبنَ هـذه المؤسَّسـةً بالحجر وحده؛ بـل بالعقـول التي عشـقت العلـم، وبالقلـوب التـي رأت في التعليم رسـالة حياة.

في مكتبـة قطـر الوطنيـة رأيتُ الكتب تتحول إلى جسـورٍ بين الماضي والمسـتقبل، ورأيـتُ شـبابًا يقفـون أمام المخطوطات القديمة كمن يكتشـف نفسـه للمـرة الأولى، وكأن كل كتـابٍ يهمـس لهـم بأنهـم امتـدادٌ لتاريـخٍ لا يمـوت. وفي كل مـرةٍ أتجـول بين رفـوف المكتبـة، أستشـعر دفء الأيـدي التـي حملت هـذا الحلم، والعيـون التي سـهرت مـن أجلـه، والعقول التـي آمنت بأن المعرفة هـي الوطن الحقيقي للإنسـان. وأقـول في نـفسي: مـا أجمـل أن تبقـى هـذه الجسـور دافئـة، وأن تظـل الأبـواب مفتوحـة، ليواصـل مـن بعدنـا الـسير، حامـلين في خطاهـم شـيئًا منّـا... ومـن هذا الحلـم الـذي لم ينطفئ.

الشيخ حسن

حديثي عن الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني ليس حديثًا عابرًا عن شخصيةٍ عامة في قطر، شخصية كانت وراء تأسيس العديد من المعالم الثقافية والفنية؛ بل هو حديث عن رحلة عمرٍ كاملة، عن محطاتٍ من حياتي في هذا الوطن الذي احتواني بعطائه، كلّما ظننتُ أن المسيرة قد بلغت نهايتها، أخذني الشيخ حسن من يدي إلى محطة جديدة، إلى أفقٍ أوسع، وإلى مشروعٍ أكثر عمقًا وإلهامًا.

لقد كان - دائمًا - يرى في كل فكرة بداية، وفي كل إنجازٍ خطوة نحو ما هو أبعد. وهكذا وجدت نفسي أعيش معه رحلةً لا تُقاس بالسنوات؛ بل بما حملته من معنى وإيمانٍ بأن الثقافة رسالة، والعلم مسؤولية، والتراث جذور لا تموت.

منذ اللقاء الأول أدركتُ أنني أمام عقلٍ لا يعرف السكون، يرى في كل فكرة بذرةً لمشروع يجب زرعها، وفي كل مشروع خطوةً نحو بناء حضارة. كان يؤمن أن الثقافة ليست ترفًا، وأن التراث ليس ماضيًا يُحكى؛ بل طاقة تُستعاد لتبني المستقبل، وأن العلم هو اختياره في الحياة.

في مكتبة التراث العربي والإسلامي، كانت البدايات. هناك، رأيتُ كيف يمكن للمكتبة أن تتحول إلى صندوقٍ سحري للفكر المتقد، وإلى منجم للأفكار والمشروعات. لم تكن الكتب على الرفوف عنده مجرَّد أوراقٍ تحفظ المَعرفة؛ بل مفاتيح تفتح أبوابًا جديدة في البحث، والفن، والتاريخ، والتأصيل.

مع الشيخ حسن، تعلمتُ أن الحلم حين يجد من يؤمن به يصبح قدرًا جميلاً. وإنك حلمك، وهذا هو السر، فقد كان يخطّط للمشاريع كما يُخطّ الرسام لوحته، بعينٍ ترى البعيد وبصبرٍ يصنع الصعب.

شهدتُ معه لحظات تأسيس متحف السلاح، ذلك المشروع الذي ظلّ بالنسبة إليه أشبه بالحلم الوطني، لأنه يجمع بين الفن والتاريخ والتراث، بين ذاكرة السيف ورمزية الفن التطبيقي حي في ساحات الوغى. كنتُ أراه يراقب كل قطعة تُوثق، كل بندقية تُسجَّل، وكأنه يُعيد ترتيب ذاكرة أمة في (فاترينة) من زجاجٍ صافٍ.

ثم كان اللقاء الكبير مع الفن. في متحف الفن الاستشراقي (متحف فن المستشرقين) فقد فتح أمامي نوافذ على عوالم من الاتصال الحضاري والمعرفي بين الشرق والغرب، عالم المستشرقين الذين رأوا الشرق بعيونهم وفرشاتهم، فرسموه كما رأوه، وكما حلموا به في مخيلتهم. مع هذا الفن أدركتُ أن الحوار بين الشرق والغرب لا يُكتب بالكلمات فقط؛ بل بالألوان والظلال والدهشة، وكذلك فعل مع الكاميرات التي جاءت في منتصف القرن التاسع عشر؛ لتسجل صورة أكثر واقعية عن الشرق وعن العالم العربي وواقعه الاجتماعي بأسواقه وعمرانه وضوءه.

ومع متحف الفن العربي المعاصر (متحف)، رأيتُ كيف يتحوّل الحلم إلى صرح. أراده الشيخ حسن فضاءً يحتضن أعمال الفنَّانين العرب الرواد، ويوثّق نبض الفن في العالم العربي وفيه الفن القطري، وثقه من خلال تلك الأعمال ليس كترفٍ بصري؛ بل باعتباره وعيًا جماليًّا يعبرّ عن روح وهموم وشجون أمة. كنت أرى فيه مشروعًا من ضوءٍ وجمال، هديةً فكرية من قطر إلى العالم العربي بيد الشيخ حسن ورؤيته.

ولم يقف الشيخ حسن عند حدود الفن ولا التراث؛ كان يحمل في قلبه همّ الثقافة الخليجية كلها، يربط بين الأصالة والمعاصرة، بين القيم والحداثة، حتى غدت مشاريعه المتعددة نسيجًا واحدًا من حب الوطن والعلم والجمال. أراه اليوم وقد أصبحت جهوده مؤسَّسة قائمة بذاتها: مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية، ذلك المركز الذي أعيش فيه يومي، وأمنحه من وقتي وجهدي ووجداني، لأنه لم يعد بالنسبة إليَّ مكان عمل؛ بل بيت العمر الفكري، الامتداد الطبيعي لكل ما بدأناه سويًا.

ومن هذا المركز انطلقت مجلة رواق التاريخ والتراث، تلك المجلة التي أكملت عشر سنوات من العمل الجاد في خدمة العلم، محافظةً على رسالتها في توثيق التاريخ وصون التراث ونشر المعرفة.

فقد استطاعت المجلة أن تترسخ كمنبرٍ فكريٍّ متميز، بفضل ما نشرته من أبحاثٍ ودراساتٍ علميةٍ رفيعة المستوى، أسهمت في إثراء الحقول المعرفية وتوثيق التراث العربي والإسلامي بروحٍ نقديةٍ ومنهجيةٍ أصيلة.

كما أن الشيخ حسن أطلق من رؤيته الثقافية مشروعًا آخر لا يقل أهمية، هو مركز قطر الفني، ذلك المحترف الذي يستضيف فيه الفنَّانين العرب ليقضوا فترات في قطر، يشاهدون معالمها ويتعرفون على تطوراتها، ويتفاعلون مع روحها المتجدِّدة، فيرسمون أعمالاً فنية تعبرّ عن هذا التلاقي بين المكان والزمان.

وفّر لهم الشيخ حسن فضاءً مبدعًا يتطور اليوم إلى مركزٍ للتصميم الفني، يهدف إلى نشر الذائقة الجمالية على أوسع نطاق، وإرساء ثقافة الفن في المجتمع.

ولأنَّ الفنَّ عنده لا ينفصل عن الطبيعة، فإنَّ الشيخ حسن يرعى البيئة ومحبيها، ويترأس مركزًا تطوعيًا مجتمعيًا يعمل على نشر قيم المحافظة على البيئة والحياة الفطرية. وهكذا يمتد فكره من تأصيل نشاطه في مزرعة الوبرة إلى ترسيخ السلوك المجتمعي المسؤول تجاه البيئة.

ولم يتوقف اهتمامه عند هذا الحد؛ بل انفتح - أيضًا - على تاريخ الجزيرة العربية وآثارها، فوفّر لهذا المجال الإمكانات التي تجمع العلماء والباحثين المتخصصين في آثار الجزيرة العربية، ليتابعوا أبحاثهم الميدانية والتنقيبية، وليُسهموا في الكشف عن صفحات مجهولة من تاريخ هذه الأرض.

وتُوّج هذا الجهد بدعم مجلة علمية محكّمة تُعنى بآثار الجزيرة العربية هي مجلة أثيرة، التي تمثل رافدًا علميًا متميزًا في ميدان البحث الأثري. في مجلسه، تعلمتُ أن المعرفة لا تُلقَّن؛ بل تُتداول. كان إذا تحدّث، انفتح أمامك موسوعة من الحكمة والتاريخ والفن. رجل جمع بين الدكتوراه في تاريخ قطر والدكتوراه في تاريخ الفن والاهتمام بالشأن العام، لا ليضيف إلى ألقابه لقبًا جديدًا؛ بل ليبني جسرًا بين التراث والفن والثقافة.

مجلس الشيخ حسن بن محمد آل ثاني

في أوائل الثمانينيات دعاني الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني إلى زيارته في مجلسه في المسيلة، وكانت تلك دعوة تبدو عادية في ظاهرها؛ لكنها - كما اكتشفت لاحقًا - كانت بداية طريقٍ آخر في حياتي. أتذكر ذلك الزمن بملامحه الطازجة، وكنتُ يومها أرافق أستاذي الدكتور كمال الدين البتانوني، غير مدركٍ أن عبوري البسيط لعتبة ذلك المجلس سيقودني إلى مسارٍ جديد يعيد ترتيب سنوات عمري كلها على نحوٍ لم يخطر لي في بال.

كان المجلس عالمًا يزاوج بين الأصالة والمعاصرة بذكاء لافت. ضوءٌ خافت يشبه همس المعرفة، وسجادٌ يحمل دفء البيوت القديمة، ثم تلك المكتبة التي وقفت في طرف القاعة كأنها تنتظر قارئًا يعرف قدرها. اقتربت منها بحذر، أبحث عن إذنٍ غير منطوق، فالتقط الشيخ حسن ترددي وسألني بابتسامة هادئة:

«تحب القراءة»؟

وقبل أن أجيب، قال الدكتور البتانوني ضاحكًا:

«هذا مهووس بالكتب... يلتهمها التهامًا».

ابتسم الشيخ حسن وقال ممازحًا:

«اقرأ ما تشاء... دون التهام».

كانت تلك اللحظة بداية علاقة سرية بيني وبين مكتبته؛ أقضي ساعاتٍ طويلة أطالع عناوينها، أصنّفها، وأنشئ قوائمها. وعندما فرغت من تنظيمها وقدّمت الدفتر إليه، ظننت أن مهمتي انتهت؛ لكنه فاجأني بجملةٍ حفرت أثرها في داخلي:

«احتفظ بالدفتر... هذه المكتبة في رقبتك».

ومنذ ذلك اليوم بقي الدفتر في يدي، وبقيت المكتبة في رقبتي، مهما تغيّرت السلاسل وتبدّل القيد.

هكذا بدأت رحلتي المسائية معه... مع مجلسه، ومكتبته، ومشاريعه التي ستصبح، لاحقًا، من علامات المشهد الثقافي في قطر. كنت أذهب نهارًا إلى عملي في جامعة قطر، وأعود مساءً إلى مجلسه. ومع مرور الأيام تحوّل المجلس إلى فضاء فكري يجمع أطيافًا من البشر: عالمًا، وأديبًا، ومهندسًا، ودبلوماسيًا، وفنَّانًا، ومستشرقًا. خليطٌ من العقول التي لا يجمعها إلَّا الشغف.

أذكر الوجوه جيدًا:

الدكتور درويش الفار بثقله المعرفي وهدوئه المميَّز، الدكتور عمر عبد المعز بآرائه الصادمة التي تحرّك الساكن، الدكتور فارس التميمي برهافة ذائقته وشراكتي معه في عشق عبد الوهاب، الدكتور وليد التميمي، صاحب الحوار العنيد الذي لا يجامل أحدًا، والدكتور يحيى الجبوري بعلمه وأدبه، ثم صوت عدنان الشريف الذي يسبق حضوره دائمًا، وأبو نوفل، نشوان العمري، بضحكته وكاميرته.

وكان بيننا ضيفٌ لا يُنسى:

المستشرق البريطاني بروس إنجهام، الذي أحب الشرق حتى صار جزءًا منه. عربيته المكسَّرة الحلوة، ابتسامته الهادئة، وانغماسه في حياة البادية جعلته أقرب إلى شخصية «مفرّج». كان واسع العلم، عظيم التواضع، لا يحسم رأيًا؛ بل يقول دائمًا:

«ربما... أعتقد».

وقد مدحه الشيخ حمد الجاسر، وهذا وحده يكفي.

كانت تلك السنوات ذهبية بكل ما فيها.

نجلس كل مساء، نستمع إلى إذاعة لندن - هواية الشيخ حسن قبل النوم - ثم ندخل في نقاشات حامية. وكان الشيخ، بذكاء خفي، يشعل فتيل الاختلاف بيننا أحيانًا، ويتركنا نصطدم ونعود، نتفق ونختلف، وكلٌّ منّا يخرج وفي رأسه فكرة جديدة.

أما أنا، فكنت «الخازندار»... حارس الكتب وسجلّها. أجلس قرب مدخل المكتبة، أسجّل الكتب الجديدة، وأقرأ ما أظن أنه يهم الشيخ حسن. ومع الوقت

أصبحت أعرف الكتب من أغلفتها، وأشعر أنها تعرفني، أيضًا. وعندما أتذكر سور الكتب القديمة في القاهرة، أسمع صوت بائع الكتب الذي قال لي يومًا:

«إذا أحببت الكتاب... أحبك الكتاب».

كلما أغلقت عيني وعدت إلى تلك السنوات، أجدني أمشي في ممرّات المجلس كأنني أمشي في داخلي.

تلك الوجوه التي مرّت، تلك النقاشات التي تصاعدت ثم هدأت، تلك الكتب التي فتحت أعينها علينا قبل أن نفتّح نحن أعيننا عليها... كلها تحوّلت إلى طبقات من الذاكرة، تتراكم فوق بعضها وتصنعني كما أنا اليوم.

أدرك الآن أن حياتي لم تتغير دفعة واحدة؛ بل تسللت التحولات إليها بصمت، منذ اللحظة التي صافحت فيها الشيخ حسن لأول مرة. لم أكن أعرف أن تلك المصافحة ستعيد ترتيب سنواتي القادمة، وستقودني إلى عالم لا تُقاس فيه الأيام بالساعات؛ بل بالأفكار التي تشتعل، بالكتب التي تتنفس، وبالمجالس التي تترك في القلب أثرًا لا يمحوه الزمن.

كنت أظن أنني ذاهب إلى «مجلس ثقافي»، فإذا بي أدخل مدرسة العمر؛ مدرسة لا جدران لها، سقفها سماحة الحوار، وأرضها صدق المعرفة. فيها تعلمت أن الإصغاء معرفة، وأن الاختلاف نعمة، وأن الرحلة مع الكتب لا تشيخ مهما شاخ صاحبها.

واليوم، وبعد كل تلك السنوات من عمري، أعلم أن تلك السنوات لم تكن مرحلة عابرة؛ بل كانت الجذور التي أمسكت بروحي وثبّتت خطواتي. لم أبحث عن دور، ومع ذلك وجدت نفسي جزءًا من مشروع ثقافي وإنساني أكبر من اسمي، وأوسع من وظيفتي، وأعمق من الطريق الذي رسمته لنفسي في شبابي.

وحين أتأمَّل ما مضى، أعرف أن الشيخ حسن لم يكن صفحة في كتاب حياتي... بل كان الكتاب كله: عنوانه، وفصوله، وهوامشه، ومساحاته البيضاء التي نكتب فيها ما نعجز عن قوله. لقد كان بوابة واسعة أطللتُ منها على عالم الفكر والتراث، وصوتًا صافيًا دفعني إلى أن أتعلم وأبحث وأوثّق، وأرى قطر بعين المحبّ قبل عين الباحث.

ولهذا، كلما عدت إلى البدايات، قلت في نفسي بصوت خافت: ما كان لهذه الرحلة أن تكون... لولا أن القدر وضع الشيخ حسن في طريقي، وفتح لي بابًا ما زلت، حتى الآن، أمشي فيه بامتنانٍ لا ينتهي.

وفي مجلس الشيخ حسن عرفت الدكتور فارس التميمي، أو الطائر الحرّ كما أحب أن أسميه، فهو حالة فكرية متفرّدة جمعت بين النقد الجريء والتمرد الإنساني الصادق. رجل تمرّد على كل قيد، سواء أكان معتقدًا أم تقليدًا، وعاش مؤمنًا أن الإنسان لا يحقق ذاته إلَّا إذا اختار حريته بنفسه، غير عابئ بانتقاد ولا منساق وراء توقعات.

جمعنا الشيخ حسن في مجلسه الغني بالحوار، كنتُ أشعر أن بيني وبين فارس تماهيًا فكريًا عجيبًا، شكلنا فريقًا واحدًا، كأننا شربنا من معينٍ واحد، وذقنا من ذائقةٍ واحدة. في تلك الجلسات كان كلٌّ منّا يعيد ترتيب أوراقه في صمتٍ تأمُّليٍّ جميل، نغوص معًا في متعة القصة والرواية التاريخية، كأن الحديث عنها مرآة نرى فيها ذواتنا ونسبر بها أغوار أفكارنا.

ما يميز فارس هو جرأته الفكرية النادرة، فهو يرى التاريخ البشري في جوهره سجلاً دمويًا وانقلابيًا، ويحذر من أن يُفرض علينا هذا الماضي ليقيّد حاضرنا ويصادر مستقبلنا. بالنسبة له، التاريخ ليس قداسة؛ بل تجربة بشرية يجب أن تُقرأ بعين نقدية حتى لا نكرر أخطاءه. وفي المقابل، اتخذ من العدالة عقيدته الأولى والأخيرة، ودينه الذي لا يرتد عنه، لا يكتفي بالمطالبة بعدالة الإنسان؛ بل يتسع أفقه ليشمل عدالة الكائنات الأخرى، حتى عالم الحيوان، في رؤية كونية نادرة.

هذه الرؤية تتجلى بوضوح في روايته «دعوة للانتحار»، حيث يطرح فكرة صادمة عن انتحار جماعي احتجاجي ضد المتنفذين الذين يعتاشون على معاناة الفقراء. الرواية تفضح كيف يستغل الإعلام والسياسيون ورجال الدين هذا الحدث لخدمة مصالحهم، وتكشف من خلال شخصية «مالك»، مدير شركة الاستثمارات، صراعًا داخليًا مريرًا حين يكتشف أن أقرب الناس إليه منخرط في هذه الدعوة. ليست الرواية بحثًا في الموت بقدر ما هي دعوة لمساءلة معنى الحياة، وللتأكيد على أن الحاضر لا يجب أن يستسلم لسطوة الماضي الدموي.

فـارس، رغـم صرامته الفكرية، ظل إنسـانًا شـفيفًا. وفي جميـع الأحوال، كان في حالـة جاهزيـة للدخـول في القتـال مـن أجل الكلمـة والموقـف. وهو عراقيٌّ عاشـقٌ للعـراق وكارهٌ لـه في آنٍ واحـد؛ يحـب ترابه حـدّ الوجع، ويخاصمـه حين يرى أبناءه يقتلـون الحلـم بأيديهـم. يعيـش في الغرب؛ لكنه يحمـل معـه أخلاق العراقي وقيمه، كأنـه يسـكن وطنـه في الغربـة، ويـغترب في وطنه حين يعود إليـه بالفكر.

أجمـل مـا جمعنـي بـه أننـا كنّـا نقيـضَين، ومـع ذلـك قبـل كلٌّ منّا الآخـر بصدق واحترام. نقطـة التلاقـي الوحيـدة بيننـا كانـت حبنـا المـشترك للفنَّـان محمـد عبدالوهـاب، ذلـك الموسـيقي الـذي وحّدنا الاسـتماع إلى فنه. ربما كانت موسـيقاه رمـزًا للحريـة التـي كنّـا نبحـث عنهـا، حالـة مـن التناغـم الوجـداني الرفيـع جعلتنا نـقترب أكثر إنسـانيًا رغـم اختلافنـا الفكـري.

كلما حاولـت أن أكتـب عن فارس، اسـتوقفني سـؤال عميق: هل أملك شـجاعته؟ إنـه الفـارس الـذي يحـارب طـواحين الهـواء، ويسـافر دون أن يمنـح أحـدًا حـق السـؤال. ومـع ذلـك يظـل في حضـوره رسـالة واضحـة: يمكـن للإنسـان أن يختـار الحريـة، وأن يكـون وفيًـا لعدالتـه حتـى ولـو بقـي وحيـدًا في رحلتـه.

إن فـارس التميمـي يقـدّم لنـا نموذجًـا نـادرًا لمثقـف لا يسـاوم على الحريـة ولا يتنـازل عـن العدالـة. في حياتـه كما في رواياتـه، ظل وفيًا لتمرده النبيـل، باحثًا عن إنصـافٍ يتجـاوز الإنسـان إلى كل كائـن حـي. وهـو بهـذا يترك لنا إرثًا من الأسـئلة المفتوحـة، ويمنحنـا شـجاعة أن ننظـر في مرايانـا دون خـوف، علّنـا نتعلـم كيـف نصنـع حاضرنـا ونؤسـس لمسـتقبل أكثر عدلاً وإنسـانية.

الحديـث عـن الدكتـور عمـر عبدالمعز هو حديث عن شـخصية اسـتثنائية جمعت بين المتناقضات في انسـجام بديع. فهو مصري قطري، أو قطري مصري، مهندس وفنَّـان، صاحـب فكـرٍ ورؤيـة، وانـتماءٍ أصيـل، وباحثٍ لا يملّ عن الحقيقة. عاشـقٌ لـلتراث العـربي والإسلامـي، يـرى في الماضي نبـض المسـتقبل، وفي الأصالـة منبـع الحداثة.

عرفتـه أول مـرة في مجلس الشـيخ حسـن، حيـث كان من أركان النقـاش وحملة الفكـر. يشـارك في كل قضيـة تُطـرح، فيدهشـك بذاكرتـه الحيـة واتسـاع معارفـه؛

يحدثك عن علاقة الولايات المتحدة بالبحرين بنفس الدقة التي يحدثك بها عن تاريخ العمارة الإسلامية أو الفنون العربية.

كنت أستقبله في مكتبة التراث العربي والإسلامي، وكان الحوار معه مدرسة قائمة بذاتها؛ فحديثه لا يُلقَّن؛ بل يُستنبط، لأننا كنّا نتعلَّم من أسئلته بقدر ما نتعلَّم من إجاباته.

ومع مرور الوقت، جمعنا التواصل عبر مجموعة على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث يرسل إلينا كل يوم رسالة ذات مغزى، أو فكرة تعبرّ عن أيديولوجيته الإنسانية العميقة، مفعمة بالحكمة والتأمُّل.

ولم يكن الدكتور عمر بمعزلٍ عن الإرث العلمي العظيم الذي انحدر منه، فهو ابن الشيخ العلامة عبدالمعز عبدالستار - يرحمه الله - أحد كبار العلماء الذين أسهموا في نشر الفكر الإسلامي الوسطي.

عرفناه في محاضراته ودروسه، وكان - يرحمه الله - من المدافعين المخلصين عن الإسلام، ثابتًا في الحق، واضح الحجة، لا يتهاون في أمرٍ من أمور العقيدة، ولا يتردد في نصرة القيم الدينية والفكرية التي آمن بها.

ورث الدكتور عمر عن والده الصلابة في المبدأ والعمق في الرؤية؛ لكنه أضاف إلى ذلك بعدًا جماليًا مدهشًا، فقد كان من محبي الفن التشكيلي، وجامعًا نادرًا لأعمال الفنَّان المصري الرائد محمود سعيد.

لقد احتفظ بمجموعة ثمينة من لوحاته الأصلية، عرضها في بيته بكل حبٍّ واعتزاز؛ ففي كل غرفة، وصالة، وممر، تجد أثرًا من أعمال محمود سعيد، يشهد على ذوقٍ رفيع، ووعيٍ فنيٍ راقٍ، وحسٍّ جماليٍّ يرى في الفن استمرارًا للجمال الإلهي في الكون.

أما شخصيته الإنسانية، فكانت مزيجًا من الكرم والودّ والعمق. كثيرًا ما جمعنا حول مائدته العامرة، حيث يتحوَّل اللقاء إلى جلسة فكرية زاخرة بالحوار، حتى ننسى الطعام أمام لذَّة الحديث وثراء الفكرة.

قصاصة ورق من العمر (تعداد السكان 1986م)

لأنني أحتفظ، دائمًا، في أرفف مكتبتي بملفات بها بقصاصات الجرائد التي لها صلة بي وبأي محطة مررت بها في أثناء تواجدي في قطر، وأحيانًا أضعها بين صفحات كتاب، ولأنني أحب أن أجلس بين وقت وآخر لاستعرض تلك القصاصات، أمسكت قبل أيام بقصاصة صغيرة كنت أحتفظ بها بين دفتي كتاب. قصاصة مهترئة في أطرافها؛ لكنها تحمل من الذاكرة ما لا تحمله مئات الصفحات المصقولة. وما إن لامستها حتى شعرت أنها تقودني إلى زمن بات يبتعد عني اليوم بأكثر من أربعين عامًا؛ إلى الأيام الأولى التي شاركت فيها في أول تعداد للسكّان في دولة قطر. رأيت نفسي شابًا يختبر مسؤوليته الأولى، يتنقّل بين شغفه بالمعرفة وبين التجارب التي كانت الحياة تضعها على كتفه دون إنذار.

تذكّرت اللحظة الأولى التي طُلب مني فيها أن أكون جزءًا من الحملة الوطنية. كان الطلب مفاجئًا ومهيبًا؛ لكن إحساسي به لم يكن إحساس الموظف الذي كُلّف بمهمة؛ بل إحساس الإنسان الذي فُتحت أمامه نافذة واسعة ليفهم المجتمع القطري من الداخل كما لم يفهمه من قبل. وفي تلك الفترة نفسها التقيت بالرجل الذي بقي أثره ماثلاً في نفسي حتى اليوم: الأستاذ محمد معيوف النعيمي، وكان يومها على رأس الجهاز الإحصائي المشرف على التعداد. رجلٌ يجمع بين الهيبة والبشاشة، بين الانضباط والإنسانية، ومنذ اللقاء الأول أدركت أن ما ينتظرني لم يكن عملاً عابرًا؛ بل تجربة ستبقى في الذاكرة ما بقيت .

ولم تكن الدوافع كلها معنوية فقط؛ فقد خصّصت الدولة مكافأة مالية قدرها ألفا ريال لكل من يشارك في أعمال التعداد. كانت مكافأة مغرية، في ذلك الوقت، تكفي لأن تشجّع الكثيرين؛ لكنها بالنسبة لي كانت تأكيدًا على قيمة الجهد، وعلى أن العمل الذي سنقوم به له وزنه ورهانه. غير أن ما شدّني فعلاً لم يكن المال؛ بل الإحساس بأنني جزء من عمل كبير، وبأن الدولة تعتمد علينا - نحن الشباب - في رسم ملامح مستقبلها.

ولأنني كنت أقوم بتدريب فرق التعداد -وكان يُطلق عليهم «العَدَّادون»- فقد عشت التجربة من عمقها. بدأنا بتعليمهم نظام الترميز: تلك الأرقام والحروف التي كانت تُكتب على أبواب البيوت، وتقسيمات الخرائط والمربعات السكنية التي تُنظِّم حركة الفريق وتحدِّد حدود العمل. ثم انتقلتُ إلى الجوانب السيكولوجية والسلوكية التي يجب أن يتحلَّى بها العَدّاد: كيف يطرق الباب، وكيف يقف إلى يمين الباب لا في مواجهته، وكيف يضبط نبرة صوته، ويقدّم نفسه، ويُظهر بطاقة العَدّاد بهدوء يطمئن النفوس.

كنت أدرّبهم على كيفية تدوين البيانات بدقة، وكيف يستمعون للمتحدث، وكيف يدركون أن كل إجابة ليست مجرَّد خانة تُملأ؛ بل لبنة في بناء أول قاعدة بيانات علمية للسكّان في قطر. كنّا نتحدث عن قياس نتائج الاستبيانات، وإخضاعها لمعاملات الصدق، وعن تطوير أداء العَدّادين حتى يصبحوا - في مرات قادمة - أكثر جاهزية واحترافًا.

ومع تحضيرات التعداد كانت الحياة تتحرك أمامي كصفحة تُكتب من جديد. خرائط تُعاد رسمها، استمارات تُصمّم بعناية، شباب يُدرّبون ليطرقوا الأبواب في المدن والقرى والمناطق البعيدة، يعدّون المساكن والمخيمات والمساكن المؤقتة، وكأنهم يلمسون نبض قطر بيتًا بيتًا. حتى من كان في الخارج من القطريين أرادوا أن يشملهم الحصر، كأن الوطن يصّر على أن تكون صورته مكتملة، لا يغيب عنها أحد.

لم يكن تعداد 1986م مجرَّد أرقام أو استبيانات؛ بل كان محاولة لرسم خريطة روحية للبلد: كيف كبر، وكيف تغيَّر، وما الذي ينتظره في طريق المستقبل. كنت أرى الوطن يومها كأنه يقف أمام مرآته لأول مرة، يسأل نفسه:

هل أنا على الطريق الصحيح؟

هل يليق بي الغد الذي أتهيأ له؟

وحين أعود اليوم إلى تلك اللحظات، أدرك أن التعداد لم يكن مشروعًا حكوميًا فحسب؛ بل كان جزءًا من رحلتنا نحن؛ رحلة بلد كان يكتب سطور شبابه، ورحلة رجل -مثلي- كان يمسك بخيط الذكريات ليرى كيف تغيَّرت الحياة، وكيف

تشـابكت خطواتـه مـع تفاصيـل وطـن كان يـكبر أمامـه، حتـى أصبـح جـزءًا مـن تاريخـه بصمـت، ومحبـة، وعمـل أدَّاه كما لـو كان يـؤدي واجبًـا لقريتـه الأولى.

قصاصة واحدة أعادت إليَّ كل ذلك...

وأعـادت إليَّ الرجـل الـذي كنتُـه، والرجل الـذي أصبحتُه، والوطن الـذي عرفته وهـو ينمـو... وأنا أنمـو معه.

هدايا السفر

كنتُ وما زلتُ أقول إنّ هدايا السفر كانت طقسًا راسخًا من طقوس حياتنا في قطر، جزءًا من تفاصيل وجودنا هنا طوال العام. فما إن يبدأ العدّ التنازلي للنزول إلى الإجازة، حتى نفتح الدفاتر الصغيرة ونكتب فيها قوائم الهدايا؛ تلك الهدايا التي نحملها معنا إلى الأهل والأقارب والجيران، الذين ودّعونا في آخر زيارة، أو الذين عرفوا بنية سفرنا للعمل في الخليج.

كنا نشعر أنّ علينا أن نعود إليهم سالمين ومعنا ما يعبرّ عن محبتنا. لم تكن الهدايا مجرَّد أشياء؛ بل كانت رسائل صامتة تقول لهم: «أنتم في القلب مهما ابتعدنا».

كانت الهدايا تُرتّب في ثلاث فئات: فئة للوالدين والإخوة والأخوات، وفئة للأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأبناء العم والخال، وفئة للجيران والمحبّين الذين لا ينسون السؤال.

وكانت تلك الهدايا بمثابة ردّ جميل على مشاعر أبدوها في رسائلهم وخطاباتهم وأشرطتهم الصوتية التي كانت تصل إلينا، فتخفّف من غربة الوقت ووحشة الأيام. ففي ذلك الزمن، كانت الرسالة الواحدة حدثًا جللاً.

وفي الدوحة، كنّا نتبادل النصائح: ماذا نشتري وهل توجد تنزيلات وأين؟ وما الذي يناسب الجميع؟ كنّا نبحث عن هدايا متواضعة الأسعار، فميزانياتنا محدودة، وكان شراء الهدايا في حدّ ذاته طقسًا آخر لا يقلّ أهمية عن السفر. فكنّا نترقّب مواسم التنزيلات، وما إن نسمع أن محلاً من المحلات – مثل: العالم الجديد أو نابينا أو متاجر سوق واقف أو سوق الجبر خاصة بياع الحلوين – قد خفّض أسعاره، حتى نهرع إليه. كانت كلمة «نزلت الأسعار» كافية لأن يتحول المساء كله إلى جولة تسوّق طويلة، مزدحمة، مليئة بالبحث والاختيار والمفاضلة.

كنا نشتري للأهل والأقارب، ولأهل زوجتي كما لأهلي، لا نفرّق بين أحد. فالهدايا لم تكن مجرَّد أشياء توزَّع؛ بل كانت طريقة للتعبير عن المحبة، ولحفظ الودّ، ولإبقاء الخيط الرفيع موصولاً بيننا وبين من نحبّ. حتى ولو باعدت بيننا المسافات.

وطبعًا... لم يكن الأمر يخلو من شراء شيء لأنفسنا ولأبنائنا. فكلما رُفع كيس من أحد المحلات، رُفع معه كيس آخر من أجل البيت. كان ما يأتي من الراتب يذهب في السوق، وما نشتريه بيد يعود ويدخل الشنطة في اليد الأخرى. وهكذا كان المشهد: تعب في البحث... وفرح في الاختيار... ودفء ينتظرنا عند التوزيع.

وعندما نصل مطار القاهرة، نُستقبل بابتسامات صافية وقلوب مبتهجة. يساعدوننا في حمل الأمتعة، ويغمروننا بالترحاب الذي يخفف تعب السفر ويجدِّد المحبة. ثم تبدأ الزيارات، ونوزّع الهدايا وقد كتبنا على كل كيس اسم صاحبه، حتى لا يختلط شيء على أحد.

أتذكَّر أنني كنت أحرص على شراء ملابس متشابهة لأبناء إخوتي ومن في أعمارهم، لون واحد وتصميم واحد، فيضحكون ويعرف الجميع أن مصدر الهدية معروف. كانت لحظات صغيرة... لكنها تصنع فرحًا كبيرًا.

وكانت العمة أو الخالة أو العم أو الخال يعبِّرون عن محبتهم بدعوة عامرة، يجتمع فيها الدفء والضحك، وتُجدَّد فيها الروابط ويُصان الودّ. كانت الهدايا تتحوَّل إلى جسر محبة يصل بين قلبين مهما طال البعد.

وكما كنّا ننزل إلى مصر محمّلين بالهدايا، كنّا نعود منها محمّلين بأشياء لا نجدها هنا بسهولة، وكأنّ السفر طريقٌ ذو اتجاهين: نأخذ محبة... ونعود بمحبة.

كان والدي - يرحمه الله - يشتري لنا الطيور لنأخذها مجمّدة، وتجهّزها الأسرة كلها في ليلة واحدة. وكانت أمي تضع لنا برطمانات السمن البلدي، والملوخية المجففة والبامية المجففة والكشك وتوصينا بالحفاظ عليها، وتضع معنا عسل النحل الأبيض، وما تيسّر من خيرات البيت.

ونشتري من مصر الجبن الرومي والبسطرمة والبهارات التي لا نعرف أسماء بعضها هنا. كانت شنط السفر تتحول إلى مخزن صغير: سمن وجبن وبهارات وطيور، ورائحة من البيت القديم تسافر معنا إلى الغربة.

أما أنا، فكنت لا أعود إلى قطر دون أن أحمل معي كتبًا أهديها لأصدقائي القرّاء. كانت الهدية عندي كتابًا... فهو تذكار لا يذبل، وبصمة تبقى بعد أن تفتح الهدايا وتُنسى أغلفتها. وهكذا ظلّ السفر بين قطر ومصر طقسًا كاملاً:

نذهب محمّلين بالهدايا... ونعود محمّلين بالهدايا... وتبقى الذكريات تكتب فصولها بين الذهاب والإياب.

كل ذلك تغيَّر مع الزمن. لم تعد هناك شنط ثقيلة بالهدايا، ولا تلك الجموع التي كانت تنتظرنا في المطار. لم يبقَ إلَّا رسالة على الواتساب تقول: «الحمد لله على السلامة».

ذهب الكبار الذين كانوا يجمعوننا حول سفرة واحدة، وذهب معهم ذلك الحسّ العميق بالواجب العاطفي، ذلك الحرص على التفاصيل الصغيرة التي كانت تشكِّل معنى الحياة نفسها.

صار كلٌّ من الصغار مشغولاً بحياته، يغادر ويعود بلا هدية، بلا وصية، بلا حقيبةٍ تحمل رائحة البيت.

وعندما أجلس في زاوية الذاكرة، أتأمَّل تلك الأيام التي كانت الهدايا فيها لغة حبّ، لا مجرَّد أشياء. كانت الهدايا تربط القلوب... والآن، لم يبقَ من السفر إلَّا الذهاب والعودة، بلا طقوس بلا روح، بلا تفاصيل، بلا دفء سوى ما تتركه الذكرى؛ لكن الذكرى وحدها...

ربما تكفي، أحيانًا، لتعيد ترتيب القلب، وتضيء في الروح شيئًا من ضوء ذلك الزمن الذي لن يعود.....

حالول... مقهى الصيادين

في كل مدينة زاوية تختبئ فيها الذاكرة، تشرب الشاي مع أصحابها بصمتٍ وإحساس مريح.

حين جئنا إلى قطر في السبعينيات، كانت الدوحة ما تزال محدودة النطاق، تنام على ضفاف البحر، تتنفس الرطوبة والضوء، ولا تعرف الضجيج ولا الزحام.

كانت تخبيء وعدًا بالمدينة الحديثة؛ لكنه وعد يهمس ولا يصرخ. في تلك الأيام، لم تكن المقاهي كثيرة؛ لكن واحدًا منها كان يكفي ليحمل ملامح الناس وأحلامهم، ويصبح ذاكرةً تمتد من الشاطئ إلى مياه الخليج.

كان اسمه حالول، يقع بين متحف الفن الإسلامي ومتحف قطر الوطني، كأنما اختار مكانه ليبقى في قلب التاريخ، بين الفن والذاكرة، بين الأمس والبحر.

أُنشيء المقهى في مطلع السبعينيات، على يد مجموعة من موظفي متحف قطر الوطني، كانوا يجتمعون بعد ساعات العمل ليشربوا الشاي، وليتحدثوا عن الأيام والأحلام والحياة.

لم يكن فيه أكثر من كبينة صغيرة وعامل آسيوي يعدّ القهوة مجانًا، وصيادون يتقاسمون صيدهم مع الجالسين، في مشهد يفيض بالبساطة والعشرة والرضا.

كبر المقهى كما كبرت الدوحة، تمددت حوله الأبراج والطرق؛ لكنه ظلَّ كما هو، بملامحه الأولى، بنكهة الشاي التي لا تتغيّر. كاد أن يُزال يومًا ليتّسع العمران، لولا زيارة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، الذي رأى في المكان شيئًا من روح الناس، فأمر بالحفاظ عليه. ومنذ ذلك الحين، صار حالول أشبه بوصية جميلة للمدينة، تذكيرًا بأن بعض الأماكن لا تعمّر بالحجارة؛ بل بالحبّ الذي يسكنها.

أما الاسم فقد كان له في قلبي طريقٌ آخر.

حالول ليست فقط مقهى؛ بل الأصل اسم جزيرة زرتها ذات عام بتكليف من جامعة قطر لمسح نباتاتها البرّية. هناك، في عرض البحر، كانت الأرض تفيض حياةً وصمتًا، تحتضن الغزلان والمها العربي، تلك الكائنات البيضاء التي تمشي كأنها ظلّ للسلام.

كانت الجزيرة تشبه بيتًا للطبيعة، لا تدخله سوى الريح، ولا يغادره سوى الضوء.

لقد كانت جزيرة حالول منذ القدم نموذجًا للتعايش والانسجام بين الطبيعة والتطور، بين البحر والإنسان، بين الغزلان وسفن البترول الخام المستخرج من الحقول البحرية.

كانت الجزيرة حتى منتصف القرن العشرين ملاذًا للصيادين والبحارة، يلجأون إليها أيام العواصف، ويقضون فيها لياليهم الطويلة في انتظار صفاء البحر.

ومع منتصف الخمسينيات، حين بدأت عمليات التنقيب عن النفط في مياهها الإقليمية، تغيّر وجه الجزيرة وارتفعت قيمتها. صار ميناؤها الصغير يستقبل السفن التي تحمل المعدات والأجهزة، ثم غدت، في مطلع الستينيات، ميناء التفريغ الأول للنفط المستخرج من الحقول البحرية القريبة.

تحوّلت الجزيرة شيئًا فشيئًا من ملاذٍ طبيعي إلى قلبٍ صناعي؛ لكنها احتفظت بروحها القديمة: هدير البحر لا يزال هناك، والمها ما يزال يطلّ من بعيد كرمزٍ للوفاء بين الطبيعة والإنسان.

وحين سمعتُ الاسم يُطلق على مقهى الصيادين، شعرت أن الذاكرة قد ربطت بين صورَتين للحياة: جزيرةٌ تحتضن المها والغزلان، ومقهى يحتضن الإنسان والكلمة. من سكون الجزيرة إلى ضجيج المدينة، من عيون الحيوان الوادعة إلى عيون البحّارة المتعبة، من عزلة العلم إلى دفء الرفقة.

في مقهى حالول، كنت أرى قطر كما عرفتها أول مرة: أصيلة، بسيطة، طيبة.

الديكور الخشبي، الطاولات القليلة، الشاي الأحمر وشاي «الكرك»، والوجوه التي تعرف بعضها. النداء الحميم «يا رفيق»، والابتسامة التي تسبق الفناجين.

كانوا يجلسون متقاربين كأنهم من بيتٍ واحد، لا يسأل أحد عن المهنة ولا المنصب. الناس سواء، كما الماء في البحر، يختلط ولا يتعالى.

هناك، شعرت أن الحياة يمكن أن تكون صادقة، بلا تكلف ولا زيف، تمامًا كما كانت في البدايات.

ما يزال المقهى يستقبل رواده مع الفجر، كبار السنّ والمثقفين والصحافيين، يتبادلون أحاديث الزمن الجميل، ويرشفون الشاي كما لو أنهم يشربون الذكرى نفسها.

وبينهم يجلس أمثالي من العابرين الفضوليين، وبعض الزوار يلتقطون الصور دون أن يعرفوا أن ما يصوّرونه ليس مقهى؛ بل روح مدينة قاومت أن تكبر بلا ذاكرة.

حالول ليس مكانًا فقط، إنه زمن.

قطعة من الحنين ما تزال تقاوم العاصفة، مرسى صغير يتشبّث به القلب كلما أغرقه الشوق إلى البدايات.